فرانكنشتاين

الروايات المشهورة

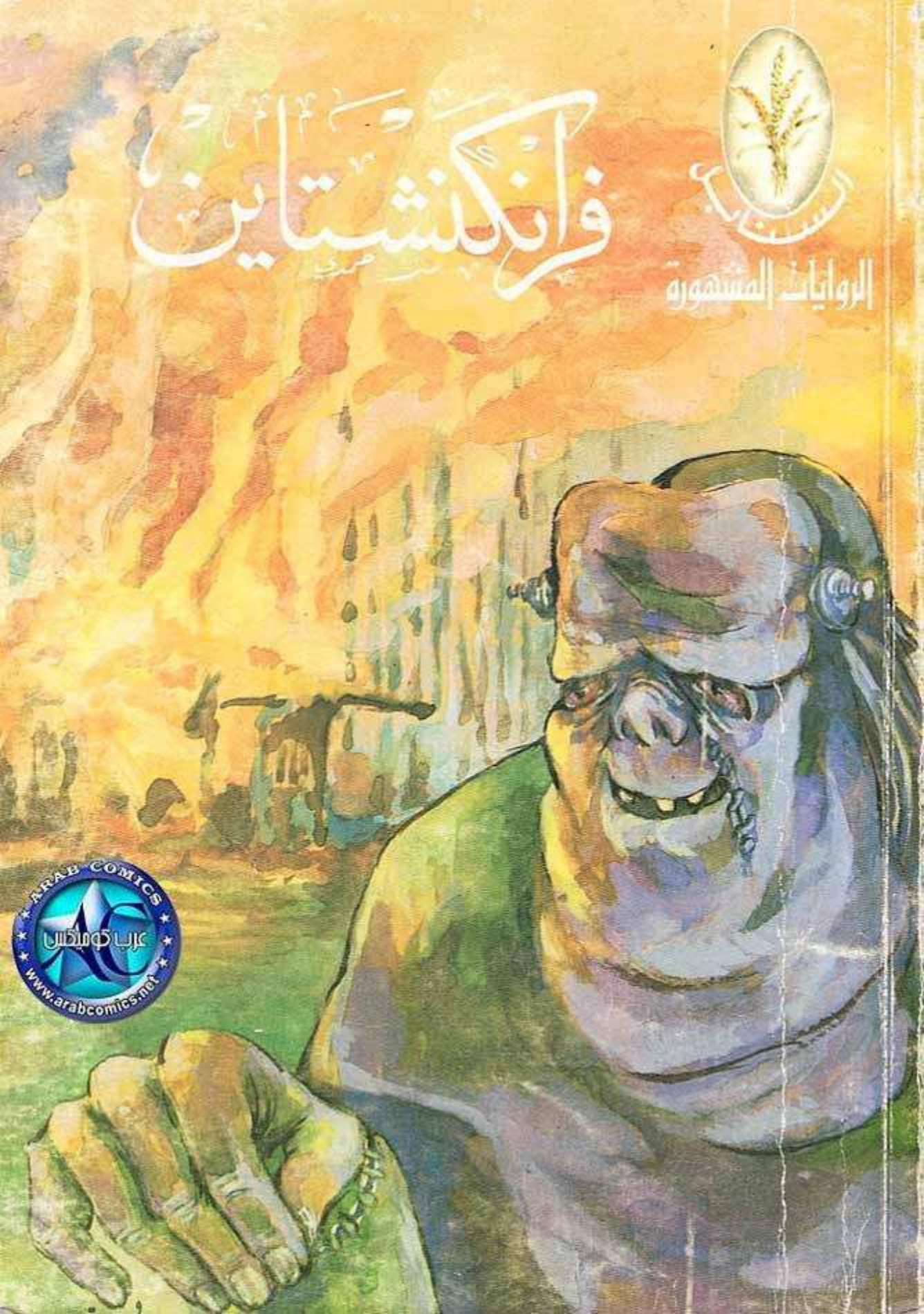

ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

جميع الحقوق محفوظة : لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٨٨ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٤-٤٦-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

فرانكنشتاين

الروايات المشهورة

تأليف : مَاري شِيللي

إعـدَاد : الدكتور محمَّد محمُود رضوَان

رُسُوم : هوَيدا مُصطفى

مَكتبَة لبنَان

بَيروت

مُقَدِّمَة

هٰذِهِ ٱلقِصَّةُ ٱلَّتي بَيْنَ يَدَيْكَ (فرانْكِنشْتاين) مِنَ ٱلقِصَصِ ٱلمُمْتِعَةِ ٱلشَّائِقَةِ ٱلَّتي تَقومُ عَلى ٱلخَيالِ ٱلعِلْميِّ .

وَمَعَ أَنَّ ٱلقِصَّةَ مِنْ نَسْجِ ٱلخَيالِ ، فَقَدْ نَجَحَتْ مُؤَلِّفَتُها « ماري شيللي » حينَ كَتَبَتْها في عامِ ١٨١٧ – أَيْ مُنْذُ نَحْوِ مِئَةٍ وَسَبْعينَ عامًا – في صياغَةِ ٱلأَحْداثِ وَٱلوَقائِعِ ٱلَّتي تَخَيَّلَتْها بِأُسْلوبٍ يَجْعَلُكَ تُحِسُّ وَأَنْتَ تَقْرَأُها كَأَنَّكَ تَعيشُ أَحْداثًا وَاقِعِيَّةً ، وَلَيْسَتْ مِنْ نَسْجِ ٱلخَيالِ .

وَهُناكَ قِصَصٌ كَثيرَةٌ – غَيْرُ فرانْكِنشْتاين – ظَهَرَتْ في خِلالِ ٱلقَرْنِ ٱلتَّاسِعَ عَشَرَ ، مِنْ هٰذا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذي يَقومُ عَلى ٱلخَيالِ ٱلعِلْميِّ ، مِثْلُ « دراكولا – مَصَّاصِ ٱلدِّماءِ » و« دُكْتور جيكل وَمِسْتر هايد » ، وَمَجْموعَةِ قِصَصٍ ج . هـ . ويلز مِثْلِ « ٱلرَّجُلِ ٱلخَفِيِّ » و« مَرْكَبَةِ ٱلزَّمَنِ » وَ« جَزيرَةِ دُكْتور مورو » وَ« حَرْبِ ٱلعَوالِمِ » ، وَغَيْرِها ؛ بِٱلإِضافَةِ إِلى بَعْضِ ٱلقِصَصِ ٱلبوليسِيَّةِ ٱلَّتي تَسْتَفيدُ مِنَ ٱلعِلْمِ وَٱلذَّكاءِ في ٱلكَشْفِ عَنِ ٱلجَرائِمِ مِثْلِ قِصَصِ شِرْلوك هولمْز .

وَلَعَلَّكَ تَسْأَلُ : لِماذا كانَ بَدْءُ ظُهورِ هٰذِهِ ٱلقِصَصِ في ٱلقَرْنِ ٱلتَّاسِعَ عَشَرَ ، ثُمَّ ٱنْتِشارُها بَعْدَ ذٰلِكَ حَتَّى ٱليَوْمِ ؟

وَٱلجَوابُ : إِنَّ هٰذا ٱلقَرْنَ يُعْتَبَرُ ٱلعَصْرَ ٱلذَّهَبِيَّ لِلتَّقَدُّمِ ٱلعِلْميِّ ، فَقَدْ تَمَّ في أَثْنائِهِ عَدَدٌ ضَخْمٌ مِنَ ٱكْتِشافاتِ ٱلعِلْمِيَّةِ ٱلَّتي وَضَّحَتْ ما كانَ غامِضًا ، وَأَلْقَتِ ٱلضَّوْءَ عَلى طَبيعَةِ ٱلكَوْنِ وَٱلإِنْسانِ . وَيَكْفي أَنْ نُشيرَ إِلى بَعْضِ هٰذِهِ ٱكْتِشافاتِ عَلى سَبيلِ ٱلمِثالِ ، فَمِنْها نَظَرِيَّةُ ٱلخَلِيَّةِ في عِلْمِ ٱلأَحْياءِ (١٨٣٥) وَهِيَ ٱلنَّظَرِيَّةُ ٱلَّتي كَشَفَتْ أَنَّ جِسْمَ ٱلكائِنِ ٱلحَيِّ يَتَكَوَّنُ مِنْ خَلايا ، وَمِنْها – في ٱلطِّبِّ – ٱكْتِشافُ ٱلجَراثيمِ كَسَبَبٍ لِلأَمْراضِ (١٨٧٥) . وَمِنْها – في ٱلعُلومِ ٱلطَّبيعِيَّةِ – ٱكْتِشافُ ٱلمَوْجاتِ ٱلكَهْرَبِيَّةِ ذاتِ ٱلتَّرَدُّدِ

ٱلعالي ٱلمُنْتَشِرَةِ في ٱلفَضاءِ (١٨٨٧) ، وَمِنْها ٱكْتِشافُ أَشِعَّةِ إِكس (١٨٩٥) وَٱليورانيوم (١٨٩٦) وَٱلرَّاديوم عَلى يَدِ مدام كوري (١٨٩٨) الخ .

لِذا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلغَريبِ – وَقَدْ تَأَثَّرَتْ حَياةُ ٱلإِنْسانِ بِهٰذِهِ ٱلكُشوفِ في كُلِّ مَجالٍ مِنْ مَجالاتِ ٱلحَياةِ – أَنْ يَتَأَثَّرَ بِها ٱلأُدَباءُ مِنْ كُتّابِ ٱلقِصَصِ ، وَأَنْ يَنْدَفِعوا في تَأْليفِ قِصَصٍ مَبْنِيَّةٍ عَلى ٱلعِلْمِ ، وَأَنْ يَسْتَخْدِمَ ٱلمُؤَلِّفونَ خَيالَهُمْ في هٰذا ٱلمَجالِ بُغْيَةَ ٱلإِثارَةِ مِنْ ناحِيَةٍ ، وَبُغْيَةَ تَشْويقِ طُلّابِ ٱلمَعْرِفَةِ إِلى مَيْدانِ ٱلعِلْمِ ٱلجَديدِ مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى .

وَلٰكِنَّ كَثيرًا مِنَ ٱلقَصّاصينَ لَمْ يَقِفوا عِنْدَ ٱلحَقائِقِ ٱلعِلْمِيَّةِ ٱلَّتي ثَبَتَ صِدْقُها فَحَسْبُ ، بَلْ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ جَمَحَ بِهِمُ ٱلخَيالُ فَقامَتْ أَحْداثُ قِصَصِهِمْ عَلى تَصَوُّراتٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ لِنَتائِجِ ٱلعِلْمِ . وَٱلطَّريفُ أَنَّ كَثيرًا مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصَوُّراتِ ٱلَّتي كانَتْ خَيالًا في خَيالٍ في يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيّامِ ، قَدْ أَصْبَحَتْ حَقائِقَ عِلْمِيَّةً مُعْتَرَفًا بِها فيما بَعْدُ ، فَصارَتْ فُروضُهُمْ نَظَرِيّاتٍ .

وَلٰكِنْ – إِلى جوارِ ذٰلِكَ – كانَ هُناكَ ٱلكَثيرُ مِمَّا اشْتَطَّ فيهِ ٱلخَيالُ ، مِمَّا لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَ ٱلعَقْلُ حُدوثَهُ ، وَبِخاصَّةٍ فيما قَدْ يَتَعارَضُ مَعَ ما جاءَتْ بِهِ ٱلأَدْيانُ ٱلسَّماوِيَّةُ ، وَمِمَّا يَقَعُ في قُدْرَةِ ٱلمَوْلى سُبْحانَهُ وَتَعالى وَحْدَهُ .

وَٱلقِصَّةُ ٱلَّتي بَيْنَ يَدَيْكَ (فرانْكِنشْتاين) جَمَحَ ٱلخَيالُ بِمُؤَلِّفَتِها (ماري شيللي) في إِحْدى جُزْئِيّاتِها إِلى هٰذا ٱلحَدِّ . صَحيحٌ أَنَّها تَناوَلَتْ كَثيرًا مِنْ حَقائِقِ ٱلعِلْمِ وَٱسْتَغَلَّتْها في أَحْداثِ ٱلقِصَّةِ مِثْلَ نَظَرِيَّةِ ٱلصّاعِقَةِ ٱلَّتي تَنْزِلُ مَعَ ٱلرَّعْدِ وَٱلبَرْقِ ، وَمِثْلَ نَظَرِيَّةِ ٱلمَوْجاتِ ٱلكَهْرَبِيَّةِ ٱلَّتي أُشِرْنا إِلَيْها مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنْ ، أَنْ تَسْتَغِلَّ هٰذِهِ ٱلنَّظَرِيَّةَ في بَعْثِ ٱلحَياةِ في جِسْمٍ صَنَعَهُ إِنْسانٌ « هُوَ ٱلعالِمُ ٱلشّابُّ فرانْكِنشْتاين » فَيوجِدُ إِنْسانًا يَمْشي عَلى قَدَمَيْهِ وَيَتَحَرَّكُ وَيَتَعَلَّمُ ٱللُّغاتِ وَيَتَحَدَّثُ مَعَ ٱلنّاسِ – فَهٰذا شَطَطٌ وَجُموحٌ لا يَقْبَلُهُ ٱلعَقْلُ ، لِأَنَّ قُدْرَةَ (ٱلخَلْقِ) هيَ قُدْرَةٌ رَبّانِيَّةٌ ﴿ أَلا لَهُ ٱلخَلْقُ وَٱلأَمْرُ تَبارَكَ ٱللهُ رَبُّ ٱلعالَمينَ ﴾ ٱلأَعْراف – آية ٥٤ .

صَحيحٌ أَنَّ هٰذا ٱلكائِنَ – ٱلَّذي أَوْجَدَتْهُ مُؤَلِّفَةُ ٱلقِصَّةِ عَلى يَدِ ٱلعالِمِ فرانْكِنشْتاين – كانَ مِسْخًا مُشَوَّهًا خالِيًا مِنَ ٱلعَواطِفِ ٱلإِنْسانِيَّةِ ، وَلٰكِنْ حَتَّى مَعَ هٰذا فَإِنَّنا لا بُدَّ أَنْ نَأْخُذَ ٱلأَمْرَ بِتَحَفُّظٍ شَديدٍ ، إِذْ مَهْما بَلَغَ ٱلعِلْمُ مِنْ تَقَدُّمٍ فَهَيْهاتَ أَنْ يَصِلَ يَوْمًا إِلى خَلْقِ إِنْسانٍ ، وَإِنَّما ٱلقادِرُ عَلى ٱلخَلْقِ هُوَ ٱللهُ وَحْدَه ، فَهُوَ ٱلخالِقُ ٱلبارِئُ ٱلمُصَوِّرُ .

فَاقْرَأْ يابُنَيَّ ٱلقِصَّةَ ، وَاسْتَمْتِعْ بِأَحْداثِها ٱلمُثيرةِ ، وَتَزَوَّدْ بِما فيها مِنْ مَعْلوماتٍ طَريفةٍ ، وَاتِّجاهاتٍ طَيِّبةٍ . اقْرَأْها وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ بِرَبِّكَ ٱلكريمِ ﴿ ٱلَّذي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ ، في أَيِّ صُورةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ ﴾ – ٱلانْفِطارِ – آية ٧ .

ٱلمُتَرْجِم

الفَصْلُ ٱلأَوَّلُ

لَسْتُ أَدْري ما إِذا كانَ مِنَ ٱلمُسْتَحْسَنِ أَنْ تُرْوَى هٰذِهِ ٱلقِصَّةُ ! إِذا نَظَرْنا إِلى ٱلأَمْرِ مِنْ بَعْضِ ٱلزَّوايا فَإِنِّي أَرى أَنَّها ما يَنْبَغي أَنْ تُرْوَى ، فَهِيَ قِصَّةٌ غَريبةٌ كُلَّ ٱلغَرابةِ ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ مَنْ سَيَقْرَأُونَها لَنْ يُصَدِّقوها . وَمَعَ ذٰلِكَ ، فَلَنْ يَكونَ في قِراءَتِها ضَرَرٌ بِٱلنِّسْبَةِ لَهُمْ عَلى ٱلأَقَلِّ . وَلٰكِنْ مِنَ ٱلمُحْتَمَلِ كَذٰلِكَ أَنَّ هُناكَ قَليلينَ سَوْفَ يُصَدِّقونَها ، وَقَدْ تَجُرُّهُمْ إِلى مَتاهاتٍ غامِضةٍ ، وَطُرُقٍ مُظْلِمةٍ ، كَتِلْكَ ٱلَّتي سَلَكَها صَديقي . وَٱلحَقُّ أَنَّني لا أُريدُ أَنْ أَتَسَبَّبَ في شَرٍّ مِثْلِ هٰذا لأَحَدٍ ؛ لِذٰلِكَ فَإِنَّني لا أَمْلِكُ إِلّا أَنْ أَقولَ لِكُلِّ مَنْ يَخْتارُ طَواعيةً أَنْ يَدْفَعَ بِنَفْسِهِ في مِثْلِ هٰذِهِ ٱلأُمورِ ، وَيَأْمُلُ تَجَنُّبَ ما عاناهُ صَديقي مِنْ أَلَمٍ وَرُعْبٍ ؛ لا أَمْلِكُ إِلّا أَنْ أَقولَ لَهُ : « لَقَدْ حَذَّرْتُكَ . »

وَٱلحَقيقةُ إِنَّني ٱلآنَ عَجوزٌ ، وَإِنَّني ٱلوَحيدُ ٱلَّذي لا يَزالُ عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ مِنْ بَيْنِ أَرْبَعةٍ قُدِّرَ لَهُمْ أَنْ يُلِمُّوا بِجَميعِ أَحْداثِ هٰذِهِ ٱلقِصَّةِ ٱلتّعِسةِ .

وَلَسْتُ أُريدُ لِهٰذِهِ ٱلقِصَّةِ أَنْ تَموتَ بِمَوْتي ، لِأَنَّها قَدِ ارْتَبَطَتْ بِما تَضَمَّنَتْهُ مِنْ هَوْلٍ وَرُعْبٍ بِقِصَّةِ حَياةِ رَجُلٍ عَظيمٍ . وَمِثْلُ هٰذا ٱلحَدَثِ يَنْبَغي أَلّا يُطْوَى في زَوايا ٱلنِّسْيانِ .

هُنا أَقِفُ وَقْفَةً لِأَقولَ شَيْئًا عَنْ نَفْسي . اسْمي هَنْري كليرْفال ، وَقَدْ وُلِدْتُ في مَدينةِ جنيف عامَ ١٧٧٥ ، وَكانَ أَبي تاجِرَ أَقْمِشةٍ ، وَكُنْتُ ٱبْنَهُ ٱلوَحيدَ . وَقَدْ سَبَّبَ لي ذٰلِكَ كَثيرًا مِنَ ٱلتَّعاسَةِ ، فَلَوْ كانَ لي أَخٌ آخَرُ لَكانَ مِنَ ٱلمُحْتَمَلِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِهْنَةَ أَبي ، وَلَتَوَلّى في نِهايةِ ٱلأَمْرِ أَعْمالَهُ . أَمّا وَقَدْ كُنْتُ ٱلِٱبْنَ ٱلوَحيدَ ، فَقَدْ كانَ مِنَ ٱلمُتَوَقَّعِ أَنْ أَقومَ بِهٰذِهِ ٱلمُهِمَّةِ .

كانَ هٰذا هُوَ ما خَطَّطَهُ أَبي لي مُنْذُ طُفولَتي ٱلأُولى ؛ وَلٰكِنِّي لَمْ أَكُنْ شَغوفًا بِٱلعَمَلِ ٱلتِّجاريِّ ، أَوْ – إِذا أَرَدْتَ ٱلحَقيقةَ – بِأَيِّ عَمَلٍ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ حاوَلْتُ ، لا لِشَيْءٍ إِلّا

لأنني أَرَدْتُ إرْضاءَ أبي . وَلٰكِنَّ ٱلْمَتْجَرَ كانَ بِٱلنِّسْبَةِ لي أَشْبَهَ بِٱلأَرْضِ ٱلْقَفْرِ ، وَلِذٰلِكَ كُنْتُ أُشْبِعُ رَغَباتي ، لا بِٱلْحُصولِ عَلى ٱلرِّبْحِ ٱلْمالِيِّ ، وَلٰكِنْ بِقِراءَةِ ٱلْكُتُبِ . وَحِيْنَما مَضَتِ ٱلأَيَّامُ وَتَقَدَّمَ بي ٱلْعُمْرُ دَبَّ ٱلشِّقاقُ بَيْني وَبَيْنَ أبي ، وَكانَتْ أُمّي قَدْ ماتَتْ وَأنا صَبِيٌّ صَغيرٌ ، وَلِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ يُصْلِحُ ما بَيْني وَبَيْنَهُ . وَهٰكَذا أَصْبَحَتِ ٱلْحَياةُ في ٱلْمَنْزِلِ تَعيسَةً ، وَكانَ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ تُصْبِحَ مُسْتَحيلَةً لَوْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ صَديقي فيكْتور فرانْكِنشْتاين .

كانَتْ أُسْرَةُ فرانْكِنشْتاين أُسْرَةَ تِجارَةٍ كَذٰلِكَ ، وَلٰكِنها كانَتْ أَكْثَرَ ثَراءً وَأَعْلى مَنْزِلَةً مِنْ أُسْرَتِنا ؛ فَقَدْ كانَ لَها نَشاطٌ في حُكومَةِ ٱلْمَدينَةِ مُنْذُ مِئَةِ عامٍ . وَإذْ كانَ أَعْضاؤُها أَغْنِياءَ مُوسِرينَ فَإنَّهُمْ لَمْ يَكونوا مُضْطَرّينَ إلى قَصْرِ وَقْتِهِمْ كُلِّهِ عَلى ٱلتِّجارَةِ ، وَإنَّما كانَتْ لَهُمُ ٱهْتِماماتٌ بِٱلْفُنونِ وَٱلْعِلْمِ ، وَعَلى ٱلأَخَصِّ بِٱلْعِلْمِ . كانوا لا تَفْتُرُ لَهُمْ هِمَّةٌ ، وَكانَتْ عُقولُهُمْ لا تَفْتَأُ تَتَساءَلُ وَتَبْحَثُ وَتَتَقَصّى . وَكَأَغْلَبِ أَفْرادِ ٱلأُسْرَةِ ، كانَ والِدُ صَديقي كَثيرَ ٱلأَسْفارِ ، وَبَعْدَ أَنْ تَزَوَّجَ مُؤَخَّرًا أَقامَ في إيطاليا عِدَّةَ سَنَواتٍ .

وَلا أَزالُ أَذْكُرُ زيارَتي لِمَنْزِلِ ٱلأُسْرَةِ في شارِعِ دي غرانـج . وَهُوَ ٱلشّارِعُ ٱلَّذي تَقْطُنُ فيهِ أَعْرَقُ ٱلأُسَرِ وَأَغْناها في جِنيف . وَكانَ لِلصُّوَرِ ٱلإيطاليَّةِ ٱلْمُعَلَّقَةِ على جُدْرانِ ٱلْمَنْزِلِ تَأْثيرٌ بالِغٌ عَلى عَقْلي ٱلصَّغيرِ ، وَقُلْتُ في نَفْسي :

« ما أَشَدَّ ٱخْتِلافَهُ عَنْ مَنْزِلِنا ٱلَّذي يَقَعُ في ٱلْجُزْءِ ٱلْجَنُوبِيِّ مِنَ ٱلْمَدينَةِ ! » وَفي هٰذا ٱلْوَقْتِ عَلِمْتُ مِنْ فرانْكِنشْتاين أَنَّهُ مَوْلودٌ في إيطاليا .

وَبَيْنَما كُنَّا نَقِفُ في ٱلْبَهْوِ نَتَبادَلُ ٱلْحَديثَ مَرَّتْ بِنا فَتاةٌ جَميلَةٌ تَصْغُرُنا بِنَحْوِ سَنَةٍ ، وَٱبْتَسَمَتْ وَهِيَ تَجْتازُ ٱلْبَهْوَ . فَقالَ فرانْكِنشْتاين : « هٰذِهِ أُخْتي . إنَّها مَوْلودَةٌ في إيطاليا أَيْضًا . إنَّها في ٱلْواقِعِ إيطاليَّةٌ . » وَعَجِبْتُ لِلأَمْرِ ، إذْ كَيْفَ تَكونُ إيطاليَّةً مَعَ أَنَّ أَبَوَيْهِ سويسريّانِ ؟

وَقالَ فرانْكِنشْتاين مُوَضِّحًا : « بِٱلطَّبْعِ هِيَ لَيْسَتْ شَقيقَتي حَقيقَةً ، وَلٰكِنَّنا نَشَأْنا مَعًا .

فَنَحْنُ كَشَقيقَيْنِ . سَأُخْبِرُكَ كَيْفَ حَدَثَ هٰذا :

« ذاتَ يَوْمٍ كانَ والِدي وَوالِدَتي يَتَمَشّيانِ على شاطِئِ إحْدى ٱلْبُحَيْراتِ ٱلإيطاليَّةِ في شَمالِ ميلانو ، حَيْثُ كانا يَعيشانِ في ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ . وَكانَ ٱلْيَوْمُ دافِئًا ، وَإذْ أَحَسّا بِٱلظَّمَإِ تَوَقَّفا عِنْدَ مَزْرَعَةٍ صَغيرَةٍ لِيَتَناوَلا بَعْضَ ٱلْمُرَطِّباتِ . كانَتِ ٱلْفاقَةُ تَبْدو عَلى ٱلْمَكانِ ، وَلٰكِنْ أَكْثَرُ ٱلأُسَراتِ فَقْرًا في هٰذِهِ ٱلْمَناطِقِ كانَ بِمَقْدورِهِ أَنْ يُقَدِّمَ قَليلًا مِنَ ٱللَّبَنِ . فَأَخَذَتْهُما زَوْجَةُ صاحِبِ ٱلْمَزْرَعَةِ إلى ٱلْمَطْبَخِ حَيْثُ وَقَعَتْ أَنْظارُهُما عَلى خَمْسَةِ رُؤوسٍ صَغيرَةٍ حَوْلَ ٱلْمائِدَةِ ، وَأَمامَ كُلِّ رَأْسٍ مِنْها كوبٌ مِنَ ٱلْحَساءِ . وَكانَتْ أَرْبَعَةٌ مِنَ ٱلرُّؤوسِ ٱلصَّغيرَةِ سَوْداءَ ٱلشَّعْرِ ، أَمّا ٱلْخامِسَةُ فَكانَتْ لِطِفْلَةٍ شَقْراءَ تَبْدو مُخْتَلِفَةً كُلَّ ٱلاخْتِلافِ عَنِ ٱلأَبَوَيْنِ . وَدَفَعَ حُبُّ ٱلاسْتِطْلاعِ وَالِدَتي أَنْ تَسْأَلَ ٱلْمَرْأَةَ عَنْ صاحِبَةِ هٰذا ٱلشَّعْرِ ٱلأَشْقَرِ ، فَرَوَتْ لَها قِصَّةً مُثيرَةً .

« لَمْ تَكُنِ ٱلطِّفْلَةُ ٱبْنَتَها لٰكِنِ ٱبْنَةَ أَحَدِ مُلّاكِ ٱلأَراضي في تِلْكَ ٱلْمِنْطَقَةِ . وَقَدْ فَقَدَ ٱلأَبُ حَياتَهُ وَهوَ يُحاوِلُ تَحْريرَ بَلَدِهِ مِنْ حُكومَةٍ ظالِمَةٍ ، وَكانَتِ ٱلأُمُّ قَدْ ماتَتْ قَبْلَ هٰذا . وَقَدْ عَهِدَ ٱلأَبُ – قَبْلَ وَفاتِهِ – بِكَفالَةِ ٱلطِّفْلَةِ إلى زَوْجَةِ صاحِبِ ٱلْمَزْرَعَةِ ٱلَّتي رَعَتْها مُنْذُ كانَتْ رَضيعَةً . أَمّا ٱلأَراضي ٱلَّتي كانَ يَمْلِكُها ٱلأَبُ فَقَدِ ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْها ٱلْحُكومَةُ بَعْدَ وَفاتِهِ . وَلَمّا لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ عُضْوٍ آخَرَ مِنْ أُسْرَتِهِ عَلى قَيْدِ ٱلْحَياةِ ، فَقَدْ أَقامَتِ ٱلطِّفْلَةُ مَعَ أُسْرَةِ صاحِبِ ٱلْمَزْرَعَةِ .

« وَلَقَدِ ٱسْتَثارَتْ هٰذِهِ ٱلْقِصَّةُ وَالِدَتي ٱلَّتي لَمْ تَكُنْ صِحَّتُها تَسْمَحُ لَها بِأَنْ تُنْجِبَ طِفْلًا آخَرَ . ثُمَّ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْها ٱبْنَةٌ ، وَلِذٰلِكَ رَغِبَتْ في تَبَنّي ٱلطِّفْلَةِ . وَلَمْ يَكُنْ صاحِبُ ٱلْمَزْرَعَةِ وَزَوْجَتُهُ يَرْغَبانِ في ٱلتَّخَلّي عَنْها ، وَلٰكِنَّهُما كانا يَعْلَمانِ أَنَّهُما لَنْ يَسْتَطيعا أَنْ يُهَيِّئا لَها ٱلْمَعيشَةَ ٱلَّتي يُمْكِنُ أَنْ يُهَيِّئَها لَها أَبَوايَ ، وَلا بُدَّ أَنَّ مَظْهَرَ أَبَوَيَّ قَدْ أَوْحى لَهُما حينَئِذٍ بِٱلْغِنى وَٱلثَّراءِ ٱلْعَريضِ .

« وَهٰكَذا اتُّخِذَتِ الإِجْراءاتُ عَنْ طَرِيقِ سُلُطاتِ القَرْيَةِ لِكَيْ تُصْبِحَ إليزابيث لافِنْزا – وَكانَ هٰذا اسْمَها – عُضْوًا مِنْ أَعْضاءِ أُسْرَةِ فرانْكِنشْتاين . »

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ القِصَّةَ ابْتَسَمَ قائِلًا : « قِصَّةٌ رائِعَةٌ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « بَلى ، إِنَّها أَشْبَهُ بِحِكاياتِ الكُتُبِ . إِنَّكَ سَعِيدٌ أَنْ تَكونَ لَكَ أُخْتٌ ، أَمَّا أَنا فَلَيْسَ هُناكَ مَنْ أَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ في المَنْزِلِ . »

فابْتَسَمَ فرانْكِنشْتاين ثانِيَةً وَقالَ : « إِذًا ، فَلا بُدَّ أَنْ تُصْبِحَ إليزابيث أُخْتًا لَكَ أَيْضًا . »

وَلَسْتُ أَدْري لِماذا قالَ هٰذِهِ العِبارَةَ فَجْأَةً ، وَلٰكِنَّ كَلامَهُ صارَ حَقيقَةً . فَقَدْ أَصْبَحَتْ فِعْلًا أُخْتًا لي ، وَظَلَّتْ أُخْتًا لي طَوالَ فَتْرَةِ طُفولَتِنا . كُنَّا – نَحْنُ الثَّلاثَةَ – مُرْتَبِطينَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ ارْتِباطًا وَثيقًا ، وَحَتّى الآنَ ما زِلْتُ أَشْعُرُ بِهٰذا الرِّباطِ الَّذي يَرْبِطُ كُلًّا مِنّا بِصاحِبِهِ ، وَسَنَظَلُّ دائِمًا هٰكَذا .

الفَصْلُ الثّاني

سُرْعانَ ما عَرَفْتُ الكَثيرَ عَنْ أُسْرَةِ فرانْكِنشْتاين ، فَبَعْدَ أَنِ انْضَمَّتْ إليزابيث إلى الأُسْرَةِ لَخَّصُوا عَنْ حَياةِ التَّرْحالِ ، وَعادوا لِيَسْتَقِرُّوا في جِنيف ، أَوْ – بِعِبارَةٍ أَصَحَّ – قُرْبَ جِنيف . ذٰلِكَ أَنَّهُمْ كانوا يَمْلِكونَ مَنْزِلًا في الرِّيف فَضْلًا عَنْ مَنْزِلِهِمُ الفاخِرِ في المَدينَةِ ، حَيْثُ كانَ فيكْتور وإليزابيث يُقيمانِ في فَتْرَةِ الذَّهابِ إلى المَدْرَسَةِ . وَكانَ المَنْزِلُ الرِّيفِيُّ يَقَعُ عَلى بُعْدِ سِتَّةِ كيلو مِتْراتٍ مِنَ المَدينَةِ في الجُزْءِ الجَنوبِيِّ مِنَ البُحَيْرَة ، وَيُطِلُّ عَلى جِبالِ جورا . وَكانَ فرانْكِنشْتاين يُفَضِّلُ الإِقامَةَ في هٰذِهِ الضّاحِيَةِ ، وَلَمْ تَكُنِ الأُسْرَةُ تَرى بَأْسًا في هٰذِهِ الحَياةِ الخَلَوِيَّةِ الهادِئَةِ . وَنَظَرًا إلى أَنَّها كانَتْ أُسْرَةً مُتَرابِطَةً سَعيدَةً ، لَمْ تَكُنْ تُحِسُّ أَنَّها في حاجَةٍ إلى صُحْبَةٍ أَوْ صَداقاتٍ .

وَكانَ فيكْتور يُشْبِهُ والِدَيْهِ في حُبِّ العُزْلَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ في المَدْرَسَةِ غَيْرُ قِلَّةٍ مِنَ الأَصْدِقاءِ ، وَكُنْتُ بَيْنَهُمُ الصَّديقَ المُقَرَّبَ ، وَكُنْتُ فَخورًا بِهٰذِهِ الصُّحْبَةِ نَظَرًا إلى أَنَّهُ كانَ – حَتّى مُنْذُ بَدَأْتُ أَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ وَنَحْنُ صِبْيَةٌ صِغارٌ – يَتَمَتَّعُ بِقُدُراتٍ عَقْلِيَّةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ . وَعَلى أَيَّةِ حالٍ ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ دائِمًا طَيِّبَ المُعاشَرَةِ ، فَلَقَدْ كانَتْ مَشاعِرُهُ المُرْهَفَةُ تَجْعَلُهُ – في بَعْضِ الأَحْيانِ – ضَيِّقَ الصَّدْرِ سَريعَ الغَضَبِ ، كَما أَنَّهُ كانَ مِنَ الصَّعْبِ احْتِمالُ صَمْتِهِ الطَّويلِ الغَريبِ . وَمَعَ ذٰلِكَ كُنْتُ أُقَدِّرُهُ أَكْثَرَ مِنْ تَقْديري لِأَيِّ شَخْصٍ آخَرَ فيما عَدا – بِالطَّبْعِ – إليزابيث الَّتي كانَ بَهاؤُها وَرِقَّتُها مُبْعَثَ بَهْجَةٍ لِكُلِّ مَنْ عَرَفَها . وَكانَتِ المَشاعِرُ بَيْني وَبَيْنَ كُلٍّ مِنْ فيكتور وَإليزابيث مُفْعَمَةً بِالمَوَدَّةِ الخالِصَةِ ، حَتّى لَقَدْ كانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ يَوْمَئِذٍ أَنَّ هٰذِهِ المَشاعِرَ سَتَظَلُّ مُلْتَهِبَةً لا يُطْفِئُ جَذْوَتَها إِلّا المَوْتُ .

كانَتْ سَنَواتٍ سَعيدَةً ، أَمّا فيما يَتَعَلَّقُ بِآلِ فرانْكِنشْتاين فَقَدِ اكْتَمَلَتْ سَعادَتُهُمْ بِميلادِ ابْنٍ جَديدٍ سَمَّوْهُ وِلْيام ، وَقَدْ عَهَدوا بِهِ إلى جوستين – وَهِيَ فَتاةٌ ريفِيَّةٌ مَرِحَةٌ تُماثِلُنا في العُمْرِ – لِكَيْ تَتَوَلّى رِعايَتَهُ . تِلْكَ كانَتْ حَلْقَةَ الشَّخْصِيّاتِ الَّتي قَضَيْتُ بَيْنَها أَيّامَ الصِّبا .

وَمُنْذُ ٱلْبِدايةِ كانَتِ اهْتِماماتُ فرانْكِنِشْتاين تَتَرَكَّزُ حَوْلَ ٱلعِلْمِ ، فَقَدْ دَرَسَ ٱلطَّبِيعَةَ في حَماسةٍ وَشَغَفٍ ؛ إذْ كانَ يَرَى ٱلعالَمَ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّما هوَ مَجْموعةٌ كَبيرةٌ مِنَ ٱلأَسْرارِ تَنْتَظِرُ مَنْ يُزيحُ ٱلنِّقابَ عَنْها . وَٱلحَقُّ أَنَّ ٱلبيئةَ ٱلتي كُنّا نَعيشُ فيها كانَتْ تَكْتَنِفُها أَسْرارٌ كَثيرةٌ لِمَنْ يُريدُ أَنْ يَسْبُرَ غَوْرَها وَيَطَّلِعَ عَلَيْها . كانَتْ هٰذِهِ ٱلأَسْرارُ في مياهِ ٱلبُحَيْرةِ ٱلزَّرْقاءِ ٱلتي يَبْلُغُ عُمْقُها ثَلاثَمِئةِ مِتْرٍ ، وفي أَنْهارِ ٱلجَليدِ ٱلكَبيرةِ ٱلتي تَنْحَدِرُ مِنَ ٱلجِبالِ ، وفي ٱلجِبالِ ذاتِها ، وفي تَغيرِ ٱلمُناخِ وَٱلفُصولِ . كانَ هُناكَ ٱلكَثيرُ مِمّا يُثيرُ تَطَلُّعاتِ ٱلباحِثِ ٱلعِلْميِّ ، وَلٰكِنَّ ٱلغَريبَ في ٱلأَمْرِ أَنَّ طَبيعةَ فرانْكِنِشْتاين كانَتْ تَتَّجِهُ إلى لَوْنٍ آخَرَ مِنَ ٱلعِلْمِ يَخْتَلِفُ عَنْ ذٰلِكَ ٱلَّذي كانَ يُدَرَّسُ في جامِعاتِنا . وَإنّي لَأَذْكُرُ جَيِّدًا ، ذاتَ صَيْفٍ ، حينَما كُنّا نَقْضي بِضْعةَ أَيّامٍ في ثُونُون ، وَهيَ مَدينةٌ في ساڤوي تَقَعُ بَعيدًا في ٱلنّاحيةِ ٱلجَنوبيّةِ لِلْبُحَيْرةِ . كانَ ٱلطَّقْسُ قَدِ انْقَلَبَ نَديًّا يُنْذِرُ بِٱلمَطَرِ . وَلَمْ نَسْتَطِعِ ٱلخُروجَ فَاعْتَكَفْنا ، وَوَجَدَ فرانْكِنِشْتاين تَحْتَ سَقْفِ إحْدى ٱلغُرَفِ ٱلصَّغيرةِ كِتابًا قَديمًا كَساهُ ٱلغُبارُ ، وَقَلَّبَ صَفَحاتِهِ فَوَجَدَ فيهِ ما يُبَشِّرُ بِكَشْفِ أَسْرارِ ٱلطَّبيعةِ . وَلَقَدْ كانَتْ مُحْتَوَياتُ ٱلكِتابِ – بِٱلنِّسْبةِ لي – أَقْرَبَ إلى طَلاسِمِ ٱلسِّحْرِ مِنْها إلى حَقائِقِ ٱلعِلْمِ . وَلٰكِنَّهُ أَثارَ اهْتِمامَ فرانْكِنِشْتاين حتّى لَقَدْ أَكَبَّ عَلى قِراءَتِهِ بِنَهَمٍ ، وَأَخَذَ يَدْرُسُهُ يَوْميًّا طَوالَ ٱلعامَيْنِ ٱلتّالِيَيْنِ . بَلْ إنَّ هٰذا ٱلكِتابَ كانَ سَبَبًا في كُلِّ ما قامَ بِهِ مِنْ تَجارِبَ .

وَظَلَّ اهْتِمامُ فرانْكِنِشْتاين بِٱلسِّحْرِ وَأَسْرارِ ٱلمَعْرِفةِ يُصاحِبُهُ طَوالَ أَيّامِ دِراسَتِهِ كُلِّها ، بَلْ إنَّهُ لَمْ يَفْتُرْ بَعْدَ ذٰلِكَ قَطُّ . وَلَمْ يَكُنْ في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ مُلِمًّا بِٱلمَنْهَجِ ٱلعِلْميِّ ٱلمُنَظَّمِ ، وَلٰكِنَّهُ – حينَما أَلَمَّ بِهٰذا ٱلمَنْهَجِ في حياتِهِ ٱلمُسْتَقْبَلِةِ – وَجَدَهُ – فيما أَعْتَقِدُ – بَطيئًا كُلَّ ٱلبُطْءِ بِٱلنِّسْبَةِ لَهُ . فَقَدْ كانَ دائِمًا يُريدُ ٱلوُصُولَ إلى نَتائِجَ سَريعةٍ . وَلَمْ نَكُنْ – أنا وإليزابيث – نَهْتَمُّ كَثيرًا بِٱلأَشْياءِ ٱلتي يَهْتَمُّ بِها فرانْكِنِشْتاين .

كُنّا نَميلُ إلى كِتابةِ بَعْضِ مَقْطوعاتٍ تَصْلُحُ لِلتَّمْثيلِ ، وَكُنّا جَميعًا – وَمَعَنا وِلْيام

وَجوسْتين – نَقومُ بِتَمْثيلِها . وَلٰكِنَّنا كُنّا – كَذٰلِكَ – نُساعِدُ فرانْكِنِشْتاين في إجْراءِ تَجارِبِهِ . وَكانَ فرانْكِنِشْتاين في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ يُبْدي اهْتِمامًا كَبيرًا بِطَبيعةِ ٱلحَياةِ ذاتِها . كانَ يُحاوِلُ أَنْ يَكْتَشِفَ ما عَجَزَ ٱلكَثيرونَ مِنَ ٱلدّارِسينَ ٱلقُدامى عَنِ اكْتِشافِهِ – أَعْني اكْتِشافَ إكْسيرِ ٱلحَياةِ – وَهُوَ ٱلسّائِلُ ٱلسِّحْريُّ ٱلَّذي كانوا يَزْعُمونَ أَنَّهُ يَجْعَلُ ٱلإنْسانَ يَعيشُ إلى ٱلأَبَدِ .

وَلٰكِنْ هَلْ كانَ فرانْكِنِشْتاين يُرِيدُ أَنْ يَعيشَ إلى ٱلأَبَدِ ؟

لَقَدْ سَأَلْتُهُ إليزابيث ذاتَ يَوْمٍ : « هَلْ هٰذا هوَ ما تُريدُهُ حَقًّا ؟ »

وَقَدْ وَجَّهَتْ إلَيْهِ ٱلسُّؤالَ حينَما كُنّا – نَحْنُ ٱلأَرْبَعةَ – نَقِفُ حَوْلَهُ نُراقِبُهُ وَهُوَ يُعِدُّ إحْدى تَجارِبِهِ . وَحينَما سَمِعَ ٱلسُّؤالَ بَدَتْ عَلَيْهِ ٱلدَّهْشةُ ، وَلَسْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّهُ فَكَّرَ في يَوْمٍ ما تَفْكيرًا جادًّا حَوْلَ هٰذا ٱلمَوْضوعِ . وَعَلى أَيَّةِ حالٍ ، فَقَدْ قالَ بَعْدَ أَنْ تَرَوّى لَحْظةً :

« لا .. عَلى ٱلأَقَلِّ ، أنا لا أُحِبُّ أَنْ أَعيشَ إلى ٱلأَبَدِ وَحْدي .. أنا لا أُحِبُّ أَنْ أَكونَ وَحيدًا ، وَإنّما لا بُدَّ أَنْ تَعيشوا أَنْتُمْ جَميعًا أَيْضًا إلى ٱلأَبَدِ بِجانِبي . » ثُمَّ أَدارَ بَصَرَهُ حَوْلَنا مُبْتَسِمًا حَتّى اسْتَقَرَّتْ نَظْرَتُهُ عَلى وَجْهِ جوسْتين ٱلتي قالَتْ بِبَساطةٍ : « وَأنا أُحِبُّ ذٰلِكَ . »

وَكُنْتُ كَثيرًا ما أُلاحِظُ في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ مَشاعِرَ دافِئةً وَتَفاهُمًا بَيْنَ جوسْتين وَفرانْكِنِشْتاين . وَلِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرَبًا حِينَئِذٍ أَنَّها كانَتْ في مُقَدِّمةِ ٱلَّذينَ يَضَعُ فيهِمْ ثِقَتَهُ ، وَيَأْتَمِنُهُمْ عَلى مُعاوَنَتِهِ في مَعْمَلِهِ .

وَذاتَ يَوْمٍ – وَلا بُدَّ أَنَّنا كُنّا في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ في حَوالَى ٱلرّابِعةَ عَشْرةَ – حَدَثَ أَمْرٌ كانَ لَهُ أَثَرُهُ في تَحَوُّلِ ٱلدِّراساتِ ٱلتي كانَ يَقومُ بِها لِتُصْبِحَ بَعيدةً عَنِ ٱلسِّحْرِ ، وَلِتَتَّجِهَ نَحْوَ ٱلعِلْمِ ٱلحَديثِ .

كانَ يَوْمًا مِنْ أَيّامِ ٱلصَّيْفِ ، وَقَدْ حَمَلَتْ ريحُ ٱلجَنوبِ ٱلسّاخِنةُ ٱلجافّةُ طَقْسًا غَيْرَ

مُسْتَقِرٌّ . وَكُنْتُ أنا وَفرانْكِنشْتاين خارِجَ ٱلمَنْزِلِ مُنْذُ ٱلصَّباحِ ٱلباكِرِ ، نَتَمَشّى فَوْقَ ٱلسّالِيفِ – وَهُوَ جَبَلٌ خَفيضٌ مُمْتَدٌّ يُمْكِنُ رُؤْيَةُ صُخورِهِ ٱلبَيْضاءِ مِنْ أَيِّ مِنْطَقَةٍ في جنيف – وَكُنّا نَجْمَعُ ٱلنَّباتاتِ ٱلبَرّيَّةَ ٱلَّتي يَسْتَخْدِمُها فرانْكِنشْتاين في تَجارِبِهِ . وَشَعَرْنا بِٱلتَّعَبِ ، وَلَفَحَتْنا ٱلحَرارَةُ وَلٰكِنْ مِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ كُنّا قَدْ هَبَطْنا مِنَ ٱلجَبَلِ ، وَأَخَذْنا طَريقَنا عَبْرَ حَقْلٍ يَمْتَدُّ عَلى أَحَدِ جانِبَيْهِ صَفٌّ مِنْ أَشْجارِ ٱلفَواكِهِ . وَفَجْأَةً هَبَّتْ عاصِفَةٌ رَعْدِيَّةٌ ، وَمَعَ أَنَّنا كُنّا تَحْتَ وابِلٍ مِنَ ٱلأَمْطارِ ، قَرَّرْنا أَلّا نَأْوِيَ إلى ٱلأَشْجارِ ؛ إِذْ كانَ وَميضُ ٱلبَرْقِ يَبْدو قَريبًا جِدًّا مِنّا . كُنّا نَعْرِفُ مَدى ما فيهِ مِنْ خطورة ؛ فَقَدْ نُصابُ بِصاعِقَةٍ .

وَفَجْأَةً سَمِعْنا ضَجيجًا أَشْبَهَ بِصَوْتِ طَلَقاتِ مِدْفَعٍ . وَصَحِبَهُ في نَفْسِ ٱلوَقْتِ وَميضٌ مِنَ ٱلضَّوْءِ ٱلأَزْرَقِ ، ثُمَّ أَعْقَبَ ذٰلِكَ إِظْلامٌ .

حَدَثَ كُلُّ هٰذا وَنَحْنُ راقِدانِ فَوْقَ ٱلأَرْضِ وَقَدْ أَغْشانا ٱلوَميضُ فَلا نَسْتَطيعُ ٱلإِبْصارَ ،

وَأَصَمَّنا ٱلضَّجيجُ فَلا نَسْتَطيعُ ٱلسَّمْعَ . وَخُيِّلَ إِلَيْنا أَنَّ ريحًا عاتِيَةً قَدْ عَصَفَتْ بِنا . وَمَضَتْ بِضْعُ دَقائِقَ ، وَمَعَ أَنَّنا كُنّا لا نَسْتَطيعُ ٱلتَّفْكيرَ فَقَدْ عادَتْ إِلَيْنا – عَلى ٱلأَقَلِّ – ٱلقُدْرَةُ عَلى ٱلإِبْصارِ وَٱلسَّمْعِ . وَنَهَضْنا مِنْ فَوْقِ ٱلعُشْبِ ٱلمُبْتَلِّ فَشاهَدْنا عَلى مَقْرَبَةٍ مِنّا شَجَرَةً قَدِ ٱنْقَلَبَتْ إلى كُتْلَةٍ مِنْ فَحْمٍ يَنْبَعِثُ مِنْها دُخانٌ ؛ لَقَدْ صَعَقَها ٱلبَرْقُ .

كُلُّ هٰذا كانَ يَكْفي لِيَتْرُكَ في ذِهْنِ أَيِّ إِنْسانٍ صُورَةً لا تُنْسى . وَبِٱلنِّسْبَةِ لي فَإِنَّني أَذْكُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِوُضوحٍ شَديدٍ ، أَمّا بِٱلنِّسْبَةِ لِفرانْكِنشْتاين فَقَدْ كانَ ٱلأَمْرُ أَخْطَرَ وَأَعْمَقَ . كانَ يَبْدو وَكَأَنَّما كانَ نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ في حَياتِهِ . كانَتْ قُوَّةُ ٱلبَرْقِ شَيْئًا لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَنْساهُ أَبَدًا ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ فِكْرَةً مُعَيَّنَةً بَدَأَتْ – مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ – تَتَبَلْوَرُ في ذِهْنِهِ .

وَمُنْذُ ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ – أَيْضًا – بَدا أَنَّهُ فَقَدَ ٱهْتِمامَهُ بِٱلأَفْكارِ ٱلسِّحْرِيَّةِ ٱلَّتي كانَتْ تَعْني ٱلكَثيرَ لَدَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، حَتّى وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَكَبَّ عَلى ٱلفَوْرِ عَلى دِراسَةِ ٱلعِلْمِ ٱلحَديثِ . وَٱلواقِعُ أَنَّهُ وَهَبَ نَفْسَهُ تَمامًا لِعِلْمِ ٱلحِسابِ لِمُدَّةِ عامَيْنِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ – فيما أَرى ٱلْيَوْمَ – بِسَبَبِ أَنَّ ٱلعِلْمَ ٱلعادِيَّ لَمْ يَكُنْ مَثارَ ٱهْتِمامٍ لَدَيْهِ ، بَلْ بِسَبَبِ أَنَّ ٱهْتِمامَهُ بِهِ كانَ يَفوقُ ٱلتَّصَوُّرَ . كانَ فرانْكِنشْتاين يَخافُ مِنَ ٱلقُوَّةِ ٱلَّتي يَضَعُها ٱلعِلْمُ في أَيْدي أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ يَدْرُسونَهُ . بَلْ لَقَدْ كانَ هوَ نَفْسُهُ يَخافُ مِنْ هٰذِهِ ٱلقُوَّةِ حِيْنَ يَسْتَخْدِمُها وَيُطَبِّقُها .

الفصل الثالث

حينما بلغ فرانكنشتاين السابعة عشرة من عمره قرر والده أن يلحقه بجامعة إنغولشتاد بألمانيا . وكان من الممكن أن يبقى ولده معه للدراسة في جنيف ، ولكن مما شجعه على اتخاذ هذا القرار أنه كان له صديق يدعى دكتور كريمب يقوم بالتدريس في إنغولشتاد ، وقد أشاد الكثيرون به وبكفايته في التدريس . وإلى جانب هذا كان فرانكنشتاين الأب يؤمن أن من الخير للشاب أن يدرس بعيدا عن موطنه ، وأن يألف الحياة في بلاد أجنبية ويتعود أساليب العيش فيها .

وعلى أية حال ، فقد وقعت بعض الأحداث قبل أن يسافر فرانكنشتاين إلى إنغولشتاد ، وقد سببت هذه الأحداث له ولنا جميعا أسفا عميقا ، وأسى بالغا . كانت البداية مرض إليزابيث ، ولما كانت أمه هي التي ترعاها في مرضها فقد انتقلت إليها العدوى ، وتحسنت إليزابيث ، أما والدة فيكتور – التي كانت تشكو من ضعف – فقد ازدادت حالها سوءا ، وبدا واضحا أن الأمل في شفائها مفقود .

وفي الوقت الذي كانت تملك القدرة فيه على الحديث استدعت فيكتور وإليزابيث إلى جوار فراشها ، ووضعت يد كل منهما في يد الآخر ، وقالت:

« فيكتور ياعزيزي ، كنت أتمنى أن أعيش حتى أراك أنت وإليزابيث زوجين ، أما الآن فإن أعز أمنياتي أن يعيش أبوك حتى يراكما زوجين . »

ثم قالت وقد طلبت من إليزابيث أن تدنو منها : « إليزابيث ، عليك الآن أن تكوني أما للعزيز وليام . » ثم أسلمت الروح بعد ذلك .

وبعد بضعة أسابيع ذهب فرانكنشتاين إلى إنغولشتاد وترك وراءه أسرة تعيسة . ففيما يتعلق بإليزابيث ، كانت تقع عليها أعباء كثيرة . فقد صار من مسئولياتها تولي شئون

الأسرة . وكانت خير وسيلة للهروب مما تعاني من تعاسة أن تشغل نفسها بهذه الشئون ، ثم إن رعاية وليام كانت تقع عليها وعلى جوستين معا . أما فرانكنشتاين الأب فقد كان الأمر شاقا عليه ، إذ كان عليه أن يتحمل أثقل الأعباء .

وأنا أيضا شعرت بالأسى .. الأسى من أجل وفاة سيدة كانت كأم لي .. الأسى من أجل رحيل أقرب أصدقائي إلى قلبي .. الأسى بسبب أنني لم أستطع أن أواصل دراستي ؛ إذ إن والدي رفض الاستجابة لي حينما طلبت منه أن التحق بالجامعة . فقد كان الشراء والبيع بالنسبة له أهم شيء في الحياة ، ولم يكن يرى في نمط حياة الطلاب إلا الكسل والإسراف في تعاطي المشروبات وفي الإنفاق . هكذا كان أسلوب تفكيره ، وقد حاولت أن أغير هذا الأسلوب فيه ولكن دون جدوى . ولم أجد مفرا من الذهاب إلى متجر أبي .

وعلى أية حال ، لم أفقد الأمل في مواصلة الدراسة ، وقد حرصت على إبقاء هذا الأمل حيا عن طريق قراءة الرسائل التي كان فرانكنشتاين يبعث بها إلي . وكان فحوى هذه الرسائل أن الالتحاق بالجامعة لا يعني نهاية مشاق الحياة ، ولكنه يعني بداية مشاق جديدة .

ولم أر فرانكنشتاين بعد ذلك لمدة عامين كاملين ، بل إن أسرته لم تره أيضا طوال هذه المدة . كنا جميعا نتلقى رسائل منه في أول الأمر ، ولكن رسائله بدأت تقل وتقصر عندما اقترب العام الأول من نهايته . ولم يكن يخبرنا فيها إلا بالقليل ، فهل كان السبب في ذلك أنه لم تكن لديه أخبار تروى ؟ من المؤكد أنه كان يبدو مكرسا وقته كله لعمله ، ولكن ماذا كان هذا العمل ؟ يبدو أنه لم يكن جزءا من دراسته الجامعية العادية . وبدأت أفكر أنه لا يريد أن يقول الكثير عنه .

ولكن لقد عرفنا – على الأقل – شيئا عن أشهره القليلة الأولى في الجامعة . وكان الغريب في الأمر – كما كان يبدو – أنه ذهب إلى إنغولشتاد دون أن تكون لديه أية فكرة

مُحَدَّدةٍ عَنْ مَوْضوعِ دِراسَتِهِ . كانَ الْتِحاقُهُ بِالْفُصولِ الَّتي يَقومُ بِالتَّدْريسِ فيها الأُسْتاذانِ الْمُخْتَصّانِ بِالْعُلومِ نَتيجةً لِلْمُصادَفَةِ أَكْثَرَ مِمَّا كانَ نَتيجةً لِصَداقَةٍ والِدِهِ مَعَ دُكتور كريمب . وَأَظُنُّ أَنَّهُ ظَلَّ عَلى ما يَعْتَقِدُهُ مِنْ أَنَّ الْعِلْمَ لُعْبَةٌ خَطِرَةٌ ، وَأَنَّهُ لَيْسَتْ لَدَيْهِ الْجُرْأَةُ الْكافِيَةُ لِكَيْ يُمارِسَ هٰذِهِ اللُّعْبَةَ .

كانَ هانْز كريمب رَجُلًا قَصيرًا بَدينًا ذا شَعْرٍ أَشْعَثَ وَلِحْيَةٍ شَعْثاءَ . كانَ قَبيحَ الْوَجْهِ ، جافِيَ الطِّباعِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ عالِمًا ضَليعًا وَمُعَلِّمًا مُتَمَيِّزًا في عَقْلِيَّتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ رَيْبٌ في أَنَّ فرانْكِنشْتاين يَنْبَغي أَنْ يَتَخَصَّصَ في دِراسَةِ الْعُلومِ . وَقَدْ أَخْبَرَهُ بِذٰلِكَ ، وَسَأَلَهُ هَلْ دَرَسَ هٰذِهِ الْمادَّةَ مِنْ قَبْلُ ؟ وَعِنْدَما سَمِعَ عَنْ دِراساتِ صَديقَيَ الْمُبَكِّرَةِ في مَيْدانِ السِّحْرِ صاحَ في اشْمِئْزازٍ :

« هَلْ قَضَيْتَ حَقًّا هٰذِهِ السَّنَواتِ الطَّويلَةَ في دِراسَةِ مِثْلِ هٰذا الْهُراءِ ؟ إِنَّ كُلَّ دَقيقَةٍ قَضَيْتَها مَعَ هٰذِهِ الْكُتُبِ قَدْ ضاعَتْ هَباءً . أَيْنَ كُنْتَ تُقيمُ ؟ أَلَمْ يَكُنْ في جِنيفَ شَخْصٌ رَشيدٌ يُنَبِّهُكَ إِلى تَفاهَةِ هٰذِهِ الْخُزَعْبَلاتِ ؟ أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْهَمَ كَيْفَ سَمَحَ لَكَ والِدُكَ – الرَّجُلُ الطَّيِّبُ – بِهٰذا ؟ ياعَزيزيَ الصَّغيرَ ، يَجِبُ أَنْ تَسْتَأْنِفَ دِراسَتَكَ مِنَ الْبِدايَةِ . »

ثُمَّ دَوَّنَ لَهُ قائِمَةً بِأَسْماءِ بَعْضِ الْكُتُبِ وَالْمَراجِعِ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَشْتَريَها ، وَقالَ إِنَّهُ سَوْفَ يَبْدَأُ التَّدْريسَ لِفُصولِهِ ذٰلِكَ الأُسْبوعَ بِمُعَدَّلِ ثَلاثِ مُحاضَراتٍ صَباحِيَّةٍ أُسْبوعِيًّا ، عَلى أَنْ يَتَوَلّى د . وُلْدمان هٰذِهِ الْفُصولَ في الْمُحاضَراتِ الثَّلاثِ الأُخْرى . ثُمَّ قالَ : « عَلَيْنا أَنْ نُخْرِجَكَ مِنْ عالَمِ الْجِنِّ الَّذي عِشْتَ فيهِ طَويلًا . »

أَمّا بيتَر وُلْدمان الْمُدَرِّسُ الآخَرُ فَقَدْ كانَ يَخْتَلِفُ عَنْ زَميلِهِ كُلَّ الاخْتِلافِ . كانَ أَصْغَرَ سِنًّا ، ضَئيلَ الْجِسْمِ ، جَميلَ الزِّيِّ ، حَسَنَ الصَّوْتِ . وَإِذا تَحَدَّثَ عَنْ مادَّتِهِ اتَّسَمَ حَديثُهُ بِالْجِدِّيَّةِ ، وَلَقَدِ اسْتَطاعَ في أَوَّلِ مُحاضَرَةٍ لَهُ أَنْ يَهُزَّ مَشاعِرَ صَديقي بِعُمْقٍ حَتّى لَقَدْ دَوَّنَ كَلِماتِهِ في إِحْدى رَسائِلِهِ الأُولى الَّتي بَعَثَ بِها مِنْ إِنْغولْشتاد .

قالَ وُلْدمان : « كانَ أَساتِذَةُ هٰذا الْعِلْمِ في الأَزْمانِ الْقَديمَةِ يَعِدونَ بِالْمُسْتَحيلاتِ ، وَفي نِهايَةِ الْمَطافِ لا يَسْتَطيعونَ أَنْ يُنْجِزوا شَيْئًا مِمّا وَعَدوا . أَمَّا الْمُعَلِّمُ الْحَديثُ فَإِنَّهُ لا يَعِدُ إِلّا بِالْقَليلِ ، وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَعْدِنًا مُعَيَّنًا لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلى مَعْدِنٍ آخَرَ ، وَأَنَّ مِنْ غَيْرِ الْمُجْدي أَنْ يَبْحَثَ عَنْ إِكْسيرِ الْحَياةِ ؛ السّائِلِ السِّحْريِّ الَّذي يَمْنَحُ حَياةً أَبَدِيَّةً . وَمَعَ ذٰلِكَ ، فَإِنَّ لَدَيْهِ أَشْياءَ رائِعَةً يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَها : فَقَوانينُ الطَّبيعَةِ يَتَكَشَّفُ عَنْها الْغِطاءُ . طَبَقاتُ الأَثيرِ الْمُرْتَفِعَةُ ، أَعْماقُ الْبِحارِ وَأَعْماقُ الأَرْضِ ، جِسْمُ الإِنْسانِ نَفْسُهُ .. كُلُّ هٰذِهِ تَتَخَلّى عَنْ أَسْرارِها الدَّفينَةِ واحِدَةً بَعْدَ الأُخْرى . »

وَاسْتَمَرَّ الرَّجُلُ يُقَدِّمُ لِتَلاميذِهِ مِثْلَ هٰذِهِ الصُّورَةِ عَنْ خُطواتِ الْعِلْمِ الْمُتَطَوِّرَةِ ، وَمَكانَةِ الْعالِمِ في الْحَياةِ الْمُعاصِرَةِ ، حَتّى إِنَّ فرانْكِنشْتاين قَرَّرَ – بِناءً عَلى ما سَمِعَ – أَنْ يَكونَ هٰذا الْمَجالُ هوَ مَوْضوعَ دِراسَتِهِ .

كانَ انْبِهارُ فرانْكِنشْتاين بالِغًا ، حَتّى إِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يُدْرِكُهُ النُّعاسُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَفي صَباحِ الْيَوْمِ التّالي ذَهَبَ لِمُقابَلَةِ الدكتور وُلْدمان فَلَقِيَ لَدَيْهِ كُلَّ وُدٍّ وَعَوْنٍ . وَحينَما رَوى لَهُ فرانْكِنشْتاين قِصَّةَ دِراساتِهِ الْعِلْميَّةِ الْمُبَكِّرَةِ أَصْغى إِلَيْهِ في جِدِّيَّةٍ ، وَلَمْ يَسْخَرْ مِنْهُ كَما فَعَلَ دُكتور كريمب . وَقالَ الدكتور وُلْدمان مُعَقِّبًا :

« إِنَّنا مَدينونَ لِهٰؤُلاءِ الْمُؤَلِّفينَ بِالْكَثيرِ ، فَكُلُّ ما لَدَيْنا مِنْ عِلْمٍ إِنَّما يَنْبَني عَلى مُكْتَشَفاتِ الْعُصورِ السّابِقَةِ . وَيَبْدو أَنَّكَ بَدَأْتَ دِراساتِكَ في سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ ، وَأَنْتَ نَفْسُكَ قَدْ تُحَقِّقُ اكْتِشافاتٍ ، وَلَعَلَّكَ تَأْتي بِما يُذْهِلُنا يَوْمًا ما . »

الفصل الرابع

وهكذا عاد فرانكنشتاين إلى العلم ، وإن كان مختلفًا عن العلم الذي كان متجهًا إليه حينما كان صبيًا . وقد حملت رسائله إلينا بعد ذلك قصص نجاحه واحدة بعد الأخرى .

وقد تعلم من كريمب كثيرًا عن إجراء التجارب ، في حين استمر يحظى من ولدمان بكثير من العطف والتشجيع ، وتعلم من كليهما – سريعًا – القليل الذي كان من الممكن تعلمه عن المادة في تلك الأيام .

كان فرانكنشتاين قد استأجر شقة في سطح منزل قديم عالٍ قريب من الجامعة ، واختار حجرة منها وأعدها لتكون معمله الخاص . وسرعان ما أصبح يقضي في هذا المعمل معظم وقته ، وكانت النجوم في بعض الأحيان تختفي في ضوء الصباح قبل أن يتوقف عن العمل ويذهب إلى فراشه .

وكما قلت من قبل ، كان فرانكنشتاين يكتب كثيرًا إلينا في أثناء أول سنة قضاها في إنغولشتاد ، ولكن رسائله توقفت في شهر سبتمبر من السنة التالية ، كما أنه لم يزر موطنه في جنيف لقضاء العطلة . وكنت ألاحظ مدى قلق والده وإليزابيث عليه ، وكان – في آخر رسالة له – قد كتب أنه تعلم كل ما كان يمكن أن يتعلمه في إنغولشتاد . فإذا صح هذا فما الذي يضطره إلى البقاء فيها ؟ بل إن والده بعث رسالة إلى كريمب يستفسر فيها عنه ، فلم يضف رده عليها إلى المعلومات التي تعرفها الأسرة عنه إلا قليلا ؛ إذ قال فيها إن فرانكنشتاين – حقيقة – ترك الجامعة على غير رغبة كريمب ، وإنه الآن يقوم بدراسات خاصة ، ولم يذكر شيئًا عن طبيعة هذه الدراسات .

ومضت ثمانية شهور دون أي أخبار جديدة ، وحينئذ قرر فرانكنشتاين الأب أن يفعل شيئًا .

« لا بد أن يذهب شخص ما إلى إنغولشتاد .. شخص غيري لأن عهدي بالأسفار قد ولى ، ثم إن إليزابيث لا تستطيع أن تتخلى عن مسؤولياتها المنزلية . » وقال الرجل وهو ينظر إلي نظرة ذات معنى واضح : « علينا أن نتخذ الترتيبات للقيام بأمر ما . »

ثم اتجه مباشرة إلى منزلي وطلب مقابلة أبي ، وكان أبي – كما قلت – رجلًا صلبًا ، ولكن فرانكنشتاين الأب كان يتمتع بقدرة فائقة على الإقناع ، كما أن مركزه الاجتماعي وثراءه كان لهما أثرهما في إقناع أبي بالموافقة على الترتيبات التي اقترحها . وتتلخص الترتيبات في أن يقوم بالمعاونة في نفقات دراستي فأذهب إلى إنغولشتاد على أن أستفسر عن فيكتور وأعرف ما يقوم به من عمل . فإذا عرفت ذلك ، فعلي أن أعنى به إن اقتضت الضرورة ، وأن أحثه على الكتابة إلى والده .

وهكذا كان توقف صديقي عن كتابة رسائل إلى ذويه سببًا في إتاحة الفرصة لي لكي أهرب من العمل بمتجر والدي ، وأحقق ما كنت أصبو إليه أكثر مما أصبو إلى أي شيء آخر .. أن ألتحق بالجامعة .

وفي اليوم التالي مباشرة أخذت العربة العامة من جنيف إلى لوزان ، ومن هناك إلى برن . وقد استغرقت الرحلة أربعة أيام عبر سويسرا إلى بحيرة كونستانس ، ثم إلى جنوب ألمانيا عن طريق أولم إلى إنغولشتاد .

كان الوقت عصرًا حينما عبرت العربة نهر الدانوب ، واجتازت جدران المدينة القديمة البهيجة التي كان يغمرها الضوء الذهبي في أواخر الصيف . هذه – على الأقل – هي الصورة التي بدت كما رأيتها لأول مرة . ولكن ، حينما أفكر فيما حدث بعد ذلك ، حينما أفكر في ذلك الضوء الذي رأيته لأول مرة في هذه المدينة الصغيرة – فإنني لا أستطيع أن أذكر إنغولشتاد دون أن أشعر بالألم والرعب .

تركت حقائبي في الفندق الصغير الذي توقفت عنده العربة ، واستفسرت عن طريق

ٱلوُصولِ إلى ٱلشّارِعِ ٱلّذي يُقيمُ فيهِ صَديقي .

كانَ ٱلمَنْزِلُ رَقْمُ سِتّةَ عَشَرَ أَحَدَ تِلْكَ ٱلمَنازِلِ ٱلقَديمةِ ٱلجَميلةِ ٱلّتي شُيِّدَتْ مُنْذُ عَهْدٍ بَعيدٍ . وَلا يَزالُ يَجِدُها ٱلمَرْءُ في مُدُنِ جَنوبِ ٱلمانيا . وَدَخَلْتُ ٱلمَنْزِلَ ، وَٱرْتَقَيْتُ أَرْبَعَ مَجْموعاتٍ مِنَ ٱلدَّرَجِ حَتّى وَصَلْتُ إلى ٱلسُّلَّمِ ٱلوَحيدِ ٱلّذي يُؤَدّي إلى ٱلسَّطْحِ . وَكانَ هُناكَ بابٌ واحِدٌ ثُبِّتَتْ عَلَيْهِ بِطاقَةٌ . وَمَعَ أَنَّ ٱلمَكانَ كانَ مُظْلِمًا ، فَقَدِ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَقْرَأَ ٱلاسْمَ في ٱلبِطاقَةِ « فيكْتور فرانْكِنِشْتاين » .

وَأَخَذْتُ أَتَحَسَّسُ جانِبَ ٱلبابِ حَتّى وَجَدْتُ ٱلجَرَسَ وَضَغَطْتُ عَلَيْهِ ، فَسَمِعْتُ دَقّاتِهِ تَصْدُرُ مِنْ مَسافَةٍ بَعيدةٍ مِنَ ٱلدّاخِلِ . وَبَيْنَما كُنْتُ أَقِفُ مُصْغِيًا إلى وَقْعِ أَقْدامٍ تَقْتَرِبُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، سَرَحَ بي ٱلخاطِرُ . تُرى ما ٱلتَّغَيُّراتُ ٱلّتي طَرَأَتْ بَعْدَ مُرورِ عامَيْنِ عَلى صَديقي ؟ إنَّ عامَيْنِ يُعْتَبَرانِ وَقْتًا طَويلًا في حَياةِ شابٍّ صَغيرٍ . وَوَصَلَتِ ٱلخُطُواتُ إلى ٱلبابِ ، وَسَمِعْتُ صَوْتَ عِدّةِ أَقْفالٍ تُفْتَحُ ، وَكانَ يَبْدو أَنَّهُ قَدْ أُوصِدَ بابُهُ بِإِحْكامٍ .

وَأَخيرًا فُتِحَ ٱلبابُ ، وَها هُوَ ذا يَقِفُ أَمامي .. فرانْكِنِشْتاين . نَعَمْ ، كانَ هوَ ، وَلٰكِنْ ، لَيْسَ فرانْكِنِشْتاين ٱلّذي عَهِدْتُهُ . كانَ شاحِبًا شُحوبَ ٱلمَوْتى ، ذا عَيْنَيْنِ غائِرَتَيْنِ ، وَلِحْيَةٍ شَعْثاءَ . لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ ٱلفَتى ٱلّذي عَهِدْتُهُ يَحْيا حَياةَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلعافِيَةِ مَعي في ٱلهَواءِ ٱلطَّلْقِ في رُبوعِ ٱلجِبالِ في مَوْطِنِنا . هٰذا ٱلجَسَدُ ٱلنَّحيلُ ٱلّذي يَلُفُّهُ ثَوْبٌ فَضْفاضٌ بَدا كَما لَوْ كانَ قَدْ صُنِعَ لِشَخْصٍ يَفُوقُهُ حَجْمًا . وَلَقَدْ تَساءَلْتُ في نَفْسي : أَلَمْ يُغادِرْ حُجْرَتَهُ هٰذِهِ قَطُّ ؟ وَمَعَ ذٰلِكَ ، فَإِنَّني لَمْ أَجِدْ مُبَرِّرًا لِلِاسْتِياءِ مِنَ ٱلطَّريقَةِ ٱلّتي ٱسْتَقْبَلَني بِها ، فَبَعْدَ لَحْظَةِ ٱلدَّهْشَةِ ٱلّتي أَخَذَتْهُ تَقَدَّمَ مِنّي ، وَأَمْسَكَ بِيَدي ، وَظَهَرَتْ عَلى وَجْهِهِ نَظْرَةُ ٱبْتِهاجٍ ، وَهَتَفَ : « هَنْري ! لَقَدْ جِئْتَ في ٱلوَقْتِ ٱلمُناسِبِ تَمامًا . »

ثُمَّ سَحَبَني إلى ٱلدّاخِلِ وَأَغْلَقَ ٱلبابَ . وَقَدِ ٱسْتَغْرَقَ هٰذا بَعْضَ ٱلوَقْتِ نَظَرًا إلى أَنَّهُ كانَ هُناكَ – كَما قُلْتُ – عِدّةُ أَقْفالٍ وَمَزاليجَ ضَخْمةٍ ، مِما دَلَّ عَلى أَنَّهُ لا يَتَوَقَّعُ زُوّارًا ، وَلا يَرْغَبُ في أَنْ يَزورَهُ أَحَدٌ .

أَخَذَني فرانْكِنِشْتاين عَبْرَ دِهْليزٍ طَويلٍ مُظْلِمٍ إلى حُجْرَةٍ تَزْحَمُها ٱلكُتُبُ . وَفي جانِبٍ مِنْها سَريرٌ يَدُلُّ مَظْهَرُهُ عَلى أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَقْرَبْهُ مُنْذُ أَيّامٍ ، وَعَلى مِنْضَدَةٍ قُرْبَ ٱلنّافِذَةِ ، كانَتْ بَقايا وَجَباتِ عِدّةٍ . وَكانَ ٱلغُبارُ يُغَطّي كُلَّ مَكانٍ ، وَكانَتْ أُخْرَياتُ أَشِعَّةِ ٱلشَّمْسِ ٱلغارِبَةِ تَنْعَكِسُ باهِتَةً مِنْ خِلالِ ٱلنّوافِذِ ٱلقَذِرَةِ . وَثَمَّةَ رائِحَةٌ غَيْرُ طَيِّبَةٍ تَنْبَعِثُ فَتَكادُ تُزْكِمُ ٱلأَنْفَ .

وَبَعْدَ أَنْ أَنْبَأْتُهُ بِأَخْبارِ أُسْرَتِهِ ، وَأَطْلَعْتُهُ عَلى سَبَبِ مَجيئي إلى إنْغولْشتاد ، نَهَضَ وَأَخَذَ يَمْشي في ٱلحُجْرَةِ جَيْئَةً وَذَهابًا وَهوَ مُضْطَرِبٌ . وَلَمْ يَكُنْ يَبْدو أَنَّهُ يُفَكِّرُ مُطْلَقًا فيما حَمَلْتُ إلَيْهِ مِنْ أَنْباءٍ ، وَأَخيرًا قالَ :

« هَنْري ، لَقَدْ جِئْتَ في ٱلوَقْتِ ٱلمُناسِبِ ٱلّذي أَحْتاجُ فيهِ إلى مَعونَتِكَ . إنَّ ٱلعَمَلَ ٱلعَظيمَ ٱلّذي كُنْتُ أَشْتَغِلُ بِهِ خِلالَ ٱلعامِ ٱلأَخيرِ يَقْتَرِبُ مِنْ نِهايَتِهِ . وَسَوْفَ أَعْرِفُ عاجِلًا ، هَلْ ضَيَّعْتُ وَقْتي ، أَمْ أَنَّني دَفَعْتُ ٱلكَشْفَ ٱلعِلْميَّ إلى آفاقٍ جَديدةٍ ؟ »

كانَ يَقولُ هٰذا وَعَيْناهُ تَبْرُقانِ بِضَوْءٍ غَريبٍ ، كانَتا أَشْبَهَ بِعَيْنَيْ مَجْنونٍ . ثُمَّ قالَ : « لَقَدْ أَعْدَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ تَقْريبًا ، وَكُلُّ ما أَحْتاجُ إلَيْهِ ٱلآنَ هوَ ٱلظُّروفُ ٱلمُلائِمَةُ لِإِجْراءِ ٱلتَّجْرِبَةِ ٱلكُبْرى . تَعالَ مَعي . » ثُمَّ سارَ وَأَنا أَتْبَعُهُ إلى بابٍ في أَحَدِ أَرْكانِ حُجْرَةِ ٱلمَعيشَةِ وَقالَ : « سَوْفَ تَرى ما لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ . »

وَما إنْ فَتَحَ ٱلبابَ حَتّى هَبَّتْ رائِحَةٌ – نَفْسُ ٱلرّائِحَةِ ٱلغَريبَةِ ٱلّتي زَكَمَتْني مِنْ قَبْلُ وَٱلّتي أَصْبَحَتِ ٱلآنَ أَقْوى – وَكانَتْ أَشْبَهَ بِرائِحَةِ ٱللَّحْمِ ٱلفاسِدِ . فَكُنْتُ لا أَكادُ أُطيقُها ، وَلٰكِنْ لَمْ يَبْدُ عَلى صَديقي أَنَّهُ لاحَظَ ذٰلِكَ ، وَمَضى أَمامي إلى ٱلدّاخِلِ . كانَتِ ٱلحُجْرَةُ مُظْلِمَةً ، وَفي أَوَّلِ وَهْلَةٍ لَمْ أَكُنْ أَرى إلّا مَجْموعَةً كَبيرَةً مِنَ ٱلأَسْلاكِ وَٱلزُّجاجاتِ وَٱلأَوانِي وَٱلأَنابيبِ ٱلنُّحاسِيَّةِ وَٱلزُّجاجِيَّةِ . وَهُنا وَهُناكَ كانَتِ ٱلأَضْواءُ ٱلزَّرقاءُ ٱلمُنْبَعِثَةُ مِنَ ٱلمَواقِدِ تَبْدو مِثْلَ ثُقوبٍ في ٱلظَّلامِ ، وَكانَ لِلسَّوائِلِ وَهيَ تَغْلي في هٰذِهِ ٱلمَواضيعِ صَوْتٌ مَسْموعٌ .

وَحينَما أَلِفَتْ عَيْنايَ ٱلمَكانَ شِبْهَ ٱلمُظْلِمِ ، وَبَدَأَتِ ٱلرُّؤْيَةُ تَتَحَسَّنُ ، رَأَيْتُ أَنَّ هٰذِهِ

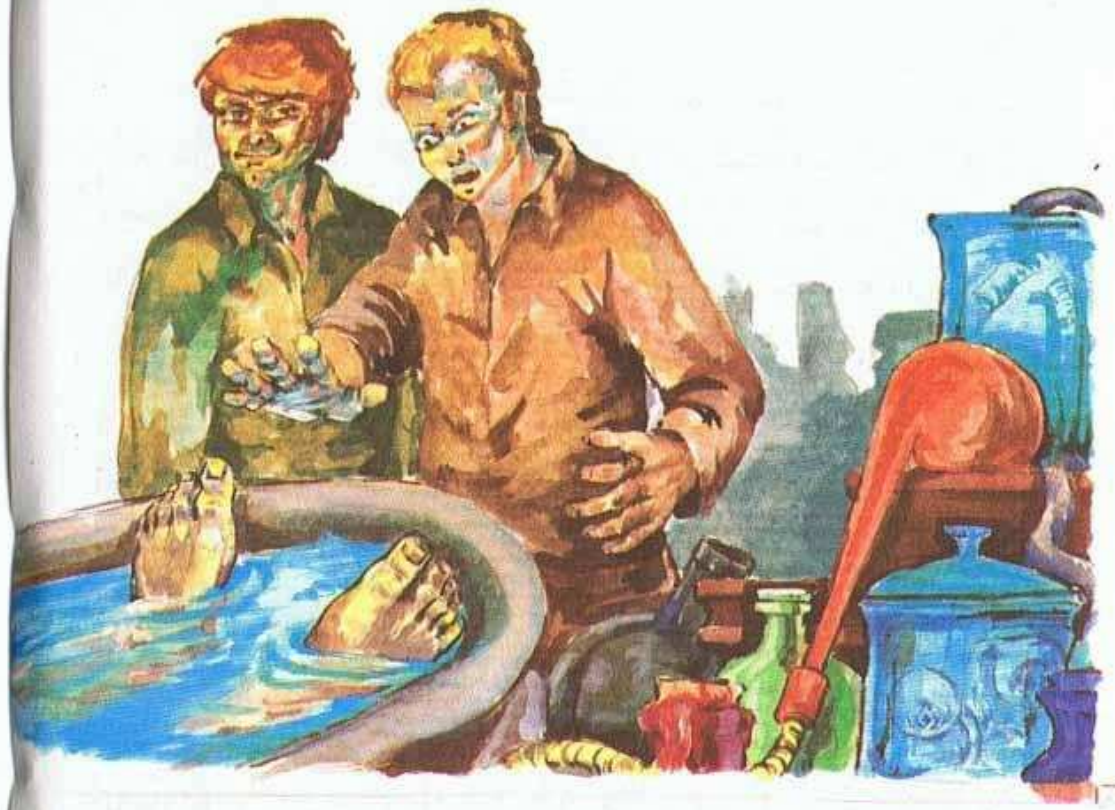

ٱلأَشْياءَ مُرَتَّبَةٌ حَوْلَ ما يُشْبِهُ حَوْضَ ٱلإِسْتِحْمامِ في وَسَطِ ٱلحُجْرَةِ ، وَثَمَّةَ طاوِلَةُ شُغْلٍ خَشَبِيَّةٌ تَمْتَدُّ حَوْلَ ٱلحَوْضِ .

كانَ فرانْكِنِشْتاين يُراقِبُني وَلا يَزالُ في عَيْنَيْهِ ذٰلِكَ ٱلبَريقُ ٱلغَريبُ . ثُمَّ قالَ : « تَقَدَّمْ .. تَطَلَّعْ في ٱلدّاخِلِ .. ٱنْظُرْ ماذا أَنْجَزْتُ ! »

فانْحَنَيْتُ فَوْقَ ٱلطّاوِلَةِ وَنَظَرْتُ إلى داخِلِ ٱلحَوْضِ . كانَ مَمْلوءًا بِسائِلٍ صافٍ ، وَحاوَلْتُ أَنْ أَسْبُرَ بِبَصَري غَوْرَ ٱلسّائِلِ ، وَلٰكِنْ كُلُّ ما ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَراهُ في ٱلبِدايَةِ كانَ شَيْئًا يُشْبِهُ مِثْلَ ٱلشَّعْرِ .. ٱلشَّعْرِ ٱلدَّقيقِ . فانْحَنَيْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذي قَبْلُ ، وَعِنْدَما قَرُبَ فرانْكِنِشْتاين مِصْباحًا مِنَ ٱلحَوْضِ شَهَقْتُ بِشِدَّةٍ . لَقَدْ كانَ شَعْرًا مُسْتَرْسِلًا في حَلْقَةٍ ذَهَبِيَّةٍ حَوْلَ وَجْهٍ .. حَوْلَ رَأْسٍ . وَتَطَلَّعْتُ أَكْثَرَ . نَعَمْ كانَ هُناكَ جِسْمٌ في ٱلحَوْضِ .. جِسْمُ إِنْسانٍ !

الفَصْلُ ٱلخامِسُ

عُدْنا إلى حُجْرَةِ ٱلمَعيشَةِ ، وَجَلَسْتُ إلى ٱلمِنْضَدَةِ تُساوِرُني أَبْشَعُ ٱلأَفْكارِ وَٱلهَواجِسِ . وَعِنْدَ ما جَلَسَ فرانْكِنِشْتاين في مُواجَهَتي كانَ يَبْدو في ضَوْءِ ٱلمِصْباحِ أَكْثَرَ نُحولًا وَشُحوبًا مِمّا كانَ مِنْ قَبْلُ . كانَتْ عَيْناهُ لا تَزالانِ تَبْرُقانِ بِطَريقَةٍ غَيْرِ عاديَّةٍ ، وَيَداهُ لا تَسْتَقِرّانِ عَلى حالٍ . فَهَلْ هُوَ مَجْنونٌ ؟ هَلِ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذي في ٱلحَوْضِ قَتيلٌ قامَ هوَ بِقَتْلِهِ ؟ وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتي – كَما أَعْتَقِدُ – شَعَرْتُ بِٱلخَوْفِ مِنْهُ ، ثُمَّ بَدَأَ يَتَحَدَّثُ بِفَيْضٍ مُفاجِئٍ مِنَ ٱلكَلِماتِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ ، ثُمَّ بَدَأَ ثانِيَةً . وَتَكَشَّفَتْ لي حَقيقَتانِ ، ٱلأُولى : أَنَّهُ قَلَّما تَحَدَّثَ إلى أَيٍّ مِنَ ٱلنّاسِ مُنْذُ شُهورٍ ، وَٱلأُخْرى : أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ إِلّا مَوْضوعٌ واحِدٌ يَسْتَوْلي عَلى كُلِّ تَفْكيرِهِ .

تَحَدَّثَ في ٱلبِدايَةِ عَنْ دِراسَتِهِ في ٱلجامِعَةِ ، وَعَنْ تَجارِبِهِ ٱلمُبَكِّرَةِ ، وَكَيْفَ وَجَدَ – شَيْئًا فَشَيْئًا – أَنَّهُ كانَ يَقْضي في مَسْكَنِهِ ٱلخاصِّ وَقْتًا أَطْوَلَ مِمّا كانَ يَقْضيهِ مُسْتَمِعًا إلى أَساتِذَتِهِ . وَلٰكِنْ كانَ مِنَ ٱلواضِحِ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُطيقُ ٱلِٱنْتِظارَ حَتّى يَنْتَقِلَ مِنْ دِراسَتِهِ ٱلجامِعِيَّةِ هٰذِهِ إلى ٱلمَوْضوعِ ٱلَّذي كانَ يَشْغَلُ كُلَّ تَفْكيرِهِ . ثُمَّ قالَ :

« وَهٰكَذا ، أَصْبَحَ عِلْمُ ٱلأَجْسامِ ٱلحَيَّةِ هوَ ٱلمَوْضوعَ ٱلرَّئيسِيَّ لِدِراستي : عِلْمُ ٱلحَياةِ وَعِلْمُ ٱلمَوْتِ . لَقَدْ كانَ يَبْدو لي أَنَّهُ مِنَ ٱلخَطَإِ أَنَّنا نَعْرِفُ كَثيرًا جِدًّا عَنْ جَميعِ أَنْشِطَةِ جِسْمِ ٱلإِنْسانِ ٱلَّتي تُشَكِّلُ ٱلحَياةَ ، وَمَعَ هٰذا فَنَحْنُ لا نَعْرِفُ كَيْفَ تُنْقَلُ هٰذِهِ ٱلأَنْشِطَةُ إلى حَرَكَةٍ . فَفي اعْتِقادي أَنَّ جِسْمَ ٱلإِنْسانِ يُشْبِهُ ٱلسّاعَةَ ، وَقَدْ يَحْدُثُ أَحْيانًا أَنْ تَتَوَقَّفَ ٱلسّاعَةُ ؛ لِأَنَّ ٱلزُّنْبُرْكَ قَدْ كَفَّ عَنِ ٱلحَرَكَةِ ، مَعَ أَنَّ جَميعَ ٱلتُّروسِ ٱلصَّغيرَةِ مَوْجودَةٌ ، وَلٰكِنَّ ٱلسّاعَةَ مُتَوَقِّفَةٌ . فَما ٱلَّذي نَفْعَلُهُ حينَئِذٍ ؟ إِنَّنا نَأْخُذُ ٱلسّاعَةَ وَنَهُزُّها . وَٱلَّذي يَحْدُثُ غالِبًا أَنَّها تَبْدَأُ ٱلعَمَلَ ثانِيَةً ، وَلِذٰلِكَ وَجَّهْتُ إلى نَفْسي سُؤالَيْنِ ، ٱلأَوَّلُ : كَيْفَ يُشَكِّلُ ٱلمَرْءُ جِسْمَ إِنْسانٍ ؟ وَٱلآخَرُ : كَيْفَ يَبْعَثُ فيهِ ٱلحَياةَ ؟ »

فَقُلْتُ لَهُ : « تَقْصِدُ كَيْفَ تَخْلُقُ ٱلحَياةَ ؟ »

فَقالَ فرانْكِنشْتاين وَهوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ باسِمًا : « نَعَمْ ، أَخْلُقُ الحَياةَ . هٰذِهِ فِكْرَةٌ لا تَروقُ لَكَ كَما أَرى . »

فَأَجَبْتُ : « نَعَمْ لا تَروقُ لي ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الإِنْسانِ أَنْ يَخْلُقَ الحَياةَ . هُناكَ أَشْياءُ لا يَنْبَغي لِلإِنْسانِ أَنْ يُحاوِلَ مَعْرِفَتَها أَوِ القِيامَ بِها . إِنَّ لِلإِنْسانِ مَكانَهُ المُناسِبَ في الطَّبيعةِ ، وَمِنَ الخَيْرِ لَهُ أَلّا يُحاوِلَ تَجاوُزَهُ . »

فَرَدَّ فرانْكِنشْتاين : « ياعَزيزي هَنْري ، لَوْ أَنَّ الإِنْسانَ وَقَفَ دائِمًا عِنْدَ هٰذا الاعْتِقادِ لَما قامَ اليَوْمَ عِلْمٌ وَلا تَعَلَّمْ . أَلَمْ تُفَكِّرْ يَوْمًا في الفَرْقِ الشّاسِعِ بَيْنَ ما يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَهُ الإِنْسانُ وَبَيْنَ ما هوَ عَلَيْهِ الآنَ ؟ أَلَمْ تَنْظُرْ يَوْمًا إِلى الإِنْسانِ الَّذي في الشّارِعِ ، ثُمَّ إِلى الإِنْسانِ الَّذي في لَوْحاتِ الفَنّانينَ العِظامِ ؟ إِذا كانَتْ لَدَيْكَ القُدْرَةُ عَلى الخَلْقِ ، أَفَلا تَرْغَبُ في خَلْقِ الإِنْسانِ الكامِلِ ؟ »

فَصِحْتُ وَأَنا أُفَكِّرُ في الجِسْمِ الَّذي في الحَوْضِ : « إِذا كُنْتَ تَعْلَمُ تَمامًا أَنَّكَ فِعْلًا خَلَقْتَ جِسْمًا ، فَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ لَدَيْكَ القُدْرَةَ عَلى أَنْ تَمْنَحَهُ الحَياةَ ؟! »

لَمْ يُجِبْ فرانْكِنشْتاين ، وَإِنَّما نَهَضَ وَاتَّجَهَ إِلى النّافِذَةِ وَفَتَحَها . كانَ اليَوْمُ حارًّا ، وَلَمْ يَكُنْ في الحُجْرَةِ هَواءٌ ، وَكُنّا نَسْمَعُ صَوْتَ الرَّعْدِ مِنْ بَعيدٍ . قالَ فرانْكِنشْتاين : « هٰذا مَوْسِمُ العَواصِفِ هُنا . »

وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ خارِجَ النّافِذَةِ بِضْعَ لَحَظاتٍ ، ثُمَّ اسْتَدارَ وَمَضى في حَديثِهِ قائِلًا : « إِنَّ رَجُلَ العِلْمِ لا يَمْلِكُ مِنَ القُدْرَةِ أَكْثَرَ مِمّا يَمْلِكُ أَيُّ رَجُلٍ آخَرَ ، أَمّا القُدْرَةُ الَّتي تَزيدُ عَنْ قُدْرَتِهِ هوَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمِدَّها مِنَ الطَّبيعةِ ؛ وَفي الأَيّامِ القَليلةِ القادِمةِ سَوْفَ تَرى ما تَسْتَطيعُ الطَّبيعةُ وَأَنا أَنْ نَفْعَلَهُ . » ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ بِصَرامةٍ قائِلًا : « بَلْ إِنَّكَ تَسْتَطيعُ أَنْ تُعاوِنَني . »

فَقُلْتُ في نَفْسي : « أُعاوِنُهُ ؟ هَلْ يَطْلُبُ مِنّي أَنْ أُعاوِنَهُ في خَلْقِ حَياةٍ ؟ »

وَمَعَ أَنّي شَعَرْتُ بِالفَزَعِ إِزاءَ اقْتِراحِهِ ، فَإِنَّني أَدْرَكْتُ أَيْضًا أَنَّ صَديقي كانَ يَعْرِضُ عَلَيَّ نَصيبًا مِنَ الشَّرَفِ الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يُحَقِّقَهُ النَّجاحُ . وَلٰكِنْ ، هَلْ سَتُكَلَّلُ التَّجْرِبَةُ بِالنَّجاحِ ؟ وَأَهَمُّ مِنْ ذٰلِكَ : هَلْ أَنا حَقًّا أُريدُ لَها أَنْ تَنْجَحَ ؟

وَحينَما كُنْتُ أُراقِبُ يَدَ فرانْكِنشْتاين المُهْتَزَّةَ ، وَحَرَكاتِ وَجْهِهِ المُفاجِئَةَ الغَريبَةَ ، سَرَحْتُ بِخاطِري ثانِيَةً : هَلْ هُوَ مَجْنونٌ صَغيرٌ ؟ وَأَحْسَسْتُ رَغْبَةً في مُغادَرَةِ إِنْغولْشتاد في الحالِ ، وَلٰكِنَّني تَذَكَّرْتُ أَنَّني مَبْعوثُ والِدِهِ إِلى هُنا لِكَيْ أَتَوَلّى رِعايَتَهُ . لَقَدْ كانَ واجِبًا عَلَيَّ أَنْ أَبْقى .

وَفي الأَيّامِ التّالِيَةِ كُنْتُ كُلَّما فَكَّرْتُ في التَّجْرِبَةِ ازْدَدْتُ إِيمانًا بِأَنَّها ضَرْبٌ مِنَ الجُنونِ . هَلْ أَسْتَطيعُ حَقًّا أَنْ أُشارِكَ فرانْكِنشْتاين في عَمَلٍ أَعْتَقِدُ أَنَّهُ ضِدُّ الطَّبيعةِ .. وَاللهِ .. وَالإِنْسانِ ؟ نَعَمْ أَسْتَطيعُ ، بَلْ إِنَّني اسْتَجَبْتُ .

وَكانَتِ الأَسْبابُ الَّتي تَقِفُ وَراءَ اسْتِجابَتي في غايَةِ البَساطَةِ . إِنَّ هٰذِهِ الخُطَّةَ المَجْنونَةَ الَّتي يَتَعَلَّقُ بِها لا يُمْكِنُ أَنْ تُكَلَّلَ بِالنَّجاحِ ، وَحينَما يُصيبُها الإِخْفاقُ – وَأَعْتَقِدُ أَنَّها حَتْمًا سَتُخْفِقُ – فَسَوْفَ يَكونُ مِنْ واجِبي أَنْ أَتَوَلّى رِعايَةَ صَديقي ، وَأَنْ أُواسِيَهُ في مِحْنَتِهِ .

وَهٰكَذا انْتَقَلْتُ إِلى مَسْكَنِ فرانْكِنشْتاين لِأُقيمَ مَعَهُ ، وَكانَ أَوَّلُ ما قُمْتُ بِهِ هُوَ أَنَّني أَضْفَيْتُ عَلى مَسْكَنِهِ النِّظامَ وَالنَّظافَةَ . وَحَرَصْتُ عَلى التَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّهُ يَتَناوَلُ وَجَباتِ طَعامِهِ في أَوْقاتِها المُناسِبَةِ ، ثُمَّ بَذَلْتُ جَهْدي بَعْدَ ذٰلِكَ في تَفَهُّمِ طَبيعَةِ اكْتِشافاتِهِ . وَكانَتْ هٰذِهِ مُهِمَّةً صَعْبَةً ، بِسَبَبِ أَنَّني لَمْ أَكُنْ – مِثْلَهُ – رَجُلَ عِلْمٍ ؛ وَحَتّى لَوْ كُنْتُ كَذٰلِكَ ، لَكانَ مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ تَظَلَّ المُهِمَّةُ صَعْبَةً حَتّى لَوْ قُدِّرَ لي أَنْ أَرى أَنَّهُ أَحْرَزَ تَقَدُّمًا في مَجالِ العِلْمِ ، وَأَنَّهُ تَجاوَزَ ما كانَ مَعْروفًا لِلْعُلَماءِ في ذٰلِكَ الوَقْتِ بِمَسافَةٍ بَعيدَةٍ . وَلَقَدْ حاوَلَ فرانْكِنشْتاين أَنْ يُوَضِّحَ لي ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُهُ قَطُّ ، وَقَدِ انْتَهى الأَمْرُ بِبَساطَةٍ إِلى أَنْ أُنَفِّذَ ما كانَ يَطْلُبُ مِنّي أَنْ أَفْعَلَهُ .

وَالواقِعُ أَنَّ الَّذي كُنْتُ في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إِلَيْهِ في عَمَلي مَعَ فرانْكِنِشْتاين لَمْ يَكُنِ الفَهْمُ ، وَلٰكِنْ قُوَّةُ الاحْتِمال . فَقَدْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَ في حُجْرةٍ مَمْلوءةٍ بِالْقاني الَّتي تَحْتَوي عَلى كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزاءِ الجِسْمِ البَشَرِيِّ ، مِنْ أَذْرُعٍ وَسيقانٍ وَقُلوبٍ .. كُلِّ شَيْءٍ . وَكانَ هٰذا يَبْعَثُ عَلى الاشْمِئْزاز ، أَمّا فرانْكِنِشْتاين فَقَدْ كانَ يَبْدو وَلا شَيْءَ يُقْلِقُهُ . كانَ يَلْتَقِطُ أَعْضاءَ الجِسْمِ البَشَرِيِّ بِبُرودِ سَيِّدةٍ في المَطْبَخِ تَلْتَقِطُ قِطَعًا مِنَ اللَّحْمِ . وَقالَ فرانْكِنِشْتاين ذاتَ يَوْمٍ : « لِكَيْ أَحْصُلَ عَلى ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ في عَمَلي كانَ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلى المُسْتَشْفى وَإِلى السِّجْنِ ، بَلْ إِلى مَدافِنِ المَوْتى . وَلِكَيْ أَخْلُقَ الحَياةَ ، كانَ عَلَيَّ أَنْ أَعيشَ جَنْبًا لِجَنْبٍ مَعَ المَوْتِ . »

لَمْ تَكُنِ المُقَلُ الَّتي تُحَدِّقُ فَيَّ مِنْ داخِلِ وِعاءٍ أَوْ قِنِّينةٍ كُلَّما دَخَلْتُ الحُجْرةَ ؛ وَلا الدِّماغُ الَّذي وُضِعَ في سائِلٍ صافٍ فَبَدا كَمِثْلِ بَعْضِ الكائِناتِ البَحْرِيَّةِ الغَريبةِ ؛ وَلا الأَيْدي

المَبْتورةُ بِعنايةٍ وَالَّتي كانَتْ كَأَنَّما تَنْتَظِرُ شَيْئًا لِتَقْبِضَ عَلَيْهِ – لَمْ يَكُنْ كُلُّ ذٰلِكَ هوَ الَّذي يُقْلِقُني ، وَإِنَّما الَّذي كانَ يُقْلِقُني حَقًّا هُوَ مَرْكَزُ كُلِّ أُولٰئِكَ – وَهوَ الحَوْضُ الطَّويلُ الأَبْيَضُ حَيْثُ كانَ « هوَ » مُمَدَّدًا .

وَلَقَدْ تَعَوَّدْتُ مِنْ آنٍ لِآخَرَ أَنْ أُفَكِّرَ في أَثْناءِ عَمَلِنا أَنَّ « هوَ » نائِمٌ ، وَأَنَّنا وَالأَعْمالَ الَّتي نَقومُ بِها جُزْءٌ مِنْ حُلْمٍ يَراهُ في مَنامِهِ ؛ أَوْ لَعَلَّ العَكْسَ هوَ الصَّحيحُ ، فَأَنا النّائِمُ ، أَمّا « هوَ » وَفرانْكِنِشْتاين وَالحُجْرةُ فَجُزْءٌ مِنْ حُلْمٍ أَراهُ .

كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَبْدو في أَوَّلِ الأَمْرِ غَريبًا ، وَلٰكِنْ بِمُرورِ الأَيّامِ بَدَأْتُ أَتَخَلَّصُ مِنْ خَوْفي مِنْهُ ، وَلِمَ لا ؟ أَلَنْ يَكونَ هُوَ الرَّجُلَ الكامِلَ ؟ أَلَمْ يَتَخَيَّرْ فرانْكِنِشْتاين الأَجْزاءَ المُكَوِّنةَ لَهُ اخْتِيارًا مُوَفَّقًا ؟ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهُ ذو قُوَّةٍ وَجَمالٍ ، فَهوَ يَبْلُغُ أَكْثَرَ مِنْ مِتْرَيْنِ طولًا . وَكانَ يَبْدو بِشَعْرِهِ الذَّهَبِيِّ الطَّويلِ أَرْوَعَ مِنْ أَنْ يَكونَ بَشَرًا ، أَمّا الدِّماغُ الَّذي وَراءَ هاتَيْنِ العَيْنَيْنِ المُغْمَضَتَيْنِ فَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا . وَلٰكِنَّ فرانْكِنِشْتاين كانَ واثِقًا كُلَّ الثِّقةِ أَنَّ القُدْرةَ المُسْتَكِنَّةَ في هٰذا الدِّماغِ لَنْ تَكونَ أَقَلَّ مِنْ قُدْرَتِهِ البَدَنِيَّةِ .

وَذاتَ يَوْمٍ كُنّا نَتَناوَلُ الطَّعامَ في حُجْرةِ المَعيشةِ ، فَقُلْتُ لِفرانْكِنِشْتاين : « إِنَّ الشَّكَّ يُساوِرُني في أَمْرٍ واحِدٍ فَقَطْ . رُبَّما يَتَأَتّى لَهُ أَنْ يَمْتَلِكَ القُوَّةَ وَالجَمالَ وَالفِطْنةَ ، وَلٰكِنْ ماذا عَنِ الصَّلاحِ وَالخَيْرِ ؟ هَلْ يَمْتَدُّ هٰذا الكَمالُ الَّذي تُخَطِّطُ لَهُ إِلى أَنْ يَكونَ رَجُلُكَ صالِحًا خَيِّرًا ؟ »

فَرَدَّ فرانْكِنِشْتاين قائِلًا : « لَقَدْ أَعْدَدْتُ العُدَّةَ لِكُلِّ شَيْءٍ . لَقَدْ وَضَعْتُ الخُطَّةَ لِكَيْ أَجْعَلَهُ يَعيشُ في مَكانٍ بَعيدٍ عَنِ المُثُلِ السَّيِّئةِ الَّتي تُفْسِدُ الإِنْسانَ ، وَحَيْثُ يُتاحُ لَهُ تَدْريبٌ يَسْتَخْرِجُ الكامِنَ فيهِ مِنْ طَبيعةٍ خَيِّرةٍ . إِنَّ الإِنْسانَ يُولَدُ خَيِّرًا ، وَإِنَّما يَأْتي الشَّرُّ حينَما يُسيءُ الإِنْسانُ مُعامَلةَ الإِنْسانِ ، فَإِذا عامَلْتَهُ مُعامَلةً طَيِّبةً فَسَوْفَ يَنْشَأُ خَيِّرًا . »

وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُجادِلَهُ ، فَقَدْ كانَ هٰذا هُوَ ما أَعْتَقِدُهُ أَنا أَيْضًا . وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ بَدَأَ عَقْلي يَتَّجِهُ

إلى ٱلدُّخولِ في عالَمِ ٱلآمالِ وَٱلأَحْلامِ ٱلّذي يَعيشُ فيهِ فرانْكِنِشْتاين ، وَجالَ في خاطِري تساؤُلٌ :

« فَلْنَفْرِضْ أَنّ ٱلحُلْمَ أَصْبَحَ حَقيقةً ، وَأَنّ ٱلجِسْمَ قَدِ ٱكْتَمَلَ ، فَهَلْ مِنَ ٱلمُسْتَطاعِ أَنْ نَجْعَلَ قُوّةَ ٱلحَياةِ تَتَسَرَّبُ إلى داخِلِهِ ؟ »

وَكَأَنّما قَرَأَ فرانْكِنِشْتاين ما يَجولُ في ذِهْني مِنْ أَفْكارٍ فَقالَ : « إنّني مُسْتَعِدٌّ ٱلآنَ ، وَلٰكِنّي أَنْتَظِرُ ٱلظُّروفَ ٱلمُلائِمةَ . »

ثُمّ عَبَرَ ٱلحُجْرةَ إلى ٱلنّافِذةِ وَفَتَحَها ، وَطَرَقَ سَمْعي ثانيةً صَوْتُ ٱلرّعْدِ ، فَقالَ : « لَنْ يَطُولَ ٱنْتِظارُنا . »

الفَصْلُ ٱلسّادِسُ

كانَ ٱلطَّقْسُ في ٱليَوْمِ ٱلتّالي حارًّا ، وَكانَ ٱلجَوُّ مُنْذِرًا بِٱلمَطَرِ . كانَتْ هُناكَ عاصِفةٌ في ٱلطّريقِ ، فَقَدْ تَجَمَعَتْ في ٱلسّماءِ سُحُبٌ قاتِمةٌ ، وَفي ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ بَدَأَ ٱلمَطَرُ يَهْطِلُ في قَطَراتٍ كَبيرةٍ .

كانَ فرانْكِنِشْتاين طَوالَ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ مُضْطَرِبًا مُسْتَثارًا ، وَبَدا أَنَّهُ يَسْتَعْجِلُ هُبوبَ ٱلعاصِفةِ كَما لَوْ كانَ لِلْعاصِفةِ مَكانٌ في خُطّتِهِ . وَحينَما أَخَذَ هُطولُ ٱلمَطَرِ يَشْتَدُّ ، وَهَزيمُ ٱلرّعْدِ يَرْتَفِعُ ٱرْتِفاعًا مُرَوِّعًا ، ازْدادَ فرانْكِنِشْتاين اضْطِرابًا وَاسْتِثارةً ، وَأَخَذَ يَذْرَعُ ٱلحُجْرةَ جَيْئةً وَذَهابًا أَمامَ ٱلنّافِذةِ ٱلمَفْتوحةِ وَهوَ قَلِقٌ مُتَمَلْمِلٌ .

وَحَوالَى ٱلسّاعةِ ٱلسّابِعةِ بَدا عَلَيْهِ فَجْأَةً أَنَّهُ قَرَرَ شَيْئًا ما ، فَأَغْلَقَ ٱلنّافِذةَ ، وَسارَ فَدَخَلَ ٱلمَعْمَلَ ، وَكانَتْ عَدْوى ٱلقَلَقِ وَٱلِاضْطِرابِ قَدِ ٱنْتَقَلَتْ إلَيَّ إذْ ذاكَ . فَقَدْ كانَ واضِحًا أَنّ ساعةَ ٱلعَمَلِ قَدْ أَزِفَتْ ، وَأَنَّ ٱلتَّجْرِبةَ عَلى وَشْكِ أَنْ تَبْدَأَ . وَلٰكِنْ عِنْدَما عادَ لِلظُّهورِ بَعْدَ دَقائِقَ قَليلةٍ أَخَذَتْني دَهْشةٌ بالِغةٌ حَتّى لَقَدْ أَخَذْتُ أَضْحَكُ ، فَقَدْ كانَ يَحْمِلُ في يَدِهِ طَيّارةً وَرَقيّةً مِمّا يَلْهو بِهِ ٱلأَطْفالُ . وَسَأَلْتُهُ : « أَتُرانا سَنَلْعَبُ يافيكْتور ؟ »

وَلٰكِنّ صَديقي كانَ في غايةِ ٱلجِدّيّةِ ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَبَدَلًا مِمّا كانَ عَلَيْهِ مُنْذُ دَقائِقَ قَليلةٍ مِنْ قَلَقٍ وَاضْطِرابٍ ، ظَهَرَتْ عَلى وَجْهِهِ نَظْرةٌ ثابتةٌ .. نَظْرةُ ٱلشَّخْصِ ٱلّذي يَعْرِفُ تَمامًا ماذا يَنْبَغي أَنْ يَفْعَلَ .

وَسِرْتُ أَتْبَعُهُ في ٱلدِّهْليزِ حَتّى ٱلبابِ ٱلأَماميِّ ، ثُمّ أَخَذْنا نَصْعَدُ ٱلسُّلَّمَ ٱلّذي يُؤَدّي إلى ٱلسَّطْحِ ، أَوْ – عَلى ٱلأَصَحِّ – إلى جُزْءٍ مُسَطَّحٍ ضَيِّقٍ مِنْهُ يَمْتَدُّ بَيْنَ جُزْءَيْنِ مُرْتَفِعَيْنِ ناتِئَيْنِ . وَرَأَيْتُ في ٱلجِهةِ ٱليُمْنى نافِذةً مُضاءةً تَقَعُ تَحْتَ أَعْلى نُقْطةٍ في ٱلسَّطْحِ مُباشَرةً ، وَتَبَيَّنْتُ أَنّها لا بُدَّ أَنْ تَكونَ نافِذةَ مَعْمَلِ فرانْكِنِشْتاين .

كانَ ٱلمَكانُ مُظْلِمًا مُبْتَلًا ، وَكانَتِ ٱلرِّيحُ شَديدةً عاتيةً ، وَأَمْسَكْتُ بِٱلطَّيّارةِ ٱلوَرَقيّةِ في حِينَ تَسَلَّقَ فرانْكِنشْتاين ٱلنّافِذةَ ٱلّتي لاحَظْتُ أَنَّها مَفْتوحةٌ قَليلًا ، وَرَأَيْتُهُ يُمَرِّرُ يَدَهُ مِنْ خِلالِ فُتْحَتِها . وَبَعْدَ أَقَلَّ مِنْ دَقيقةٍ كانَ يَقِفُ بِجِواري ثانيةً وَفي يَدِهِ طَرَفُ قِطْعةٍ مِنَ ٱلسِّلْكِ ، وَلاحَظْتُ حِيْنَذاكَ أَنَّ هُناكَ أَيْضًا لَفَّةً مِنَ ٱلسِّلْكِ ٱلرَّفيعِ مَشْدودةً إلى ٱلطَّيّارةِ ٱلوَرَقيّةِ .

وَوَصَلَ فرانْكِنشْتاين بَيْنَ سِلْكِ ٱلطَّيّارةِ وَٱلسِّلْكِ ٱلّذي أَتى بِهِ مِنْ خِلالِ نافِذةِ ٱلمَعْمَلِ ، ثُمَّ أَخَذَ مِنّي ٱلطَّيّارةَ . وَقَدْ شَعَرْتُ بِٱلِارْتياحِ لِذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلرّيحَ كانَتْ تَخْفِقُ فيها طَوالَ ٱلوَقْتِ بِشِدَّةٍ ، وَكُنْتُ أَخْشى أَنْ تَحْمِلَني مَعَها فَتَقْذِفَ بي إلى ٱلشّارِعِ مِنْ حالِقٍ لِمَسافةِ خَمْسةِ طَوابِقَ . أَمّا فرانْكِنشْتاين فَقَدْ كانَ مُنْهَمِكًا فيما يَفْعَلُهُ انْهِماكًا يَشْغَلُهُ عَنِ ٱلشُّعورِ بِٱلخَوْفِ . وَتَسَلَّقَ ٱلنّافِذةَ ثانيةً وَهوَ مُمْسِكٌ بِطَرَفِ ٱلطَّيّارةِ بَيْنَ أَسْنانِهِ ، ثُمَّ إلى أَعْلى ٱلسَّطْحِ ، وَناداني قائلًا : « إصْعَدْ إلَيَّ ياهَنْري فَأَنا في حاجةٍ إلَيْكَ . »

فَتَبِعْتُهُ إلى أَعْلى ، وَناوَلَني ٱلطَّيّارةَ لأُمْسِكَها بِيَدي ثانيةً ، ثُمَّ قالَ : « تَحَرَّكْ إلى ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنَ ٱلسَّطْحِ ، وَٱجْلِسْ في مُواجَهةِ ٱلرّيحِ وَسَأُمْسِكُ أَنا بِالسِّلْكِ . »

حِيْنَما كُنّا أَطْفالًا كُنّا نَعْشَقُ ٱللَّعِبَ بِٱلطَّيّاراتِ ٱلوَرَقيّةِ . وَبَيْنَما جَلَسْتُ في مَهَبِّ ٱلرّيحِ تَحْتَ ٱلمَطَرِ داخَلَني شُعورٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعٍ بِٱلِابْتِهاجِ ، وَذَهَبَ عَنّي ٱلخَوْفُ مِنَ ٱلسُّقوطِ . وَكُنْتُ أَرى في وَمَضاتِ ٱلبَرْقِ وَجْهَ فرانْكِنشْتاين وَهُوَ يَبْتَسِمُ إذْ كانَ يُخامِرُهُ نَفْسُ ٱلشُّعورِ مِثْلي ، فَقَدْ أَصْبَحَ ٱلأَمْرُ ٱلآنَ وَكَأَنَّهُ لُعْبةٌ . وَقَدْ جَعَلَهُ ٱلقِيامُ بِهٰذِهِ ٱللُّعْبةِ يُحِسُّ كَأَنَّما عادَ إلى

عَهْدِ ٱلطُّفولةِ مِنْ جَديدٍ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّ هٰذِهِ كانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ رَأَيْتُهُ فيها سَعيدًا نَفْسَ ٱلسَّعادةِ ٱلَّتي كانَتْ تَبْدو عَلَيْهِ حِيْنَما كُنّا أَطْفالًا .

حَمَلْتُ ٱلطَّيّارةَ إلى أَعْلى ، وَتَرَكْتُ ٱلرّيحَ تَدْفَعُها . وَشَيْئًا فَشَيْئًا أَخَذَ فرانْكِنشْتاين يَجْذِبُها ثُمَّ يَتْرُكُها في ٱللَّيْلِ ٱلعاصِفِ ، فَأَخَذَتْ تَرْتَفِعُ ثُمَّ تَرْتَفِعُ وَٱلسِّلْكُ لا يَزالُ مُمْتَدًّا مِنْ خِلالِ نافِذةِ ٱلمَعْمَلِ . وَحِيْنَما تَأَكَّدْنا مِنْ أَنَّ ٱلطَّيّارةَ قَدِ ارْتَفَعَتْ بَعيدًا بِما يَكْفي ، رَبَطَ فرانْكِنشْتاين ٱلسِّلْكَ إلى شَيْءٍ ما داخِلَ ٱلنّافِذةِ ، ثُمَّ نَزَلْنا مِنَ ٱلسَّطْحِ عائِدَيْنِ إلى ٱلمَنْزِلِ .

لَمْ يَنْسَ فرانْكِنشْتاين قَطُّ ما في ٱلبَرْقِ مِنْ طاقةٍ . لَقَدْ كانَتْ صورَةُ ٱلشَّجَرةِ ٱلّتي أَصابَتْها ٱلصّاعِقةُ فَتَفَحَّمَتْ عِنْدَ جَبَلِ ساليف لا تَزالُ ماثِلةً بِأَذْهانِنا مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ حِيْنَما كُنّا صَبِيَّيْنِ . وَلٰكِنْ بَيْنَما كُنْتُ أُفَكِّرُ في ٱلبَرْقِ كَظاهِرةٍ مُدَمِّرةٍ ، كانَ فرانْكِنشْتاين يَرى ما هوَ أَبْعَدُ مِنْ ذٰلِكَ . كانَ يَراهُ كَقُوَّةٍ مِنْ أَجْلِ ٱلخَلْقِ . وَٱلآنَ ، إنَّهُ في سَبيلِهِ إلى أَنْ يُجَرِّبَ هٰذِهِ ٱلقُوَّةَ .

سَوْفَ تَصِلُ ٱلطَّيّارةُ في أَيَّةِ لَحْظةٍ إلى قَلْبِ ٱلسُّحُبِ ٱلعاصِفةِ . وَسَوْفَ تَنْدَفِعُ مِنْها إلى أَسْفَلِ طاقةٌ كَهْرَبيّةٌ هائِلةٌ مِنْ خِلالِ ٱلسِّلْكِ حَتّى ٱلمَعْمَلِ ، لِكَيْ تَهَبَ ٱلحَياةَ ! أَنا لا أَزالُ أَرى ٱلأَمْرَ بَعيدًا عَنِ ٱلتَّصْديقِ .

وَبَيْنَما كُنّا نَجْلِسُ في حُجْرةِ ٱلمَعيشةِ نُصْغي إلى صَوْتِ ٱلرَّعْدِ يَقْتَرِبُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، أَخَذْتُ أُفَكِّرُ في ٱلرَّجُلِ ٱلكامِلِ ٱلّذي يَرْقُدُ في ٱلحَوْضِ في ٱلحُجْرةِ ٱلمُجاوِرةِ . أَهوَ نائِمٌ ؟ أَهوَ مَيِّتٌ ؟ أَهوَ لَمْ يُولَدْ ؟ لَسْتُ أَدْري كَيْفَ أَسْتَقِرُّ عَلى وَصْفٍ لَهُ . وَلٰكِنَّني رَأَيْتُ وَمَضاتِ ٱلبَرْقِ فَنَسِيتُهُ حِيْنَئِذٍ . كُنْتُ في أَشَدِّ حالاتِ ٱلخَوْفِ مِنَ ٱلبَرْقِ . هَلْ كانَ فرانْكِنشْتاين عَلى عِلْمٍ بِٱلنَّتائِجِ ٱلّتي تَتَرَتَّبُ عَلى اسْتِنْزالِ ٱلبَرْقِ مِنَ ٱلأَجْواءِ ٱلعُلْيا إلى ٱلمَنْزِلِ بِهٰذِهِ ٱلطَّريقةِ ؟ إنَّهُ لا يُقَدِّرُ مَدى ٱلقُوَّةِ ٱلّتي سَوْفَ يَضْرِبُ بِها ٱلبَرْقُ ضَرْبَتَهُ . صَحيحٌ أَنَّهُ أَعَدَّ ٱلعُدَّةَ لِكَيْ يُسَرِّبَ ٱلكَهْرَباءَ إلى ٱلأَرْضِ وَلٰكِنْ هَلْ تَنْجَحُ هٰذِهِ ٱلخُطَّةُ ؟ لَقَدْ كانَ ٱلأَمْرُ

أَشْبَهَ بِٱلْجُلوسِ بِجوارِ قُنْبُلَةٍ ذاتِ حَجْمٍ غَيْرِ مَعْلومٍ في ٱنْتِظارِ أَنْ تَنْفَجِرَ .

وَحينَما وَقَعَتِ الواقِعةُ لَمْ أَكُنْ – بِٱلطَّبْعِ – مُسْتَعِدًّا لَها . كانَتْ هُناكَ فَرْقَعةٌ شَديدةٌ وَوَميضٌ ، ثُمَّ إذا بِكُلِّ شَيْءٍ يُصْبِحُ ظَلامًا ، وَحينَما أَفَقْتُ كانَ يَبْدو أَنَّ دَهْرًا قَدِ ٱنْقَضى ، وَلٰكِنَّ ٱلْحَقيقةَ أَنَّها كانَتْ لَحْظةً ، وَكُنْتُ عاجِزًا عَنِ ٱلسَّمْعِ بِسَبَبِ ٱلِٱنْفِجارِ الَّذي أَصَمَّ أُذُنَيَّ ، بَلْ إِنَّني كُنْتُ عاجِزًا عَنِ ٱلرُّؤْيةِ أَيْضًا . لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ في ٱلْبِدايةِ أَنَّني فَقَدْتُ بَصَري بِسَبَبِ ٱلْوَميضِ ٱلخاطِفِ ، وَلٰكِنَّني سُرْعانَ ما أَدْرَكْتُ أَنَّ ٱلْمَصابيحَ قَدِ ٱنْفَجَرَتْ ، كَما أَنَّني شَمَمْتُ رائِحةَ ٱحْتِراقٍ . أَمَّا ٱلإِجْراءاتُ الَّتي كانَ فرانْكِنِشْتاين قَدِ ٱتَّخَذَها بِشَأْنِ تَسْريبِ ٱلْكَهْرَباءِ إِلى ٱلأَرْضِ فَإِنَّها لَمْ تَنْجَحْ تَمامًا كَما كانَ يَتَوَقَّعُ ، وَلِذٰلِكَ فَإِنَّ قَدْرًا كَبيرًا مِنْ قُوَّةِ ٱلْبَرْقِ أَصابَ ٱلْمَعْمَلَ .

كانَ فرانْكِنِشْتاين قَدْ وَقَفَ على قَدَمَيْهِ ، وَٱتَّخَذَ طَريقَهُ إِلى ٱلْحُجْرةِ ، وَكانَ بابُها قَدْ أُصيبَ مِنْ قُوَّةِ ٱلِٱنْفِجارِ فَٱنْخَلَعَ وَأَصْبَحَ مُعَلَّقًا في دِعامَتِهِ . أَمَّا داخِلُ ٱلْحُجْرةِ فَقَدْ سادَهُ

ٱلظَّلامُ ، وَكانَتْ رائِحةُ ٱلِٱحْتِراقِ فيهِ أَقْوى . وَحينَما خَطَوْنا إِلى ٱلدَّاخِلِ شَعَرْنا بِٱلزُّجاجِ ٱلْمُهَشَّمِ تَحْتَ أَقْدامِنا . كَما شَعَرْنا بِأَشْياءَ أُخْرى ناعِمةِ ٱلْمَلْمَسِ مُقَزَّزةٍ .

وَكانَتْ مُفاجَأَةُ ٱلْبَرْقِ ٱلْخاطِفِ قَدْ جَعَلَتْني أَنْسى كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَمْ أَتَذَكَّرِ ٱلتَّجْرِبةَ إِلّا عِنْدَما لَمَسَتْ يَدايَ ٱلْمِنْضَدةَ الَّتي في وَسَطِ ٱلْحُجْرةِ . أَمَّا فرانْكِنِشْتاين فَإِنَّهُ لَمْ يَنْسَ ، بَلْ كانَ قَدْ سارَعَ وَٱنْحَنى فَوْقَ ٱلْحَوْضِ ، وَأَخَذَ يَتَحَسَّسُ بِيَدَيْهِ ، وَفي هٰذِهِ ٱللَّحْظةِ أَضاءَ ٱلْحُجْرةَ وَميضُ بَرْقٍ بَعيدٍ ، وَظَلَّ لَحْظةً ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَبَيَّنَ في أَثْنائِها مِنْضَدةً مُتَفَحِّمةً . وَحَوْضًا مُحَطَّمًا ، وَٱلْجِسْمَ مُمَدَّدًا وَوَجْهُهُ إِلى أَسْفَلُ في سَنْتيمِتْراتٍ مِنَ ٱلسَّائِلِ . كانَ ساكِنًا تَمامًا .

قالَ فرانْكِنِشْتاين مُكْتَئِبًا : « لَقَدْ أَخْفَقَتِ ٱلتَّجْرِبةُ . »

ثُمَّ سارَ وَأَنا أَتْبَعُهُ إِلى خارِجِ ٱلْحُجْرةِ .

كانَ ذٰلِكَ خاتِمةً لِكُلِّ آمالِهِ ، وَشَعَرْتُ بِٱلأَسَفِ ٱلْعَميقِ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلٰكِنْ مَعَ إِنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجْهَرَ بِما في نَفْسي – وَقْتَئِذٍ – فَقَدْ بَدا لي أَنَّ ٱلأُمورَ قَدْ سارَتْ في أَحْسَنِ طَريقٍ يُمْكِنُ أَنْ تَسيرَ فيهِ . وَٱلْواقِعُ أَنَّني ما وَدِدْتُ قَطُّ أَنْ تَنْجَحَ ٱلتَّجْرِبةُ .

وَكانَ ٱلإِجْهادُ قَدْ بَلَغَ مِنّا ما بَلَغَ ، فَٱسْتَلْقَيْنا في فِراشِنا حَتّى دونَ أَنْ نَعْبَأَ بِخَلْعِ مَلابِسِنا ، وَقَبْلَ أَنْ تَهْدَأَ ٱلْعاصِفةُ كُنّا في سُباتٍ عَميقٍ .

الفَصْلُ السّابِعُ

وَمَعَ أَنّنا كُنّا مُرْهَقَيْنِ ، فَإِنّ الأَحْداثَ الّتي وَقَعَتْ في هٰذِهِ اللّيْلَةِ كانَتْ تَحولُ دونَ أَنْ تَنْعَمَ بِنَوْمٍ هادِئٍ عَمِيقٍ ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ أَحْلامًا .. أَحْلامًا عَنْ أَشْياءَ غَريبةٍ تَدِبُّ فيها الحَياةُ في الطّابَقِ الّذي فيهِ المَعْمَلُ . رَأَيْتُ في المَنامِ إليزابيث تَمْشي في شَوارِعِ إنْغولْشتاد ، وَقَدْ دَفَعَني السُّرورُ بِرُؤْيَتِها وَالدّهْشَةُ لِلقائِها إلى التّقَدُّمِ نَحْوَها وَتَقْبيلِها . وَلٰكِنْ حينَما رَفَعْتُ شَفَتَيَّ عَنْها رَأَيْتُ شَفَتَيْها تَتَحَوّلانِ مِنَ اللّوْنِ الأَحْمرِ إلى اللّوْنِ الأَزْرَقِ المُخْضَرِّ .. لَوْنِ المَوْتِ . ثُمّ بَدَأَ هٰذا اللّوْنُ يَنْتَشِرُ عَبْرَ وَجْهِها ، فَأَرْغَمْتُ نَفْسي عَلى الِاسْتيقاظِ .

وَلا بُدّ أَنْ يَكونَ هٰذا قَدْ حَدَثَ حَوالَى السّاعَةِ الرّابِعَةِ وَالنِّصْفِ . وَجَلَسْتُ في السّريرِ ، وَأَخَذْتُ أُمِرُّ بِظَهْرِ يَدي عَبْرَ وَجْهي الذي كانَ يُبَلِّلُهُ العَرَقُ مِنْ خَوْفٍ وَهَلَعٍ .

وَنَظَرْتُ حَوْلي . كانَتِ السّتائِرُ مُسْدَلَةً ، وَكُلُّ شَيْءٍ في ظَلامٍ . أَمّا العاصِفَةُ فَكانَتْ قَدْ

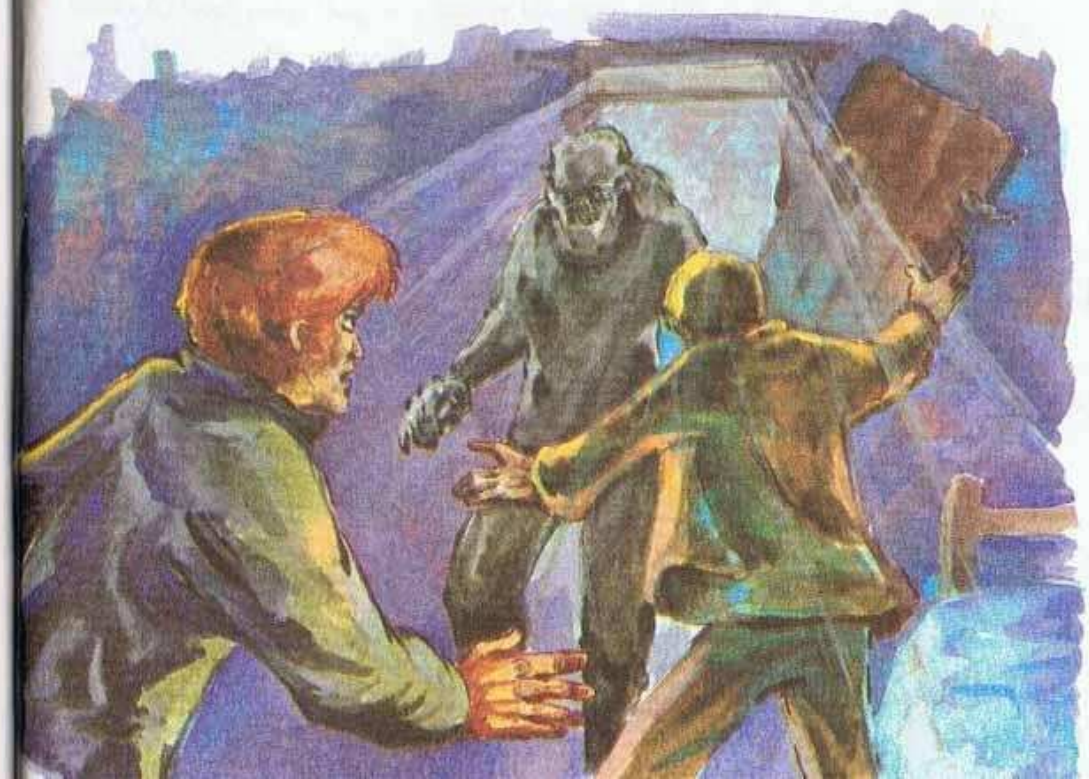

هَدَأَتْ ، وَتَوَقَّفَ الرَّعْدُ ، وَوَقَعَتْ عَيْناي عَلى بابِ الرَّدْهَةِ المَفْتوحِ الّذي يُؤَدّي إلى المَعْمَلِ . وَكانَ مُظْلِمًا مِثْلَ أَيِّةِ بُقْعَةٍ أُخْرى في المَنْزِلِ ، وَلٰكِنّ الظَّلامَ كانَ أَخَفَّ حَيْثُ كانَ يَتَسَرَّبُ مِنْ خِلالِ نافِذَةِ السَّطْحِ بَصيصٌ مِنَ الضَّوْءِ . وَبَيْنَما كُنْتُ جالِسًا في السَّريرِ أُفَكِّرُ فيما يَنْبَغي عَلَيْنا عَمَلُهُ حينَما يَطْلُعُ النَّهارُ ، إذا بِخَيالٍ يَتَحَرَّكُ نَحْوَ الجُزْءِ الأَقَلِّ ظَلامًا عِنْدَ بابِ الرَّدْهَةِ . ثُمَّ إذا بِالخَيالِ يُصْبِحُ شَكْلًا يَمْلَأُ بابَ الرَّدْهَةِ ، ثُمَّ يُغادِرُهُ فَيَتْرُكُهُ خاليًا ، ثُمَّ يَمُرُّ إلى الحُجْرَةِ الّتي أَنا بِها ، فَتَجَمَّدَ الدَّمُ في عُروقي . شَيْءٌ ما يَقِفُ قَريبًا جِدًّا مِنْ سَريري .

ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا يَنْبَعِثُ مِنَ السَّريرِ الآخَرِ حَيْثُ كانَ فرانْكِنِشْتاين قَدِ اسْتَيْقَظَ ، وَسارَعَ فَجَذَبَ السِّتارَةَ لِيَفْتَحَها ، فَانْدَفَعَ إلى داخِلِ الحُجْرَةِ ضَوْءُ الصَّباحِ الباكِرِ الرَّماديُّ لِيَكْشِفَ عَنْ .. ماذا يُمْكِنُ أَنْ أَقولَ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ في التّوِّ أَنَّهُ ذٰلِكَ الجِسْمُ الّذي كانَ في الحَوْضِ ، وَهُوَ الآنَ حَيٌّ يَتَنَفَّسُ ... وَلٰكِنْ ... أَيْنَ الكَمالُ ؟ أَيْنَ المَخْلوقُ الّذي كانَ حُلْمَ فرانْكِنِشْتاين ؟ أَهٰذِهِ هِيَ خاتِمَةُ التَّجْرِبَةِ الكُبْرى ؟

ها هوَ ذا يَقِفُ أَمامَنا عاريًا ، مُبَلَّلًا ، لامِعًا ، وَشَعْرُهُ الطَّويلُ يَتَدَلّى فَوْقَ صَدْرِهِ ؛ وَلَوْ وَقَفَ مُنْتَصِبًا بِقامَتِهِ لَبَدا عِمْلاقًا ، أَمّا في حالِهِ هٰذِهِ فَقَدْ كانَ يَبْلُغُ نَحْوَ المِتْرَيْنِ طولًا . كانَ يَقِفُ مَحْنِيَّ الظَّهْرِ وَذِراعاهُ مُدَلّاتانِ أَمامَهُ كَذِراعَيِ القِرْدِ الضَّخْمِ ، أَمّا وَجْهُهُ فَإِنَّ الجَمالَ الّذي كانَ يَبْدو بِهِ وَهُوَ في الحَوْضِ قَدْ ذَهَبَ مَعَ البَرْقِ ، وَبَدَلًا مِنَ البَشَرَةِ البَيْضاءِ الوَرْدِيَّةِ الّتي كانَتْ قَبْلَ انْبِعاثِ الحَياةِ ، كانَتْ بَشَرَتُهُ الحَيَّةُ صَفْراءَ جافَّةً مِثْلَ الوَرَقِ العَتيقِ . كانَ جِلْدُهُ مَمْطوطًا عَبْرَ العِظامِ كَثَوْبٍ شَديدِ الضّيقِ ، وَقَدْ أَدّى هٰذا إلى أَنْ أَصْبَحَتْ أَسْنانُهُ مَكْشوفَةً مِمّا جَعَلَهُ يَبْدو مُتَبَسِّمًا تَبَسُّمًا غَيْرَ طَبيعيٍّ طُولَ الوَقْتِ . أَمّا بَقِيَّةُ جِسْمِهِ فَقَدْ كانَتْ فيها عَلاماتٌ واضِحَةٌ مِنْ أَثَرِ الحُروقِ الّتي أَحْدَثَها البَرْقُ ، وَالخُطوطِ الّتي بَرَزَتْ في مَواقِعِ اتِّصالِ قِطَعِ الجِلْدِ بَعْضِها بِبَعْضٍ . أَمّا بَياضُ عَيْنَيْهِ الضَّيِّقَتَيْنِ فَقَدْ كانَ في لَوْنِ الدَّمِ . الحَقُّ أَنَّهُ كانَ مِسْخًا .

لَمْ يَنْبِسْ أَحَدٌ بِكَلِمةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يُسْمَعُ إلّا صَوْتُ السّائِلِ المُتَساقِطِ مِنْ أَطْرافِ شَعْرِ المِسْخِ فَوْقَ الأَرْضِ . أَمّا فرانْكِنشْتاين فَقَدْ غَمَرَهُ الاشْمِئْزازُ ، وَأَخَذَ يُحَدِّقُ في المِسْخِ ، وَالمِسْخُ يُحَدِّقُ فيهِ . وَأَمّا أنا فَإنّني – بَعْدَ ذَهابِ هَوْلِ المُفاجَأةِ – لَمْ أَكُنْ أُحِسُّ إلّا بِمُجَرَّدِ خَوْفٍ بَسيطٍ ، وَلٰكِنْ بِمُرورِ الوَقْتِ بَدَأْتُ أُدْرِكُ أَنَّهُ لَيْسَ هُناكَ ما يَدْعو إلى الخَوْفِ . فالواقِعُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَيَوانًا ضاريًا ، وَلَوْ أَنَّهُ كانَ يَعْتَزِمُ مُهاجَمَتَنا لَكانَ قَدْ فَعَلَ ذٰلِكَ في هٰذِهِ اللَّحَظاتِ . لَقَدْ كانَتْ حَيْرَتُهُ في أَمْرِهِ ، لا ثِقَلٌ عَنْ حَيْرَتِنا في أَمْرِنا .

كانَ يَبْدو عَلَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّقُ في فرانْكِنشْتاين بِهٰذِهِ النَّظْرَةِ الثّابِتَةِ كَما لَوْ كانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ يُحَدِّقُ فيمَنْ أَوْجَدَهُ ، بَلْ إنَّهُ بَدا يَبْدو وَدودًا أَلِيفًا . تُرى هَلْ كانَ يُريدُ أَنْ يَشْكُرَ الرَّجُلَ الَّذي تَسَبَّبَ في مَنْحِهِ الحَياةَ ؟ وَبَيْنَما كانَتْ هٰذِهِ الفِكْرَةُ تُراوِدُني إذا بِهِ يَتَقَدَّمُ خُطْوَةً إلى الأَمامِ ، ثُمَّ يَجْثو عَلى رُكْبَتَيْهِ وَيَمُدُّ يَدَهُ ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ كانَ عَلى وَشْكِ أَنْ يُقَبِّلَ قَدَمَ فرانْكِنشْتاين . وَلٰكِنْ ، أَيًّا كانَ الَّذي يَقْصِدُهُ فَإنَّه لَمْ تُتَحْ لَهُ الفُرْصَةُ لِيَقومَ بِهِ ، إذْ إنَّ فرانْكِنشْتاين رَكَلَهُ بِرِجْلِهِ وَهوَ يَصيحُ صَيْحَةَ اشْمِئْزازٍ . فَسَقَطَ المِسْخُ عَلى ظَهْرِهِ ، ثُمَّ نَهَضَ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ ، مِمّا دَلَّ عَلى أَنَّهُ – بِالرَّغْمِ مِمّا كانَ يَبْدو مِنْ ثِقَلِ جِسْمِهِ – كانَ قَويًّا نَشيطًا . وَقَدْ جاءَ دَوْرُهُ الآنَ لِتَبْدُوَ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ . وَحينَما رَأى فرانْكِنشْتاين أَنَّ المِسْخَ لَيْسَ ذا خَطَرٍ كَما ظَنَّ مِنْ قَبْلُ انْتَهَزَ الفُرْصَةَ فَتَناوَلَ عَصًا ثَقيلَةً ، وَتَقَدَّمَ خُطْوَةً إلى الأَمامِ وَصاحَ فيهِ :

« اخْرُجْ ! اخْرُجْ مِنْ مَسْكَني ! اُغْرُبْ عَنْ وَجْهي ! إنَّكَ تُثيرُ الاشْمِئْزازَ ! »

أَمّا المِسْخُ فَقَدْ كانَ لا يَزالُ يَنْظُرُ نَظْرَةَ دَهْشَةٍ وَأَلَمٍ . وَدونَ أَنْ يَنْبِسَ بِكَلِمةٍ اسْتَدارَ وَخَرَجَ ، وَجَرى فرانْكِنشْتاين وَراءَهُ إلى نِهايَةِ الرَّدْهَةِ حَتّى البابِ الأَماميِّ الَّذي كانَتْ قُوَّةُ الانْفِجارِ قَدْ خَلَعَتْهُ فَباتَ مَفْتوحًا ، أَمّا المِسْخُ فَقَدْ جَرى نَحْوَ السُّلَّمِ وَاخْتَفى . وَاتَّجَهَتْ مُباشَرَةً إلى النّافِذَةِ وَتَطَلَّعَتْ خارِجَها ، فَرَأَيْتُهُ مُتَرَدِّدًا لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ ، وَلٰكِنَّهُ – أَخيرًا أَخَذَ يَعْدو خِلالَ شَوارِعِ المَدينَةِ الَّتي كانَتْ لا تَزالُ خاليَةً ، في اتِّجاهِ البَوّابَةِ الرَّئيسيَّةِ .

وَقالَ فرانْكِنشْتاين :

« إنَّهُ يُثيرُ الاشْمِئْزازَ . إنَّني لا أَحْتَمِلُ مُجَرَّدَ التَّفْكيرِ فيهِ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « وَلٰكِنَّهُ يَنْتَمي إلَيْكَ . أَنْتَ أَوْجَدْتَهُ . »

فَقالَ : « كانَتْ غَلْطَةً . »

فَقُلْتُ : « رُبَّما ! وَلٰكِنَّها غَلْطَتُكَ . إنَّهُ يَنْتَمي إلَيْكَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ هٰذا . أَلَمْ تَرَ كَيْفَ كانَ يُعامِلُكَ كَسَيِّدٍ لَهُ ! فَماذا كانَ تَصَرُّفُكَ تِجاهَهُ ؟ لَقَدْ طَرَدْتَهُ .. لَقَدْ كانَ تَصَرُّفُكَ غَيْرَ طَيِّبٍ وَغَيْرَ حَكيمٍ . »

يَبْدو أَنَّ كَلِماتي قَدْ أَثَّرَتْ في فرانْكِنشْتاين ، فَشَحَبَ وَجْهُهُ ، وَأَخَذَ جِسْمُهُ كُلُّهُ يَرْتَجِفُ ، ثُمَّ قالَ :

« إنَّهُ لا يَنْتَمي إلَيَّ . لَقَدْ قُلْتُ لَكَ إنَّهُ كانَ غَلْطَةً .. تَجْرِبَةً حَدَثَ فيها خَطَأٌ ، بَلْ إنَّهُ لَيْسَ بَشَرًا . إنَّني لَسْتُ مَدينًا لَهُ بِشَيْءٍ . »

فَسَأَلْتُهُ : « وَلٰكِنْ ياصاحِبي العَزيزَ ، ما الَّذي سَوْفَ يَحْدُثُ ؟ إنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَدَعَهُ يَهيمُ عَلى وَجْهِهِ عَلى هٰذا النَّحْوِ . »

فَقالَ : « لَقَدِ ارْتَكَبَتِ الطَّبيعَةُ خَطَأً ، وَكَما تَفْعَلُ الطَّبيعَةُ دائِمًا فَإنَّها سَوْفَ تُصَحِّحُ خَطَأَها بِطَريقَتِها الخاصَّةِ . إنَّ هٰذا المَخْلوقَ لا يُمْكِنُ أَنْ يَعيشَ ، وَلَقَدْ رَأَيْتَ أَنَّهُ غَيْرُ مُكْتَمِلٍ ، وَلَسَوْفَ يَموتُ مِيتَةً طَبيعيَّةً ، وَلَنْ تَكونَ هُناكَ أَيَّةُ مُشْكِلَةٍ . »

لَمْ يَكُنْ رَدُّ فرانْكِنشْتاين هُوَ الرَّدَّ السَّليمَ المُقْنِعَ ، فَبَذَلْتُ مُحاوَلَةً أُخْرى وَقُلْتُ لَهُ : « وَلٰكِنْ أَلا تَرى أَنَّ عَلَيْكَ واجِبًا ما ؟ »

صاحَ فرانْكِنشْتاين في غَضَبٍ : « وَاجِبٌ ؟ لا تُحَدِّثْني عَنِ الواجِبِ . لَقَدْ قَضَيْتُ وَقْتًا طَويلًا في هٰذِهِ المَدينَةِ مُضَيِّعًا حَياتي في دِراسَةٍ عَقيمَةٍ . سَوْفَ أَعودُ إلى جِنيف ، سَوْفَ أَعودُ إلى مَوْطِني . نَعَمْ .. سَوْفَ أُسافِرُ اليَوْمَ . »

الفصلُ الثّامنُ

وَهٰكَذا آنَ الأوانُ لِكَيْ يَنْتَهيَ مُقامُ صَديقي في إنْغُولْشتاد بِهٰذِهِ الطّريقةِ المُفاجِئةِ . نَهَضَ فرانْكِنشْتاين عَلى عَجَلٍ ، فَمَلأَ حَقيبَتَهُ بِالأشْياءِ الضَّروريَّةِ الّتي يَحْتاجُ إلَيْها في رِحْلَتِهِ ، وَسَألَني أنْ أُرْسِلَ إلَيْهِ بَقيَّةَ حاجاتِهِ في جنيف فيما بَعْدُ . وَكانَ يَتَعَجَّلُ الرَّحيلَ ، وَلِذٰلِكَ فَرِحَ كَثيرًا حينَما وَجَدَ مَكانًا في العَرَبةِ الّتي تُغادِرُ مَدينةَ أُولْم في السّاعةِ الثّامِنةِ .

وَبَيْنَما كُنْتُ أَقِفُ في ساحةِ السُّوقِ أُلَوِّحُ لَهُ بيَدي مُوَدِّعًا ، أَخَذْتُ أُفَكِّرُ في المَشاقِّ ، بَلْ في المَخاطِرِ ، الّتي خَلَّفَها فرانْكِنشْتاين وَراءَهُ لِأُواجِهَها . ما الأَسْبابُ الّتي يُمْكِنُ أنْ أُبَرِّرَ بِها اخْتِفاءَهُ المُفاجِئَ ؟ بَلْ كانَ عَلَيَّ أنْ أُعالِجَ مُشْكِلَةً أسْوَأَ بِكَثيرٍ مِنْ ذٰلِكَ ، وَأَعْني بِها الاخْتِفاءَ المُفاجِئَ — أيْضًا — لِمِسْخٍ مُجَرَّدٍ مِنَ الثِّيابِ يَهيمُ في شَوارِعِ المَدينةِ . ذٰلِكَ أنَّ المِسْخَ إذا وَضَعَ أهْلُ المَدينةِ أيْديَهُمْ عَلَيْهِ ، فَمِنَ المُؤَكَّدِ أنَّهُ سَوْفَ يَقودُهُمْ إلى مَسْكَنِ فرانْكِنشْتاين . وَسَوْفَ تُوَجِّهُ السُّلُطاتُ أسْئِلَةً ، وَلَسْتُ أدْري بِمَ أُجيبُ عَنْها !

عُدْتُ إلى المَنْزِلِ وَقَضَيْتُ بَقيَّةَ الصَّباحِ بِهِ مُتَوَقِّعًا في أيَّةِ لَحْظَةٍ أنْ يُدَقَّ جَرَسُ البابِ دَقًّا عَنيفًا ، وَلٰكِنَّ هٰذا لَمْ يَحْدُثْ ، لا في الصَّباحِ ، ولا بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَلا في اليَوْمِ التّالي . تُرى ما الّذي حَدَثَ ؟ أوَجَدَ المِسْخُ مَخْبَأً يَأْوي إلَيْهِ في المَدينةِ ؟ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أنْ يَجِدَ مِثْلَ هٰذا المَخْبَإِ في مَدينةٍ مِثْلِ إنْغُولْشتاد . أمْ كانَ فرانْكِنشْتاين عَلى حَقٍّ فيما قالَهُ عَنِ الطَّبيعةِ وَأخْطائِها ؟ أمْ لَعَلَّ المِسْخَ قَدِ اخْتَفى ، بِطَريقةٍ غَريبةٍ ، في طِيّاتِ الفَضاءِ ؟

وَفي اليَوْمِ التّالي عَزَمْتُ عَلى أنْ أكْتَشِفَ الأمْرَ بِطَريقةِ سُكّانِ مَدينةِ إنْغُولْشتاد . فَذَهَبْتُ إلى ساحةِ السُّوقِ ، وَقَصَدْتُ إلى بائعةٍ عَجوزٍ تَنْتَحي رُكْنًا فيها ، فَسَأَلْتُها وَأنا أشْتَري مِنْها بَعْضَ البَيْضِ : « هَلْ مِنْ أخْبارٍ ؟ » فَأجابَتْ : « ارْتَفَعَ ثَمَنُ البَيْضِ . »

فَعَزَمْتُ عَلى أنْ أُخاطِرَ ، فَاسْتَمْرَرْتُ في السُّؤالِ : « لَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَ أقاويلَ عَنْ زائرٍ غَريبٍ جاءَ إلى المَدينةِ . »

فقالَتْ : « هٰذِهِ أَخبارُ البارِحةِ . وَإذا سَأَلْتَني فَسَوْفَ أَقولُ لَكَ إنَّهُ كانَ ثَمِلًا .

فَسَأَلْتُها : « مَنْ هوَ ؟ »

أَجابَتْ : « يا لَلْعَجَبِ ! إنَّهُ حارسُ البَوّابةِ ذٰلِكَ المَدْعوُّ كاسْبار . يَجِبُ ألّا يَكونَ حارِسًا عَلى البَوّابةِ . فَلا يَعْنِيني أَمْر أُولٰئِكَ الَّذينَ يَسْمَحُ لَهُمْ بِالخُروجِ مِنَ المَدينةِ ،وَلٰكِنَّهُ – يَوْمًا ما – سَوْفَ يَدَعُ الجَيْشَ الفَرَنْسيّ يَدْخُلُها . »

فَكَذَبْتُ قائِلًا : « لَقَدْ سَمِعْتُ شَيْئًا عَنْ هٰذِهِ القِصّةِ ، فَما الَّذي قالَهُ كاسْبار بِالضَّبْطِ عَمَّنْ رَأى ؟ »

أَجابَتِ العَجوزُ : « حَسَنًا ! كانَ ذٰلِكَ صَباحَ يَوْمِ الإثْنَيْنِ ، إنَّني أَرْوي لَكَ ما قالَهُ بِالضَّبْطِ . كانَ قَدْ فَرَغَ لِتَوِّهِ مِنْ فَتْحِ الأَبْوابِ ، ثُمَّ عادَ إلى مَرْكَزِ الحِراسةِ حينَما رَأى رَجُلًا مِنَ النَّوْعِ الهَمَجيِّ مُجَرَّدًا مِنَ الثِّيابِ يَجْري خارِجَها . فَسارَعَ يُحاوِلُ الإمْساكَ بِهِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ قَدْ فَرَّ بَعيدًا . »

فَضَحِكْتُ وَقُلْتُ : « إذًا فَهٰذا ما حَدَثَ . حِكايةٌ أُخْرى مِنْ حِكاياتِ الجِنِّ . »

وَبَيْنَما كُنْتُ عائِدًا إلى المَنْزِلِ أَحْسَسْتُ كَما لَوْ أَنَّ عِبْئًا ثَقيلًا قَدِ انْزاحَ عَنّي . يا لَحُسْنِ الحَظِّ ! لَقَدْ هَرَبَ المِسْخُ مِنَ المَدينةِ ، وَالشَّخْصُ الوَحيدُ الَّذي رَآهُ ، لَمْ يُصَدِّقوهُ . لا شَكَّ أَنَّ فرانْكِنشْتاين كانَ عَلى حَقٍّ ، وَلَسَوْفَ يَسْلُكُ المِسْخُ طَريقَهُ إلى الغابةِ حَيْثُ يَموتُ فيها ، وَلَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ شَيْئًا عَنْ ذٰلِكَ .

قَضَيْتُ بَقِيَّةَ أَيّامِ الصَّيْفِ سَعيدًا ؛ إذْ أَقْبَلْتُ عَلى دِراستي بِجِدٍّ ، وَكانَ لا بُدَّ أَنْ أَفْعَلَ ذٰلِكَ حَيْثُ إنَّني كُنْتُ قَدْ أَضَعْتُ فَتْرَةً طَويلةً في مُعاوَنةِ فرانْكِنشْتاين . وَسارَتْ دِراستي سَيْرًا حَسَنًا ، وَحينَما بَدَأَ العامُ الجامِعيُّ في سِبْتمبر كُنْتُ مُسْتَعِدًّا كُلَّ الإسْتِعْدادِ . وَلَمْ أَتَلَقَّ أَيَّ

خَبَرٍ مِنْ فرانْكِنشْتاين ، كَما أَنَّني كِدْتُ أَكُفُّ عَنِ التَّفْكيرِ في هٰذا المَوْضوعِ غَيْرِ المُحَبَّبِ .. مَوْضوعِ المِسْخِ .

وَلٰكِنْ في صَبيحةِ يَوْمِ سَبْتٍ – وَكانَ ذٰلِكَ في أَواخِرِ الشَّهْرِ – كُنْتُ أَشْتَري طَعامًا مِنَ السُّوقِ ، وَوَجَدْتُ نَفْسي أَتَحَدَّثُ إلى حَطّابٍ مُسِنٍّ مِمَّنْ يَعيشونَ في الغابةِ عَلى بُعْدِ حَوالَى عَشَرَةِ كيلو مِتْراتٍ جَنوبيَّ المَدينةِ . وَقالَ الرَّجُلُ فيما قالَ إنَّ هُناكَ قِصَصًا تُرْوى عَنْ أَشْياءَ غَريبةٍ تَحْدُثُ في الغابةِ .. طِفْلٍ يُفْزِعُهُ شَيْءٌ ما عِنْدَ يَنْبوعِ ماءٍ .. وَجْهٍ يُطِلُّ مِنَ نافِذةٍ .. طَعامٍ وَثِيابٍ تُسْرَقُ . وَقالَ الرَّجُلُ إنَّهُ لَمْ يَرَ شَيْئًا بِنَفْسِهِ ، وَلٰكِنَّهُ الْتَقى بِبَعْضِ هٰؤُلاءِ الَّذينَ رَأَوْا . كانَتْ هُناكَ أَقاويلُ عَنْ رَجُلٍ مُتَوَحِّشٍ . ثُمَّ قالَ الرَّجُلُ المُسِنُّ :

« إنَّ الفَلّاحينَ الَّذينَ يَعيشونَ في أَطْرافِ الغابةِ لَمْ يَعودوا يَسْمَحونَ لِأَوْلادِهِمْ بِدُخولِها . وَلٰكِنّا – نَحْنُ الَّذينَ نَعيشُ في الغابةِ – عَلَيْنا أَنْ نَعْمَلَ ، سَواءٌ أَكانَ هُناكَ رِجالٌ مُتَوَحِّشونَ أَمْ لَمْ يَكونوا . »

وَضَحِكْتُ ، وَحاوَلْتُ أَلّا أُظْهِرَ اهْتِمامًا كَبيرًا بِالمَوْضوعِ . وَلٰكِنّي في اليَوْمِ التّالي مُباشَرةً لَبِسْتُ حِذاءً لِلتَّجْوالِ في البَرِّيَّةِ وَحَمَلْتُ عَصايَ في يَدي ، وَغادَرْتُ المَدينةَ في الصَّباحِ الباكِرِ . وَسَلَكْتُ الطَّريقَ الرَّئيسيَّ المُتَّجِهَ إلى الجَنوبِ ، ثُمَّ انْحَرَفْتُ نَحْوَ ذٰلِكَ الجُزْءِ مِنَ الغابةِ الَّذي قالَ الحَطّابُ إنَّ الرَّجُلَ المُتَوَحِّشَ شوهِدَ فيهِ . وَقَضَيْتُ اليَوْمَ كُلَّهُ في التَّحَدُّثِ إلى تِلْكَ القِلَّةِ مِنَ الحَطّابينَ وَصائِدي الطُّيورِ الَّذينَ يُقيمونَ في الغابةِ نَفْسِها . وَلَقَدْ تَبَيَّنَ بِوُضوحٍ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ أَحاديثَ أَنَّ هُناكَ – حَقيقةً – رَجُلًا مُتَوَحِّشًا في الغابةِ ، وَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَحَدٌ مِمَّنْ تَحَدَّثْتُ مَعَهُمْ قَدْ وَاتَتْهُ الفُرْصةُ لِيَقْتَرِبَ مِنْهُ . وَالواقِعُ أَنَّهُ لَمْ يَتَسَبَّبْ في أَيَّةِ مَضَرَّةٍ ، وَلَمْ يُحاوِلْ أَنْ يُهاجِمَ أَحَدًا . وَحينَما يُشاهَدُ ، كانَ دائِمًا يُحاوِلُ أَنْ يَهْرُبَ بَعيدًا ، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلى تَعَقُّبِهِ ؛ وَحَتّى لَوْ تَعَقَّبَهُ لَما اسْتَطاعَ أَنْ يُدْرِكَهُ . إذْ يَبْدو أَنَّهُ كانَ سَريعَ العَدْوِ .

وَهٰكَذا تَأَكَّدَ لي أَمْرٌ واحِدٌ ، وَهُوَ أَنَّ المِسْخَ لَمْ يَمُتْ . وَعُدْتُ إلى إنْغولْشتاد وَقَدْ

عاهَدْتُ نَفْسي عَلى أَنْ أَهْتَدِيَ إلى ٱلمِسْخِ وَأَتَحَدَّثَ إلَيْهِ . أَمّا لِماذا أَرَدْتُ ذٰلِكَ فَإنّي لَمْ أَكُنْ عَلى يَقينٍ مِنْ سَبَبٍ مُعَيَّنٍ ، ٱللّٰهُمَّ إلّا إذا كانَ ٱلسَّبَبُ هُوَ ٱلإحْساسَ بِأَنَّ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ أَوْجَدوهُ مَدينونَ لَهُ بِشَيْءٍ ما . وَلٰكِنْ رُبَّما كانَ هُناكَ سَبَبٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنَّ ٱلمِسْخَ وَلَوْ أَنَّهُ – كَما يَبْدو – غَيْرُ مُؤْذٍ ٱلآنَ ، رُبَّما لا يَظَلُّ كَذٰلِكَ . وَمِنْ ثَمَّ يُصْبِحُ مِنَ ٱلواجِبِ عَلى ٱلبَعْضِ أَنْ يُوَطِّدَ صَداقَةً مَعَهُ ، وَأَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ أَنَّهُ لَنْ يَنْقَلِبَ فَيَكونَ لِلْجِنْسِ ٱلبَشَرِيِّ عَدوًّا .

قَضَيْتُ أَيّامَ ٱلآحادِ ٱلأَرْبَعَةَ ٱلتّالِيَةَ في ٱلبَحْثِ عَنْهُ . كانَتِ ٱلغابَةُ فَسيحَةً ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلمُجْدي أَنْ أَجُولَ في مَمَرّاها ٱلكَثيرَةِ عَلى أَمَلِ أَنْ ٱلْتَقي بِهِ مُصادَفَةً ، وَإنّما رَأَيْتُ مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ أَنْتَظِرَهُ في مَكانٍ ما حَتّى يَقْدَمَ إلَيَّ بِنَفْسِهِ . وَلِذٰلِكَ ، وَلِأَنّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لا بُدَّ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ ، كُنْتُ أَخْتَبِئُ حَيْثُ تَنْمو ٱلفَواكِهُ ٱلبَرِّيَّةُ في ٱلغابَةِ ، وَحَيْثُ عُيونُ ٱلماءِ ٱلَّتي لا يَرِدُها أَحَدٌ . فَقَدْ كانَتْ هِيَ ٱلأَماكِنَ ٱلَّتي يُحْتَمَلُ أَنْ يَطْرُقَها ، وَمَعَ هٰذا فَقَدْ مَرَّتْ فَتْرَةٌ طَويلَةٌ ، لَمْ أُحَقِّقْ فيها أَيَّ نَجاحٍ .

وَحَدَثَ ذاتَ يَوْمٍ في أَوائِلِ شَهْرِ أُكْتوبَرَ وَقَبْلَ أَنْ تَتَساقَطَ جَميعُ أَوْراقِ ٱلأَشْجارِ ، أَنْ

كُنْتُ مُضْطَجِعًا خَلْفَ دَغَلٍ قَريبٍ مِنْ عَيْنِ ماءٍ أَقْرَأُ في كِتابٍ ، وَإذا بي أَسْمَعُ وَقْعَ أَقْدامٍ فَوْقَ ٱلأَوْراقِ ٱلجافَّةِ . وَرَفَعْتُ رَأْسي مُتَطَلِّعًا ، فَرَأَيْتُ أَغْصانَ أَيْكَةٍ عَلى بُعْدِ نَحْوِ خَمْسَةَ عَشَرَ مِتْرًا أَمامي تُدْفَعُ جانِبًا بِواسِطَةِ يَدَيْنِ ضَخْمَتَيْنِ لَوْنُهُما بُنِّيٌّ ، ثُمَّ إذا بِوَجْهٍ يَظْهَرُ . فَتَجَمَّدَ ٱلدَّمُ في عُروقي ؛ إذْ كانَ وَجْهُهُ أَبْشَعَ مِمّا كُنْتُ أَذْكُرُهُ ، وَقُلْتُ لِنَفْسي : هَلْ لَدَيَّ ٱلجُرْأَةُ حَقًّا لِكَيْ أَتَحَدَّثَ إلى هٰذا ٱلمَخْلوقِ ؟ وَتَحَرَّكَتْ أَوْراقُ ٱلشُّجَيْراتِ إلى ٱلوَراءِ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱلرَّجُلُ ٱلمُتَوَحِّشُ أَمامَ ٱليَنْبوعِ . وَمَعَ أَنَّهُ كانَ نَفْسَ ٱلمِسْخِ ٱلَّذي رَأَيْتُهُ في آخِرِ مَرَّةٍ يَغْدو نَحْوَ شَوارِعِ إنْغولْشتاد ، فَقَدْ كانَ هُناكَ بَعْضُ ٱلتَّغَيُّرِ في مَظْهَرِهِ . لَمْ يَكُنْ يَلْبَسُ حِذاءً ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَلْبَسُ بَعْضَ ثِيابٍ وَجَدَها . وَلَمْ تَكُنْ نَظْرَتُهُ وَتَصَرُّفاتُهُ نَظْرَةَ ٱلرَّجُلِ ٱلمُتَوَحِّشِ وَتَصَرُّفاتِهِ تَمامًا . أَمّا ٱلأَمْرُ ٱلغَريبُ فيهِ فَهُوَ أَنَّهُ كانَ يَحْمِلُ سَلَّةً مَمْلوءَةً بِفَواكِهَ بَرِّيَّةٍ ، فَمِنْ أَيْنَ أَتى بِهٰذِهِ ٱلسَّلَّةِ ؟ وَلِماذا لا يَأْكُلُ ٱلفاكِهَةَ مُباشَرَةً مِنَ ٱلأَشْجارِ ؟

وَقَفَ أَمامَ ٱليَنْبوعِ لَحَظاتٍ وَقَدْ مَدَّ نَفْسَهُ إلى ٱلأَمامِ يَتَشَمَّمُ ٱلرّيحَ ، وَمِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ أَنَّها كانَتْ تَهُبُّ في مُواجَهَتي . وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى ٱلتَّنَفُّسِ وَأَنا أُراقِبُهُ وَهُوَ يَرْكَعُ عَلى رُكْبَتَيْهِ لِيَشْرَبَ مِنْ نَبْعِ ٱلماءِ كَما يَفْعَلُ ٱلحَيَوانُ ، ثُمَّ وَقَفَ وَٱلْتَقَطَ سَلَّتَهُ وَعادَ مِنْ نَفْسِ ٱلطَّريقِ ٱلَّذي أَتى مِنْهُ مُهَرْوِلًا .

كُنْتُ قَدْ عَزَمْتُ عَلى ٱلتَّحَدُّثِ إلَيْهِ حَيْثُما كانَ عِنْدَ ٱليَنْبوعِ ، وَلٰكِنَّ وُقوعَ بَصَري عَلى ٱلسَّلَّةِ في يَدِهِ جَعَلَني أُعاوِدُ ٱلتَّفْكيرَ في ٱلأَمْرِ . فَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسي : تُرى إلى أَيْنَ يَأْخُذُ هٰذِهِ ٱلسَّلَّةَ ؟ في أَيِّ كَهْفٍ أَوْ كوخٍ يَعيشُ ؟

لَقَدْ ثارَ حُبُّ ٱلِاسْتِطْلاعِ في نَفْسي ، فَعَزَمْتُ عَلى أَنْ أَقْتَفِيَ أَثَرَهُ بِقَدْرِ ما أَسْتَطيعُ ؛ وَعَلى هٰذا فَإنّي تَرَكْتُهُ يَمْضي حَتّى إذا قَطَعَ بَعْضَ ٱلطَّريقِ خَرَجْتُ مِنْ خَلْفِ ٱلدَّغَلِ وَذَهَبْتُ في أَثَرِهِ .

الفصلُ التّاسعُ

لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ اقْتِفاءُ أَثَرِهِ ، فَقَدْ كانَ يَتَحَرَّكُ في بَعْضِ الأَحْيانِ بِسُرْعةٍ كَبيرةٍ حَتّى إنّني لَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْتَرِبَ مِنْهُ . وَفي أَحْيانٍ أُخرى – حينَما يَبْحَثُ عَنْ فاكِهةٍ – كانَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ شَديدٍ . وَفي بَعْضِ الأَحْيانِ كانَ يَحْدُثُ أَنْ أَزْداد قُرْبًا مِنْهُ حَتّى لَقَدْ كانَتْ هُناكَ مُخاطَرةٌ في أَنْ يَراني . وَمَعَ هٰذا فَإِنَّني – في النِّهايةِ – فَقَدْتُ أَثَرَهُ تَمامًا .

كانَ هٰذا أَمْرًا مُؤْسِفًا ، ذٰلِكَ لِأَنَّني لَمْ أَفْقِدْ أَثَرَهُ فَحَسْبُ ، بَلْ كانَ الوَقْتُ مُتَأَخِّرًا وَأَوْشَكَ اللَّيْلُ أَنْ يَحُلَّ ، إِذْ كُنْتُ قَدْ تَعَقَّبْتُهُ نَحْوَ نِصْفِ ساعةٍ . وَهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي في مِنْطَقةٍ مِنَ الغابةِ لَمْ أَطْرُقْها مِنْ قَبْلُ ، وَبِذٰلِكَ ضَلَلْتُ طَريقي . وَكانَ الطَّقْسُ شَديدَ البُرودةِ ، فَكَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْضيَ اللَّيْلَ في مَكانٍ كَهٰذا في ذٰلِكَ الوَقْتِ مِنَ السَّنةِ ؟ وَلَسَوْفَ أَكونُ سَعيدَ الحَظِّ إذا وَجَدْتُ بَيْتًا أَقْضي فيهِ لَيْلَتي .

عَلى أَيَّةِ حالٍ ، لَمْ يَتَخَلَّ الحَظُّ عَنّي تَمامًا في ذٰلِكَ اليَوْمِ ، إِذْ كانَتْ هُناك مُفاجَأَةٌ تَنْتَظِرُني . ذٰلِكَ أَنَّني بَيْنَما كُنْتُ أَسيرُ نَحْوَ جُزْءٍ مِنَ الغابةِ رَأَيْتُهُ أَكْثَرَ ضَوْءًا أَمامي ، إذا بي أَصِلُ إلى أَرْضِ خَلاءٍ بَيْنَ الأَشْجارِ . وَفي وَسَطِها كُوخٌ خَشَبِيٌّ صَغيرٌ يَتَصاعَدُ مِنْهُ دُخانُ نارٍ وَيَرْتَفِعُ مُسْتَقيمًا في هَواءٍ أُكْتوبَرَ السّاكِنِ . وَقُلْتُ لِنَفْسي : عَلى الأَقَلِّ ، لا بُدَّ أَنْ يَكونَ في المَنْزِلِ مَنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يُخْبِرَني أَيْنَ أَنا ، وَيُرْشِدَني إلى الطَّريقِ .

وَحينَما أَوْشَكْتُ أَنْ أَتَّجِهَ إلى المَنْزِلِ سَمِعْتُ حَفيفًا ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّهُ شَخْصٌ يَتَحَرَّكُ خِلالَ الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الغابةِ ، فَتَوَقَّفْتُ حَيْثُ كُنْتُ . وَبَعْدَ لَحَظاتٍ رَأَيْتُ المِسْخَ يَتَّخِذُ طَريقَهُ حَوْلَ المَنْزِلِ وَالسُّلَّةُ لا تَزالُ في يَدِهِ ، ثُمَّ يَدْخُلُ الحَديقةَ الصَّغيرةَ ، وَيَدْفَعُ البابَ الأَماميَّ فَيَفْتَحُهُ وَيَخْتَفي داخِلَ المَنْزِلِ .

وَجَثَوْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ خَلْفَ بَعْضِ الشُّجَيْراتِ ، وَأَخَذْتُ أَتَأَمَّلُ في المَنْزِلِ . كانَ يَبْدو أَنَّهُ

مُحاطٌ بِرِعايةٍ طَيِّبةٍ ، فَأَمامَهُ حَديقةُ خُضَرٍ يُحيطُ بِها سُورٌ بَسيطٌ ، وَهُناكَ كَمِّيَّةٌ مِنْ خَشَبِ الوَقودِ شُذِّبَتْ بِعِنايةٍ وَصُفَّتْ مُسْتَنِدةً إلى جانِبِ المَنْزِلِ . قُلْتُ لِنَفْسي : لَيْسَ هٰذا مَنْزِلَ مِسْخٍ ، تُرى مَنْ صاحِبُهُ ؟ وَماذا يَفْعَلُ المِسْخُ هُنا ؟

وَبَعْدَ نَحْوِ عَشْرِ دَقائِقَ فُتِحَ البابُ ، وَظَهَرَ المِسْخُ ثانيةً ، وَلَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ ، وَإِنَّما كانَ مَعَهُ هٰذِهِ المَرَّةَ رَجُلٌ مُسِنٌّ وَفَتاةٌ صَغيرةٌ .. فَتاةٌ رائِعةُ الجَمالِ . كُنْتُ أَبْعُدُ عَنْهُم مَسافةً طَويلةً فَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ سَماعِ حَديثِهِمْ ، وَلٰكِنَّ المُؤَكَّدَ أَنَّهُمْ جَميعًا كانُوا يَتَحَدَّثونَ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلى أَنَّ المِسْخَ كانَ يَسْتَطيعُ الكَلامَ . وَبَعْدَ دَقائِقَ قَليلةٍ انْطَلَقَ ثانيةً إلى الغابةِ مُهَرْوِلًا كَما رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ .

انْتَظَرْتُ حَتّى عادَ الرَّجُلُ المُسِنُّ وَالفَتاةُ إلى داخِلِ المَنْزِلِ ، فَاجْتَزْتُ الحَديقةَ وَدَقَقْتُ

جَرسَ ٱلباب ٱلأُماميّ فَفُتِحَ ٱلبابُ . وَوَقَفَتِ ٱلفَتاةُ ٱلَّتي فَتَحَتْهُ أمامي فَقُلْتُ :

« طابَ يَوْمُكِ . إنّني طالِبٌ فَقيرٌ مِنْ إنْغولْشتاد ، وَقَدْ ضَلَلْتُ طَريقي وَأنا أُسيرُ في ٱلغابةِ ، فَهَلْ تَسْتَطيعينَ إخْباري أيْنَ أنا ؟ »

فَٱبْتَسَمَتِ ٱلفَتاةُ في ٱرْتِياب ، وَلٰكِنّها لَمْ تَقُلْ شَيْئًا . فَٱسْتَمْرَرْتُ أقولُ :

« إذا لَمْ تَكُنْ هُناكَ مَشَقَّةٌ عَلَيْكِ فَإنّني أُريدُ أيْضًا جَرْعَةَ ماءٍ أشْرَبُها . »

فَظَلَّتْ صامِتَةً ، وَبَدَأْتُ أتَساءَلُ في نَفْسي : تُرَى أهِيَ مِنْ بَناتِ ٱلرِّيفِ ٱلقُحِّ حَتّى إنَّها لَمْ تَفْهَمْ لَهْجَتي في ٱلحَديثِ ؟ وَلٰكِنها لَمْ تَكُنْ تَبْدو فَتاةً ريفيّةً عَلى ٱلإطْلاقِ .

وَناداها ٱلرَّجُلُ ٱلمُسِنُّ مِنَ ٱلدّاخِلِ : « مَنْ هُوَ يا أغاثا ؟ »

وَهُنا أخَذَتْني ٱلدَّهْشَةُ حَقًّا ، إذْ كانَ يَتَحَدَّثُ بِٱلفَرَنْسيّةِ . فَأجابَتْ : « إنَّهُ طالِبٌ مِنْ إنْغولْشتاد ، وَأظُنُّ أنَّهُ يُريدُ شَيْئًا يَشْرَبُهُ . »

فَقالَ ٱلرَّجُلُ : « إذًا فَلْيَدْخُلْ . إنّ زُوّارَنا هُنا قَليلونَ . قَدِّمي لَهُ ما قَدْ يَكونُ لَدَيْنا مِنْ شَرابٍ . »

تَبِعْتُها إلى داخِلِ ٱلكوخِ حَيْثُ وَجَدْتُ ٱلرَّجُلَ جالِسًا إلى ٱلنّارِ ، وَكانَ هُناكَ فَتًى يَجْلِسُ إلى مِنْضَدةٍ وَهوَ مَشْغولٌ بِٱلكِتابةِ وَحَوْلَهُ كُتُبٌ كَثيرةٌ . وَقَدْ لاحَظْتُ أنّ مُعْظَمَها بِٱللُّغةِ ٱلفَرَنْسيّةِ ، وَكانَ واضِحًا أنَّها لَيْسَتْ أُسْرَةً مِنْ عُمّالِ ٱلغابةِ ٱلبُسَطاءِ .

وَسُرْعانَ ما عَرَفْتُ قِصَّتَهُمْ بِٱلتَّفْصيلِ . كانَ ٱسْمُ ٱلأُسْرَةِ دي لاسي ، وَكانوا فِعْلًا فَرَنْسيّينَ مِنْ باريس ، وَقَدِ ٱضْطُرُّوا إلى ٱلنُّزوحِ مِنْ فَرَنْسا هَرَبًا مِنْ بَعْضِ ٱلقَوانينِ ٱلظّالِمةِ . وَقَدِ ٱسْتَطاعوا بِما حَمَلوهُ مَعَهُمْ مِنْ نُقودٍ قَليلةٍ أنْ يَسْتَقِرُّوا في هٰذِهِ ٱلبُقْعةِ ٱلهادِئةِ ، وَأنْ يَعيشوا عيشةً بَسيطةً مُسْتَمْتِعينَ بِجَمالِ ٱلطَّبيعةِ وَلَذّةِ ٱلدِّراسةِ . وَكانَ دي لاسي ٱلأَبُ ضَريرًا . وَكانَتْ أغاثا وَأخوها فِليكْس يَقْضيانِ مُعْظَمَ أيّامِهِما يَقْرَآنِ عَلَيْهِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ .

جَلَسْنا نَتَحَدَّثُ بَعْضَ الوَقْتِ حَديثًا مُمْتِعًا عَنْ باريس وَجِنيف ، وَلٰكِنّي لَمْ أُنْسَ ٱلسَّبَبَ ٱلحَقيقيَّ لِزيارَتي ، فَبَدَأْتُ أُحَوِّلُ مَوْضوعَ حَديثِنا نَحْوَ ٱلمِسْخِ سائِلًا : « ألا تُحِسُّونَ أبَدًا بِٱلوَحْشةِ هُنا ؟ لا بُدَّ أنْ تَكونَ مَعيشةُ ٱلمَرْءِ بِدونِ أصْدِقاءَ أوْ جيرانٍ أمْرًا شاقًّا . »

فَأجابَ ٱلرَّجُلُ ٱلمُسِنُّ : « الواقِعُ أنَّ لَنا صُحْبَةً صَغيرةً . فَهُناكَ بَعْضُ عابِري ٱلسَّبيلِ مِنَ ٱلحَطّابينَ ٱلَّذينَ يَطْرُقونَ بابَنا بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ . وَلٰكِنّنا لَمْ نَسْتَقْبِلْ زائِرًا هُنا مُنْذُ أسابيعَ . »

وَلَمْ أدْرِ ماذا أقولُ تَعْقيبًا عَلى ذٰلِكَ ، فَقَدْ رَأيْتُ ٱلمِسْخَ بِعَيْنَيَّ يَجيءُ وَيَذْهَبُ . فَهَلْ كانَ ٱلرَّجُلُ ٱلمُسِنُّ يَكْذِبُ ؟ وَإذا كانَ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ فَما يَنْبَغي أنْ أجْعَلَهُ يَبْدو كاذِبًا . فَقُلْتُ :

« رُبَّما لا يَطْرُقُ بابَكُمْ كُلُّ عابِرِ سَبيلٍ ، وَيُخَيَّلُ إلَيَّ أنّني سَمِعْتُ شَخْصًا في ٱلغابةِ في ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنْ مَنْزِلِكُمْ قَبْلَ أنْ آتيَ إلى بابِكُمْ بِفَتْرةٍ وَجيزةٍ . »

فابْتَسَمَتْ أُغاثا وَقالَتْ : « لَمْ يَكُنْ هٰذا عابِرَ سَبيلٍ . إنّه يَعيشُ في كُوخٍ صَغيرٍ خَلْفَ المَنْزِلِ . إنّه شَخْصٌ غَريبُ الأَطْوارِ ، قَبيحُ الوَجْهِ جِدًّا إذا نَظَرْتَ إلَيْهِ ، وَلٰكِنّ هُناكَ شَيْئًا مِنَ الخَيْرِ في داخِلِهِ . إنّهُ يَقْطَعُ الأَخْشابَ لَنا ، وَيَجْمَعُ فَواكِهَ بَرِّيَّةً مِنَ الغابَةِ ، وَأَظُنُّ أَنَّ أَهْلَ الغابَةِ الآخَرينَ يُطْلِقونَ عَلَيْهِ (الرَّجُلَ المُتَوَحِّشَ) وَلٰكِنَّ الواقِعَ أَنَّهُ مُسالِمٌ ؛ إذا كُنْتَ مَعَهُ فَأَنْتَ في غايَةِ الأَمانِ . »

أَضافَ فِليكْس : « رُبَّما يَكونُ مُتَوَحِّشًا ، وَلٰكِنّي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ فَطِنٌ لِلْغايَةِ . فَقَدْ تَعَلَّمَ الفَرَنْسِيَّةَ عَنْ طَريقِ الاِسْتِماعِ إلَيْنا فَقَطْ ، كَما أَنَّهُ يُصْغي إلَيْنا حينَما نَقْرَأُ عَلى والِدِنا . إنّهُ يَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمّا نَتَصَوَّرُ . »

سَأَلْتُ : « وَلٰكِنْ مِنْ أَيْنَ أَتى ؟ هَلْ أَخْبَرَكُمْ أَيْنَ كانَ يَعيشُ مِنْ قَبْلُ ؟ »

أَجابَ فِليكْس : « سَأَلْناهُ ذاتَ مَرَّةٍ ، وَبَدا أَنَّ السُّؤالَ سَبَّبَ لَهُ كَثيرًا مِنَ التَّعاسَةِ وَالأَسى ، وَلِذٰلِكَ لَمْ نُوَجِّهْ إلَيْهِ هٰذا السُّؤالَ مَرَّةً أُخْرى . وَالَّذي يَبْدو أَنَّهُ لا أُسْرَةَ لَهُ وَلا أَصْدِقاءَ سِوانا ، وَأَظُنُّ أَنَّ أُسْرَتَهُ – في أَيّامٍ صِباهُ – كانَتْ تَشْمَئِزُّ مِنْ قُبْحِهِ اشْمِئْزازًا ، لِدَرَجَةِ أَنَّها تَخَلَّصَتْ مِنْهُ وَتَرَكَتْهُ في الغابَةِ لِيَموتَ . إنّني سَمِعْتُ عَنْ أَطْفالٍ مِنْ هٰذا القَبيلِ تَوَلَّتْ رِعايَتَهُمْ حَيَواناتُ الغابَةِ فَظَلّوا أَحْياءً ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ هٰذا هُوَ الَّذي حَدَثَ لَهُ . »

قُلْتُ : « إنّني أَرْجو أَنْ أُقابِلَهُ في وَقْتٍ ما . إنّ قِصَّتَكُمْ عَنْهُ تُشَوِّقُني . وَلي صَديقٌ كانَ لَهُ خادِمٌ قَديمٌ ، وَقَدِ اخْتَفى هٰذا الخادِمُ مُنْذُ فَتْرَةٍ ، فَلَعَلَّهُ ذٰلِكَ الخادِمُ المُخْتَفي . وَأَوَدُّ لَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُخْبِرَ صَديقي أَنَّهُ بِخَيْرٍ فَإِذا عادَ فَإِنّني أَرْجو أَنْ تُخْبِروهُ أَنَّ سَيِّدَهُ فرانْكِنشْتاين يَبْعَثُ إلَيْهِ بِأَطْيَبِ أُمْنِيّاتِهِ ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُساعِدَهُ ، وَلٰكِنَّهُ لا يَعْرِفُ أَيْنَ ذَهَبَ . وَقَدْ عادَ صَديقي إلى جِنيفَ . »

وا أَسَفاه ! لَوْ أَنّني كُنْتُ أَعْلَمُ النَّتائِجَ الَّتي سَتَتَرَتَّبُ عَلى كَلِماتي الَّتي قُلْتُها بِنِيَّةٍ حَسَنَةٍ ، لَما كُنْتُ نَطَقْتُ بِحَرْفٍ مِنِ اسْمِ صَديقي فرانْكِنشْتاين في المَنْزِلِ قَطُّ . وَلٰكِنّ ما قالَهُ

فِليكْس عَنِ الآباءِ وَالأُمَّهاتِ الَّذينَ يَتْرُكونَ أَطْفالَهُمْ لِيَموتوا في الغابَةِ جَعَلَني أُعاوِدُ التَّفْكيرَ في مُعامَلَةِ فرانْكِنشْتاين لِلْمِسْخِ . وَكانَ الأَمَلُ لا يَزالُ يُراوِدُني في حَفْزِهِ عَلى أَنْ يُؤَدّيَ واجِبَهُ نَحْوَهُ .

قالَ الرَّجُلُ المُسِنُّ : « إنَّهُ يُسْعِدُنا أَنْ نَراكَ هُنا في أَيِّ وَقْتٍ ، وَلٰكِنَّ الظَّلامَ قَدْ حَلَّ . فَهَلْ نَسْتَطيعُ أَنْ نُقَدِّمَ لَكَ فِراشًا لِكَيْ تَبيتَ هُنا اللَّيْلَةَ ؟ »

وَمَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إلى نَفْسي مِنْ أَنْ أَقْضيَ مَعَ هٰذِهِ الأُسْرَةِ الطَّيِّبَةِ فَتْرَةً أَطْوَلَ ، فَقَدْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَكونَ بِالجامِعَةِ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي . وَلِهٰذا فَإِنَّ فِليكْس الَّذي يَعْرِفُ مَسالِكَ الغابَةِ جَيِّدًا – حَتّى في الظَّلامِ – عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يُرْشِدَني حَتّى أَصِلَ إلى المَمَرِّ الواسِعِ الَّذي يُؤَدّي إلى طَريقِ العَوْدَةِ . وَهٰكَذا عُدْتُ إلى إنْغولْشتاد في الوَقْتِ المُناسِبِ قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ البَوّابَةُ .

في يَوْمِ الأَحَدِ التّالي كانَ هُناكَ أَمْرٌ شاغِلٌ في الجامِعةِ . كانَ عَلَيْنا أَنْ نَحْضُرَ جَميعًا اجْتِماعًا ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ التَّخَلُّفَ عَنِ الذّهابِ . وَفي يَوْمِ الأَحَدِ الّذي أَعْقَبَهُ أُمْطَرَتِ السَّماءُ بِغَزارةٍ ، فَكانَ مِنَ الجُنونِ أَنْ أَخْرُجَ في ذٰلِكَ اليَوْمِ ، وَلَوْ خَرَجْتُ لَأَغْرَقَني الماءُ المُنْهَمِرُ حَتّى قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إلى بَوّابةِ المَدينةِ . وَهٰكَذا انْقَضَتْ ثَلاثةُ أَسابيعَ قَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ العَوْدةِ إلى الغابةِ . وَبِحُلولِ هٰذا الوَقْتِ كانَتْ أَوْراقُ الأَشْجارِ قَدْ تَحَوَّلَتْ إلى اللَّوْنِ البُنِّيِّ ، وَكانَتْ تَتَساقَطُ سِراعًا . وَلِذٰلِكَ كانَ المَوْقِفُ يَخْتَلِفُ كُلَّ الِاخْتِلافِ عَمّا كانَ عَلَيْهِ حَيْنَما تَعَقَّبْتُ المِسْخَ خِلالَ غابةٍ كانَتْ خَضْراءَ ، وَلَوْ أَنَّ تَعَقُّبي لَهُ كانَ قَدْ حَدَثَ الآنَ لَكانَ قَدْ سَمِعَني أَوْ رَآني ، كَما أَنَّهُ ما كانَ يَسْتَطيعُ تَعَقُّبي دونَ أَنْ أَشْعُرَ بِهِ .

كُنْتُ أَتَوَقَّفُ مِنْ وَقتٍ لِآخَرَ وَأُصْغي لَعَلّي أَسْمَعُ وَقْعَ أَقْدامٍ فَوْقَ الأَوْراقِ الجافّةِ الكَثيفةِ الّتي تُغَطّي الممارَّ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ صَوْتٍ ، وَلِذٰلِكَ كُنْتُ عَلى يَقينٍ أَنَّني وَحْدي .

وَسُرْعانَ ما تَحَوَّلَتْ أَفْكاري مِنَ المِسْخِ إلى أُغاثا . كانَ يَبْدو لي أَنَّ هُناكَ خَطَأً كَبيرًا في أَنَّ فَتاةً صَغيرةً جَميلةً مِثْلَها تَقْبَعُ في هٰذِهِ الغابةِ المُظْلِمةِ لِتَقْضِيَ فيها حَياتَها حَيْثُ لا يَراها أَحَدٌ . لَقَدْ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّني عَرَفْتُ عَنْها أَكْثَرَ مِمّا عَرَفْتُ ، وَلِذٰلِكَ عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَطْلُبَ مِنْها وَمِنْ أُخيها أَنْ يَزوراني في إنْغولْشتاد يَوْمًا ما .

كانَتْ هٰذِهِ الأَفْكارُ البَهيجةُ تُراوِدُني وَأَنا أَسيرُ مُهْتَديًا بِالمَمَرِّ لِكَيْ يَقودَني إلى الأَرْضِ الخَلاءِ حَيْثُ كوخُ أُسْرةِ دي لاسي ، وَهُناكَ تَوَقَّفْتُ كَما لَوْ كُنْتُ صَحَوْتُ مِنْ حُلْمٍ .

كانَ أَوَّلَ ما طَرَأَ في ذِهْني مِنَ الأَفْكارِ هُوَ أَنَّني سَلَكْتُ طَريقًا خاطِئًا . وَأَنّي – لِذٰلِكَ – وَصَلْتُ خَطَأً إلى مَكانٍ في الغابةِ غَيْرِ المَكانِ . وَنَظَرْتُ ثُمَّ نَظَرْتُ ، وَالرُّعْبُ في قَلْبي يَتَزايَدُ ، وَلٰكِنَّني تَحَقَّقْتُ أَنَّني لَمْ أُخْطِئِ الطَّريقَ . هٰذا هُوَ المَكانُ بِعَيْنِهِ ، وَلٰكِنْ أَيْنَ

الكوخُ ؟ لَقَدْ ذَهَبَ ، وَأَصْبَحَ المَكانُ الّذي كانَ يَشْغَلُهُ بِضْعَةَ جُدْرانٍ حَجَريّةٍ مُنْخَفِضةٍ ، وَكَمِّيّاتٍ كَبيرةٍ مِنَ الخَشَبِ المُتَفَحِّمِ . لَقَدْ أَصْبَحَ المَنْزِلُ كُلُّهُ رُكامًا دَمَّرَتْهُ النّيرانُ .

لَسْتُ أَدْري كَمْ مِنَ الوَقْتِ قَضَيْتُ وَأَنا واقِفٌ أُحَدِّقُ في المَنْظَرِ الرَّهيبِ . كانَ أَشْبَهَ بِحُلْمٍ . وَلٰكِنْ أَيُّهما كانَ الحُلْمَ ؟ أَهُوَ زِيارَتي الّتي قُمْتُ بِها لِهٰذا المَنْزِلِ مُنْذُ أَسابيعَ ثَلاثةٍ ؟ أَمْ هُوَ وُقوفي أَمامَ الأَطْلالِ المُحْتَرِقةِ ؟ كُلُّ شَيْءٍ أَصْبَحَ يَبْدو كَالخَيالِ ، وَكَمْ كانَ شاقًّا عَلى نَفْسي أَنَّني أَرْغَمْتُها على التَّقَدُّمِ نَحْوَ بَقايا المَنْزِلِ .

كانَ المَنْزِلُ مُشَيَّدًا مِنَ الخَشَبِ في مُعْظَمِهِ ، وَلِذٰلِكَ لا بُدَّ أَنَّهُ هَوى مُحْتَرِقًا عَلى عَجَلٍ . وَلٰكِنْ ، إذا كانَتِ النّارُ قَدْ بَدَأَتْ تَلْتَهِمُهُ في اللَّيْلِ وَأَفْرادُ أُسْرةِ دي لاسي نائِمونَ ، فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهُمْ قَدْ ماتوا مُحْتَرِقينَ . أَمّا بِالنِّسْبةِ لِلْمِسْخِ فَهَلْ ماتَ مَعَ الأُسْرةِ ؟ أَمْ أَنَّهُ فَرَّ مِنْهُمْ فَنَجَوْا جَميعًا ؟ إنَّ الكوخَ الّذي خَلْفَ المَنْزِلِ وَالّذي يُقيمُ فيهِ المِسْخُ لَمْ يُصِبْهُ الحَريقُ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ يَظْهَرُ فيهِ أَيُّ أَثَرٍ لِلْحَياةِ . تُرى أَهُمْ جَميعًا أَحْياءٌ أَمْ أَمْواتٌ ؟

ظَلَلْتُ أُرَدِّدُ هٰذا التَّساؤُلَ في ذِهْني تَهَرُّبًا مِنْ مُواجَهةِ الطَّريقةِ الوَحيدةِ المُؤَكَّدةِ لِلإِجابةِ عَنْهُ ، وَأَعْني بِها البَحْثَ وَالتَّنْقيبَ في أَنْقاضِ المَنْزِلِ ، وَلٰكِنّي أَخيرًا أَيْقَنْتُ أَنَّ هٰذا واجِبٌ لا بُدَّ أَنْ أُؤَدّيَهُ . كانَ السَّقْفُ قَدْ خَرَّ وَغَطّى كُلَّ شَيْءٍ وَلِذٰلِكَ اتَّجَهْتُ إلى حَديقةِ الخُضَرِ

لِأَبْحَثَ فيها عَنْ شَيْءٍ أَحْفِرُ بِهِ . وَشَرَعْتُ في الحَفْرِ وَأَنا أَدْعو اللهَ أَلّا أَجِدَ بَيْنَ الأَنْقاضِ ما كُنْتُ أَخْشى أَنْ أَجِدَهُ . جَرَّبْتُ التَّنَقيبَ في بُقْعَتَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ ، فَلَمْ أَجِدْ أَسْوَأَ مِنْ بِضْعَةِ كُتُبٍ نِصْفِ مُحْتَرِقَةٍ ، وَبَعْضِ الأَطْباقِ المُهَشَّمَةِ ، فَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ مِنَ الِارْتِياحِ . وَقُلْتُ في نَفْسي : لَعَلَّهُمْ تَمَكَّنوا مِنَ النَّجاةِ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ . ثُمَّ انْتَقَلْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى الجُزْءِ الخَلْفِيِّ مِنَ المَنْزِلِ ، وَبَدَأْتُ بِرَفْعِ جُزْءٍ مِنَ السَّقْفِ بِيَدي ؛ وَإِذا بي أَجِدُ تَحْتَهُ ما قَذَفَ في قَلْبي مِنَ الرُّعْبِ ما لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَنْساهُ حَتّى اليَوْمِ وبَعْدَ انْقِضاءِ خَمْسينَ عامًا ، فَهُوَ لا يَزالُ ماثِلًا أَمامي كَأَنَّما حَدَثَ بِالأَمْسِ ، وَكَما ظَلَّ دائِمًا في مُخَيِّلَتي . إِذا بي أَجِدُ ذِراعًا آدَمِيَّةً جامِدَةً تُطِلُّ مِنْ خِلالِ كَوْمَةٍ مِنَ الأَنْقاضِ المُحْتَرِقَةِ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ في أَحَدِ أَصابِعِها النَّحيلَةِ خاتَمٌ . كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ هٰذا الخاتَمَ مِنْ قَبْلُ ، رَأَيْتُهُ في اليَدِ الَّتي فَتَحَتْ لي بابَ الكُوخِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَسابيعَ . لَقَدْ كانَتْ يَدَ أَغاثا .

وَعَدَوْتُ إِلى الغابَةِ وَأَنا أُطْلِقُ صَيْحَةً طَويلَةً أَلِيمَةً . عَدَوْتُ وَأَنا لا أَدْري – وَلا أُبالي – أَيْنَ أَذْهَبُ . كُلُّ ما كُنْتُ أَرْجو ساعَتَئِذٍ هُوَ أَنْ أَنْسى نَفْسي وَأَفْكاري وَأَنا أَهيمُ عَلى وَجْهي بَيْنَ الأَشْجارِ . لَقَدْ حَدَثَ ما كُنْتُ أَخْشاهُ ، إِذْ لا بُدَّ أَنَّ أَفْرادَ الأُسْرَةِ جَميعًا قَدِ اتَّهَمَتْهُمُ النِّيرانُ . وَلٰكِنْ ، ماذا عَنِ المِسْخِ ؟ هَلْ ماتَ أَيْضًا مَعَ الأُسْرَةِ الَّتي اتَّخَذَتْهُ صَديقًا لَها ؟

احْتِمالاتٌ بَشِعَةٌ لا حَصْرَ لَها أَخَذَتْ تَجولُ في ذِهْني ، وَلَمْ أَكُنْ أُريدُ أَنْ أُشْغِلَ تَفْكيري بِأَيٍّ مِنْها ، فَأَخَذْتُ أُواصِلُ الجَرْيَ في مَمَرِّ الغابَةِ حَتّى تَقَطَّعَتْ أَنْفاسي ، وَبَلَغَ مِنِّيَ التَّعَبُ ما بَلَغَ ، وَأَخيرًا وَصَلْتُ إِلى طَريقِ إِنْغولْشتاد .

في اليَوْمِ التّالي كَتَبْتُ رِسالَةً إِلى فرانْكِنِشْتاين رَوَيْتُ لَهُ فيها كُلَّ ما وَقَعَ مِنْ أَحْداثٍ ، وَقُلْتُ فيها :

« لا يَسَعُني إِلّا الِافْتِراضُ أَنَّ المِسْخَ قَدْ ماتَ في الحَريقِ ، فَإِذا كُنْتَ تُحِسُّ أَنَّكَ ارْتَكَبْتَ

خَطَأً إِذْ أَوْجَدْتَهُ ، وَأَنَّني ارْتَكَبْتُ خَطَأً إِذْ بَحَثْتُ عَنْهُ في الغابَةِ ، فَإِنَّ مَوْتَهُ يَمْحو كُلَّ أَخْطائِنا . »

لَمْ يَرُدَّ فرانْكِنِشْتاين عَلى رِسالَتي ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَعْتَبِرْ ذٰلِكَ تَصَرُّفًا غَيْرَ عادِيٍّ مِنْهُ ، فَأَنا أَعْلَمُ أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ مَشْغولًا بِمُواجَهَةِ شُؤونِ الأُسْرَةِ بَعْدَ أَنْ تَغَيَّبَ عَنْ مَوْطِنِهِ فَتْرَةً طَويلَةً . وَإِلى جانِبِ هٰذا ، لَمْ يَكُنْ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يَكْتُبَ رِسالَةً إِلّا إِذا كانَ لَدَيْهِ شَيْءٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكْتُبَ عَنْهُ . وَلٰكِنَّ الأَمْرَ الَّذي حَيَّرَني قَليلًا هوَ أَنَّ إِليزابيث لَمْ تَكْتُبْ إِلَيَّ مَعَ أَنَّها كانَتْ قَدْ بَعَثَتْ إِلَيَّ بِعِدَّةِ رَسائِلَ مِنْ قَبْلُ .

وَلَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَنْسى ما وَقَعَ مِنْ أَحْداثٍ في الغابَةِ عَنْ طَريقِ شَغْلِ نَفْسي بِالعَمَلِ الجادِّ . وَإِذا لَمْ أَكُنْ حَقَّقْتُ نَجاحًا في النِّسْيانِ ، فَإِنَّني – عَلى الأَقَلِّ – حَقَّقْتُ في دِراستي نَجاحًا طَيِّبًا . وَقَدْ شَجَّعَني هٰذا عَلى بَذْلِ مَزيدٍ مِنَ الجَهْدِ لِتَحْقيقِ مَزيدٍ مِنَ النَّجاحِ ، وَعَزَمْتُ عَلى أَنْ أَقْضيَ في إِنْغولْشتاد العُطْلَةَ كُلَّها لِكَيْ أَعْمَلَ في أَثْنائِها بِجِدٍّ . وَعَلى أَيَّةِ حالٍ ، فَقَدْ تَلَقَّيْتُ في أَوَّلِ ديسمْبر رِسالَةً مِنْ أَبي تَحْمِلُ إِلَيَّ أَغْرَبَ الأَنْباءِ وَأَبْشَعَها . إِنَّ وِلْيام – الأَخَ الصَّغيرَ لِصَديقي – قَدْ قُتِلَ .

كانَ الأَمْرُ في ذاتِهِ مِنَ الصَّعْبِ تَصْديقُهُ ، وَلٰكِنْ حينَما مَضى أَبي يَقولُ في رِسالَتِهِ إِنَّ الَّتي قَتَلَتْهُ هيَ جوسْتين مُورِيتْز – الفَتاةُ نَفْسُها الَّتي كانَ مَعْهودًا إِلَيْها رِعايَتُهُ – بَدَأْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَبي قَدْ أَصابَهُ مَسٌّ مِنَ الجُنونِ . وَمَعَ ذٰلِكَ ، فَإِنَّ قُصاصَةً مِنْ صَحيفَةٍ جَنيفَ – كانَ أَبي قَدْ بَعَثَ بِها مَعَ الرِّسالَةِ – رَوَتْ نَفْسَ القِصَّةِ ، وَقَدْ أَلْفَتُ بَيْنَ ما جاءَ في القُصاصَةِ وَما جاءَ في رِسالَةِ أَبي في مُحاوَلَةٍ لِكَيْ أَعْرِفَ القِصَّةَ كامِلَةً . فَكانَتِ الحَصيلَةُ كَما يَلي :

كانَ ذٰلِكَ بَعْدَ ظُهْرِ يَوْمٍ في أَوائِلِ نوفِمْبر ، ففي هٰذا اليَوْمِ خَرَجَتْ جوسْتين وَمَعَها الطِّفْلُ لِلتَّريُّضِ قُرْبَ مَنْزِلِ فرانْكِنِشْتاين الرِّيفِيِّ في بلْريف . كانَ وِلْيام يَلْبَسُ حَوْلَ عُنُقِهِ سِلْسِلَةً ذَهَبِيَّةً ثَقيلَةَ الوَزْنِ تَتَدَلّى مِنْها صورَةٌ صَغيرَةٌ لِأُمِّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ المُسْتَحَبِّ لِطِفْلٍ

صَغيرٍ في مِثْلِ سِنِّهِ أَنْ يَلْبَسَ حِلْيَةً كَهٰذِهِ عِنْدَ ٱلخُروجِ لِلتَّرِيُّضِ . وَلٰكِنَّهُ أَخَذَ يُلِحُّ كَثيرًا حَتّى وافَقَتْ إليزابيث عَلى أَنْ يَلْبَسَها هٰذِهِ ٱلمَرَّةَ فَحَسْبُ بِما أَنَّهُ وَعَدَ أَنْ يَحْرِصَ عَلَيْها .

وَيَبْدو أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّلْسِلَةَ كانَتِ ٱلسَّبَبَ في مَوْتِهِ ، فَقَدْ أَخَذَتْهُ جوسْتين إلى داخِلِ ٱلغابَةِ وَأَطْبَقَتْ بِيَدَيْها عَلى عُنُقِهِ حَتّى ماتَ . ثُمَّ فَرَّتْ هارِبَةً بِٱلسِّلْسِلَةِ ٱلذَّهَبِيَّةِ حَتّى بَلَغَتْ مَدينَةَ ثُونُون حَيْثُ أُلْقِيَ ٱلقَبْضُ عَلَيْها .

وَقالَ أَبي في نِهايَةِ ٱلرِّسالَةِ :

« وَكُلُّنا نَأْمُلُ أَنْ تَلْقى عِقابَها بِيَدِ سُلُطاتِ ٱلمَدينَةِ ، كَما أَنَّها سَوْفَ تَنالُ جَزاءَها حَتْمًا بِيَدِ ٱللهِ . »

جَلَسْتُ في مَقْعَدي تَنْتابُني ٱلأَفْكارُ . وَقَرَأْتُ ٱلرِّسالَةَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِأُتَأَكَّدَ أَنَّني لَمْ أُخْطِئْ فَهْمَ شَيْءٍ ، وَمَعَ أَنَّ ٱلأَمْرَ كانَ في غايَةِ ٱلوُضوحِ فَقَدْ كُنْتُ عاجِزًا عَنْ تَصْديقِهِ . أَنا أَعْرِفُ جوسْتين . أَعْرِفُ أَنَّها كانَتْ فَتاةً عَطوفًا وَدودًا ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ مَنَحَتْهُ مِنَ ٱلحُبِّ قَدْرَ ما مَنَحَتِ ٱلصَّغيرَ وِلْيام ، رُبَّما باسْتِثْناءِ ڤيكْتور . وَقُلْتُ لِنَفْسي : لا ، لا بُدَّ أَنْ يَكونَ هُناكَ خَطَأٌ ما . وَمَعَ أَنَّ ٱلقُضاةَ لا بُدَّ أَنْ يَكونوا قَدْ أَصْدَروا حُكْمًا عَلى ٱلفَتاةِ ٱلمِسْكينَةِ ، فَقَدْ قَرَّرْتُ أَنْ أَعودَ إلى جِنيف في ٱلحالِ لِأَرى ما يُمْكِنُ تَقْديمُهُ مِنْ عَوْنٍ ، سَواءٌ لَها ، أَمْ لِآلِ فرانْكِنشْتاين .

الفَصْلُ ٱلحادي عَشَرَ

وَصَلْتُ إلى جِنيف بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ ، وَكانَتِ ٱلسّاعَةُ حَوالَى ٱلتّاسِعَةِ صَباحًا . وَلَمّا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ٱلبَوّابَةَ سَتَكونُ قَدْ أُغْلِقَتْ قَبْلَ أَنْ أَسْتَطيعَ ٱلوُصولَ إلى ٱلمَدينَةِ ، فَقَدْ آثَرْتُ أَنْ أَقْضِيَ ٱللَّيْلَةَ ٱلسّابِقَةَ في مَدينَةِ نيون ٱلقَريبَةِ مِنْها ، ثُمَّ أَخَذْتُ زَوْرَقًا بِمُحاذاةِ ٱلشّاطِئِ ٱلشَّمالِيِّ لِلْبُحَيْرَةِ حَتّى جِنيف .

لَمْ يَكُنِ ٱلمَكانُ ٱلَّذي تُرْسو فيهِ ٱلسُّفُنُ يَبْدو كَثيرَ ٱلنَّشاطِ وَٱلحَرَكَةِ بِٱلنِّسْبَةِ لِهٰذا ٱلوَقْتِ مِنَ ٱليَوْمِ ، وَلٰكِنَّ هٰذا – في ذاتِهِ – لَمْ يُثِرْ دَهْشَتي . أَمّا ٱلَّذي كانَ مَوْضِعَ ٱلدَّهْشَةِ فَهُوَ أَنَّني حينَما ٱجْتَزْتُ بَوّابَةَ ٱلمَدينَةِ ، لاحَظْتُ أَنَّ ٱلشَّوارِعَ خالِيَةٌ مَعَ أَنَّ ٱلجَوَّ كانَ صافِيًا مُشْرِقًا بِٱلنِّسْبَةِ لِهٰذا ٱلوَقْتِ مِنَ ٱلسَّنَةِ . وَكانَ ٱلمَفْروضُ أَنْ يَكونَ جَميعُ عُمّالِ ٱلمَدينَةِ ٱلكادِحينَ في أَعْمالِهِمْ في هٰذا ٱلوَقْتِ ، وَلٰكِنَّ ٱلواقِعَ كانَ غَيْرَ ذٰلِكَ ، فَأَيْنَما نَظَرْتَ لَمْ تَكُنْ تَجِدُ

أَحَدًا . حَتَّى ٱلْحَوانيتُ وَٱلْمَكاتِبُ كانَتْ مُغْلَقَةً ، وَقَدْ ظَنَنْتُ في ٱلْبِدايةِ أَنِّي مُخْطِئٌ في مَعْرِفةِ ٱلْيَوْمِ ، وَلٰكِنَّ قَليلًا مِنَ ٱلتَّفْكيرِ كانَ كافيًا لِكَيْ أَعْرِفَ أَنَّني لَسْتُ مُخْطِئًا ، فَٱلْيَوْمُ لَمْ يَكُنْ يَوْمَ أَحَدٍ ، أَوْ يَوْمَ عُطْلَةٍ عامَّةٍ .

وَسُرْعانَ ما لاحَظْتُ شَيْئًا آخَرَ ، فَقَدْ كانَ ٱلْقَليلونَ مِنَ ٱلنّاسِ ٱلَّذينَ تَقَعُ عَلَيْهِمُ ٱلْعَيْنُ في ٱلشَّوارِعِ يَسيرونَ في ٱتِّجاهٍ واحِدٍ .. في ٱتِّجاهِ ٱلْجانِبِ ٱلْمُقابِلِ مِنَ ٱلْمَدينةِ . وَكانوا مُتَعَجِّلينَ في سَيْرِهِمْ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُمْ لا بُدَّ أَنْ يَكونوا في طَريقِهِمْ إِلى بْلينْباليه ، وَهِيَ مِساحةٌ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱلْخَلاءِ ٱلْمُنْبَسِطةِ تَقَعُ في ٱلْجانِبِ ٱلْأَقْصى مِنْ نَهْرِ آرْفي ، حَيْثُ يَذْهَبُ رِجالُ ٱلْمَدينةِ لِلتَّدْريبِ ٱلْعَسْكَريِّ في صَباحِ أَيّامِ ٱلْأَحَدِ . ثُمَّ إِنَّهُ – وَقَدْ تَذَكَّرْتُ ذٰلِكَ فَجْأَةً فَأَصابَني ٱلْهَلَعُ – ٱلْمَكانُ ٱلَّذي تُعَلَّقُ فيهِ ٱلْمِشْنَقَةُ لِتَنْفيذِ أَحْكامِ ٱلْإِعْدامِ .

أَخَذْتُ أَغْدو عَبْرَ ساحةِ ٱلسُّوقِ ٱلْقَديمةِ إِلى ٱلشّارِعِ ٱلَّذي يَقَعُ فيهِ مَقَرُّ ٱجْتِماعاتِ حُكومةِ ٱلْمَدينةِ ، حَتَّى وَصَلْتُ وَأَنا أَلْهَثُ إِلى حَيْثُ وَجَدْتُ حَشْدًا كَبيرًا مِنَ ٱلنّاسِ تَجَمَّعوا صامِتينَ عِنْدَ أَسْوارِ ٱلْمَدينةِ . وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَرى شَيْئًا مِنْ مَوْقِعي ، فَتَسَلَّقْتُ نافِذةَ أَحَدِ ٱلْمَنازِلِ ، وَتَطَلَّعْتُ فَإِذا خَلْفَ ٱلْأَسْوارِ حَشْدٌ أَكْبَرُ . جَميعُ سُكّانِ جِنيڤ كانوا مُتَجَمْهِرينَ ، بَلْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ ، لِأَنَّهُ كانَ هُناكَ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْمُدُنِ ٱلصَّغيرةِ وَٱلْقُرى ٱلْمُجاوِرةِ .

وَسْطَ ٱلْحَشْدِ كانَتْ هُناكَ مِنَصَّةٌ خَشَبِيَّةٌ مَنْصوبةٌ . وَفي وَسَطِها عَمودٌ يَتَدَلّى مِنْهُ حَبْلٌ ، وَبَيْنَ ٱلرِّجالِ ٱلْقَليلينَ ٱلَّذينَ يَقِفونَ هُناكَ فَتاةٌ في ثَوْبٍ أَسْوَدَ ، وَمَعَ أَنَّ ٱلْمَسافةَ بَيْني وَبَيْنَها طَويلةٌ فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّها جوسْتين .

لَمْ يَكُنْ هٰذا ٱلْحَشْدُ شَبيهًا بِأَيِّ حَشْدٍ آخَرَ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ . فَمَعَ أَنَّهُ كانَ حَشْدًا ضَخْمًا ، فَقَدْ كانَ مِمّا يَدْعو إِلى ٱلْاِسْتِغْرابِ ، بَلْ مِمّا يُثيرُ ٱلْهَلَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحْدِثُ ضَجَّةً كَبيرةً . كانَ ٱلْجَوُّ مُشْبَعًا بِٱلْكَراهيَةِ ؛ كانوا يُريدونَ لِهٰذِهِ ٱلْفَتاةِ ٱلْمِسْكينةِ ٱلْمُرْتَعِبةِ ٱلَّتي تَتَشَبَّثُ

بِٱلسَّوادِ أَنْ تَموتَ ؛ وَكانَتْ قَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَموتَ فِعْلًا . وَحينَما تُلِيَتْ آخِرُ صَلاةٍ ، وَما إِنْ وُضِعَ ٱلْحَبْلُ حَوْلَ عُنُقِها حَتّى قَفَزْتُ مِنْ مَكاني بِٱلنّافِذةِ إِلى ٱلْأَرْضِ . كانَتْ عَيْنايَ تَفيضانِ بِٱلدُّموعِ ، وَلَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ رُؤْيةَ هٰذا ٱلْمَشْهَدِ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا بَعيدًا عَنِ ٱلْجَماهيرِ ، لَعَلّي أَجِدُ بَعْضَ ٱلْهُدوءِ وَٱلسَّكينةِ في شارِعِ دِي غرانغ . لَمْ أَكُنْ قَدِ ٱبْتَعَدْتُ حينَما سَمِعْتُ صَيْحاتِ ٱبْتِهاجٍ عَميقةً تَرْتَفِعُ مِنْ بَيْنِ ٱلْجَماهيرِ ، فَأَدْرَكْتُ مِنْها أَنَّ جوسْتين لَمْ تَعُدْ في عِدادِ ٱلْأَحْياءِ ؛ فَتَوَقَّفْتُ ، وَٱسْتَنَدْتُ بِيَدي إِلى جِدارِ مَنْزِلٍ قَريبٍ . وَفَجْأَةً شَعَرْتُ أَنَّني مَريضٌ .

وَبَيْنَما كُنْتُ أَقِفُ في ٱلشّارِعِ ٱلْخالي لِأَسْتَجْمِعَ أَفْكاري ، تَنَبَّهْتُ إِلى أَنَّ ٱلْمَنْزِلَ ٱلَّذي أَسْتَنِدُ إِلى جِدارِهِ مَأْلوفٌ لَدَيَّ . فَلَقَدْ كانَ هُوَ مَنْزِلَ فرانْكِنِشْتاين في ٱلْمَدينةِ ، فَدَلَفْتُ نَحْوَ ٱلْبابِ ٱلْأَماميِّ لِأَجِدَ أَنَّهُ مَفْتوحٌ قَليلًا ، فَاتَّخَذْتُ طَريقي إِلى ٱلدّاخِلِ . وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ مِنَ ٱلْخَدَمِ في ٱلْبَهْوِ ، فَنادَيْتُ وَلٰكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ هادِئًا . وَقُلْتُ لِنَفْسي : هَلْ ذَهَبَ كُلُّ امْرِئٍ لِيَشْهَدَ ٱلشَّنْقَ ؟

وَبِاعْتِبارِ أَنَّني صَديقٌ مُقَرَّبٌ لِلْأُسْرَةِ أَعْطَيْتُ نَفْسي حُرِّيَّةَ ٱلصُّعودِ إِلى ٱلطّابَقِ ٱلْأَعْلى ، وَإِذْ وَجَدْتُ بابَ حُجْرةِ صَديقي مَفْتوحًا دَخَلْتُها .

في مَبْدَإِ ٱلْأَمْرِ ظَنَنْتُ أَنَّ ٱلْحُجْرةَ خاليةٌ كَبَقِيَّةِ ٱلْمَنْزِلِ ، وَلٰكِنَّني لَمَحْتُ شَخْصًا جاثِيًا عَلى رُكْبَتَيْهِ في أَحَدِ ٱلْأَرْكانِ وَوَجْهُهُ يَكادُ يَلْتَصِقُ بِٱلْجِدارِ . كانَ في صَمْتِهِ وَسُكونِهِ كَأَنَّما هُوَ مَيِّتٌ ، فَنادَيْتُ بِهُدوءٍ : « ڤيكْتور ! »

فَلَمْ يُجِبْ ، فَبَدَأْتُ أُفَكِّرُ في أَنَّهُ مَيِّتٌ فِعْلًا . فَتَقَدَّمْتُ مِنْهُ ، وَأَمْسَكْتُ بِهِ وَجَذَبْتُهُ بَعيدًا عَنِ ٱلرُّكْنِ . كانَ وَجْهُهُ مُخْضَلًّا بِٱلدُّموعِ . فَقُلْتُ لَهُ : « ڤيكْتور ، إِنَّني هَنْري . لَقَدْ عُدْتُ مِنْ إِنْغولْشتاد لِأُساعِدَكَ . »

وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ كَما هُوَ ، لا صَوْتَ وَلا حَرَكةَ ، فَقُلْتُ ثانيةً : « لِأُساعِدَكَ . »

أخيرًا قالَ : « هَيْهاتَ أَنْ تُجْدِيَ ٱلْمُساعَدةُ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « لَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ مِنّا لا تُجْدِيهِ ٱلْمُساعَدةُ . »

وَلَمْ أَمْلِكْ إِلّا أَنْ أُضيفَ : « فيما عَدا جوسْتين ٱلمِسْكينة . »

لَمْ أَكَدْ أَنْطِقُ بِٱسْمِها حَتّى خَرَجَتْ مِنْ فرانْكِنشْتاين صَيْحةٌ أَليمةٌ وَقالَ :

« لَمْ أَسْتَطِعْ مُساعَدتَها . لَقَدْ حاوَلْتُ ، وَيَعْلَمُ اللهُ كَمْ حاوَلْتُ جاهِدًا ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يُصْغوا إِلَيَّ . لَقَدْ أَخْبَرْتَهُمْ مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ مَنِ ٱلّذي قَتَلَ وِلْيام ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ دَليلٌ ، وَأَخيرًا ظَنُّوا أَنّي مَجْنونٌ . »

فَقُلْتُ : « إِذًا فَلَمْ تَكُنْ جوسْتين هيَ ٱلّتي قَتَلْتَهُ ؟ »

أَجابَ : « كَيْفَ يَخْطُرُ بِبالِكَ مِثْلُ هٰذا ٱلخاطِرِ ؟ هٰذِهِ ٱلفَتاةُ ٱلجَميلةُ ٱلصَّغيرةُ ! »

ثُمَّ تَهَدَّجَ صَوْتُهُ وَهوَ يَقولُ : « لَقَدْ كُنْتَ تَعْرِفُها ، وَهٰذا يَكْفي . »

فَسَأَلْتُهُ : « إِذًا فَمَنِ ٱلّذي قَتَلَهُ ؟ »

أَجابَ : « أَتُراكَ في حاجةٍ لِلسُّؤالِ ؟! إِنَّهُ هُوَ ! »

قُلْتُ : « هُوَ ؟! »

فَأَجابَ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ! الشَّخْصُ ٱلّذي أَوْجَدْتُهُ وَوَهَبْتُ لَهُ ٱلحَياةَ . وَٱلّذي تَعَقَّبَني إِلى هُنا لِيُحَطِّمَ سَعادَتي . »

قُلْتُ في نَفْسي : ٱلمِسْخُ تَعَقَّبَهُ إِلى هُنا ؟ لَمْ يَمُتْ في ٱلحَريقِ — إِذًا — مَعَ أُسْرةِ دي لاسي !

بَدَأْتُ أُدْرِكُ ٱلمَأْساةَ ٱلّتي حَدَثَتْ بِكُلِّ ما فيها مِنْ بَشاعةٍ . كُنْتُ قَدْ أَخْبَرْتُ أُسْرةَ دي لاسي أَيْنَ كانَ فرانْكِنشْتاين يُقيمُ . وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُمْ أَخْبَروا ٱلمِسْخَ بِمَكانِهِ . لَقَدْ جاءَ دَوْري ٱلآنَ لِأُحِسَّ نَفْسَ إِحْساسِ فرانْكِنشْتاين . أَحقًّا كُنْتُ ٱلسَّبَبَ في مَوْتِ ٱثْنَيْنِ لَمْ يُصيبا أَيَّ مَخْلوقٍ بِأَذًى ؟ وَعادَتْ بي ٱلذِّكْرى . لَقَدْ شَعَرْتُ يَوْمًا بِالأَسَفِ عَلى هٰذا ٱلمَخْلوقِ ، لِماذا حَمَلْتُ نَفْسي عَلى ٱلبَحْثِ عَنْهُ في ٱلغابةِ ؟ لَيْتَني ما فَعَلْتُ . وَهٰكَذا غَدَتْ فِكْرةُ أَنّي كُنْتُ ٱلسَّبَبَ في كُلِّ هٰذِهِ ٱلمَآسي أَكْثَرَ مِمّا أَحْتَمِلُ .

كُنْتُ قَدْ أَخْبَرْتُ فرانْكِنشْتاين في رِسالتي عَنْ أَوَّلِ زيارةٍ لي لِأُسْرةِ دي لاسي ، وَٱلآنَ أَخْبَرْتُهُ مَرّةً ثانيةً عَنِ ٱلحَريقِ وَعَنْ نِهايَتِهِمُ ٱلبَشِعةِ ، وَلَمْ يَكُنْ هٰذا ، عَلى ٱلأَقَلِّ ، يَدينُني بِشَيْءٍ . ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ كَيْفَ أَنَّ كَلِماتي لِآلِ دي لاسي هِيَ ٱلَّتي قادَتِ ٱلمِسْخَ إِلى جِنيڤ .

كانَ صَديقي يُصْغي إِلَيَّ في سُكونٍ ، وَلٰكِنْ كانَ مِنَ ٱلواضِحِ ، حَتّى قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُ أَنّي كُنْتُ ٱلسَّبَبَ في هٰذِهِ ٱلشُّرورِ .

قالَ فرانْكِنشْتاين : « إِنَّهُ شَيْطانٌ ذَكِيٌّ ، وَمِنَ ٱلمُؤَكَّدِ أَنَّهُ كانَ — عاجِلًا أَوْ

آجلًا – سَيعْرِفُ طَريقَهُ إلَيّ بِدونِ مَعونَتِكَ . ثِقْ بِما أقولُ ، أنا أعْلَمُ أنَّكَ كُنْتَ حَسَنَ النِّيّةِ ، وَلٰكِنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يُجازونَ الحَسَنَةَ بِالحَسَنَةِ . لَقَدْ عَمِلْتُ شَرًّا لا سَبيلَ إلى تَغْييرِهِ ، وَحَتّى الآنَ لا أعْلَمُ كَمْ سَيُكَلِّفُني مِنْ ثَمَنٍ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « مِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ كُلَّ المَخْلوقاتِ تُولَدُ ، وَهُناكَ احْتِمالٌ أنْ تُصْبِحَ خَيِّرَةً أوْ شِرِّيرَة . وَهٰذا المِسْخُ رُبَّما يُمْكِنُ تَغْييرُهُ ، أَلَمْ يُؤَدِّ عَطْفُ آلِ دي لاسي عَلَيْهِ إلى إظْهارِ ما فيهِ مِنْ خَيْرٍ ؟ »

فَأجابَ : « بَلَى ! وَلٰكِنْ كَيْفَ كانَتْ مُكافأتُهُ لَهُمْ جَزاءَ هٰذا العَطْفِ ؟ هَلْ تَظُنُّ أنَّهُمْ ماتوا مُصادَفةً ؟ لا ! لَقَدْ كانَ هوَ – حَتْمًا – الَّذي دَمَّرَهُمْ تَمامًا كَما دَمَّرَ وِلْيام . »

فَحَدَّقْتُ فيهِ في فَزَعٍ بِسَبَبِ هٰذِهِ الفِكْرَةِ . هَلْ كانَ يَعْني أنَّ هٰذا المَخْلوقَ هوَ الَّذي أشْعَلَ النّارَ في مَنْزِلِ الأُسْرَةِ الَّتي اتَّخَذَتْهُ صَديقًا لَها ؟ إنَّني لَمْ أسْتَطِعْ تَصْديقَ هٰذا الزَّعْمِ ، وَلَيْسَ هُناكَ دَليلٌ عَلَيْهِ . وَمَعَ هٰذا ، فَإن فرانْكِنشْتاين قَدْ زَرَعَ الشَّكَّ في عَقْلي ، إذْ إنَّهُ لَو كانَ المِسْخُ هوَ الَّذي قَتَلَ وِلْيام فِعْلًا فَلَيْسَ بِمُسْتَبْعَدٍ أنْ يَفْعَلَ أيَّ شَيْءٍ آخَرَ مَهْما يَكُنْ شِرِّيرًا . وَلٰكِنَّ التَساؤُلَ لا يَزالُ قائِمًا : هَلِ المِسْخُ هُوَ الَّذي قَتَلَ وِلْيام ؟ سَأَلْتُ فرانْكِنشْتاين أنْ يَرْوِيَ لي قِصَّتَهُ فَقالَ :

« أنْتَ تَعْرِفُ لِماذا عُدْتُ إلى جِنيفَ في أُغُسْطُس بَعْدَ أنْ أخْفَقْتُ في تَجْرِبَتي . وَلَمْ يَكُنْ سَبَبُ عَوْدَتي هوَ الخَوْفَ مِنَ المِسْخِ الَّذي أوْجَدْتُهُ ، أوْ مِنْ أهْلِ إنْغولْشتاد ، إنَّما السَّبَبُ بِبَساطَةٍ هوَ الشُّعورُ بِأنَّني لا بُدَّ أنْ أهْرُبَ مِنَ المَدينَةِ الَّتي ضَيَّعْتُ فيها فَتْرَةً طَويلَةً مِنْ حَياتي . لَقَدْ أدْرَكْتُ أنَّ الوَقْتَ قَدْ حانَ لِكَيْ أعودَ إلى مَوْطِني . وَقَضَيْتُ عِدَّةَ شُهورٍ سَعيدًا مَعَ أُسْرَتي ، وَبَدَأْتُ أضَعُ خُطَطًا لِدِراسَتي المُسْتَقْبَلِيَةِ ، فَعَزَمْتُ عَلى أنْ أتَخَلّى عَنْ دِراسَةِ العُلومِ ، وَكُنْتُ أفَكِّرُ في دِراسَةِ المُوسيقى . ثُمَّ جاءَ يَوْمٌ فَإذا بي أجِدُ – دونَ أيِّ تَحْذيرٍ – أنَّ سَعادَتي قَدْ قُوِّضَتْ إلى الأبَدِ .

« كانَتْ جوسْتين وَوِلْيام يَخْرُجانِ كُلَّ يَوْمٍ إذا كانَ القَسُّ جَميلًا ، وَخَرَجا ذاتَ يَوْمٍ كالعادَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ مِنَ الأسْبابِ ما يَدْعونا إلى التَفْكيرِ في أنَّ هٰذا اليَوْمَ يَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الأيّامِ . وَلَمْ يَكُنْ في طِباعِ جوسْتين وَسُلوكِها ما يوحي بِأنَّها تُخَطِّطُ لِجَريمَةِ قَتْلٍ . وَهُناكَ رِوايَتانِ عَمّا حَدَثَ بَعْدَ أنْ غادَرا المَنْزِلَ : إحْداهُما رِوايَةُ جوسْتين ، وَالأُخْرى رِوايَةُ المَحْكَمَةِ . وَأنا مُتَأكِّدٌ مِنْ أنَّكَ سَمِعْتَ رِوايَةَ المَحْكَمَةِ ، إذْ أعْتَقِدُ أنَّ والِدَكَ لا بُدَّ قَدْ كَتَبَ إلَيْكَ وَأخْبَرَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْها . وَالآنَ ، دَعْني أرْوي لَكَ رِوايَةَ جوسْتين ، وَكانَتْ كَما يَلي :

« بَعْدَ أنْ غادَرا المَنْزِلَ صَعِدا التَّلَّ – كَما كانا يَفْعَلانِ عادَةً – مُتَّجِهَيْنِ إلى غابَةٍ صَغيرَةٍ تَبْعُدُ نَحْوَ نِصْفِ كيلو مِتْرٍ . وَقَبْلَ أنْ يَبْلُغا الغابَةَ مُباشَرَةً جَلَسَتْ جوسْتين عَلى صَخْرَةٍ لِتَقومَ بِبَعْضِ أشْغالِ الإبْرَةِ ، في حينَ أخَذَ وِلْيام يَقْطِفُ بَعْضَ الزُّهورِ . وَلابُدَّ أنْ يَكونَ قَدْ ساقَتْهُ قَدَماهُ إلى دُخولِ الغابَةِ إذْ إنَّها – بَعْدَ قَليلٍ – سَمِعَتْ صَوْتَهُ صادِرًا مِنْ بَيْنِ الأشْجارِ مُخْتَلِطًا بِصَوْتٍ آخَرَ أعْمَقَ وَأجَشَّ . وَحينَما نَهَضَتْ لِتَرى مَنْ يَكونُ مَعَهُ سَمِعَتْهُ يُطْلِقُ صَيْحَةَ فَزَعٍ ، فَجَرَتْ نَحْوَ الغابَةِ ، وَوَصَلَتْ في اللَّحْظَةِ المُناسِبَةِ لِتَرى رَجُلًا يَحْمِلُهُ تَحْتَ ذِراعِهِ لِيَذْهَبَ بِهِ .. رَجُلًا ضَخْمًا قَبيحَ الوَجْهِ ، كَثَّ الشَّعْرِ ، مُجَرَّدًا مِنَ الثِّيابِ . وَحاوَلَتْ أنْ تَجْذِبَ وِلْيام مِنْهُ ، وَنَجَحَتْ لِلَحْظَةٍ قَصيرَةٍ في إضْعافِ قَبْضَتِهِ عَلى الطِّفْلِ ، وَلٰكِنَّ هٰذا جَعَلَ الرَّجُلَ يَقْبِضُ عَلى عُنُقِ وِلْيام بِيَدِهِ ، وَيَمُدُّ ذِراعَهُ بِهِ بَعيدًا عَنْ جوسْتين . وَظَلَّ يُبْعِدُها عَنْهُ بِيَدِهِ الأُخْرى فَتْرَةً ، وَأخيرًا فاجَأها بِضَرْبَةٍ شَديدَةٍ جَعَلَتْها تَسْقُطُ عَلى الأرْضِ . فَلَمّا أفاقَتْ وَجَدَتْ نَفْسَها مُلْقاةً في نَفْسِ المَكانِ ، وَوِلْيام مَيِّتٌ بِجِوارِها ، وَعَلى عُنُقِهِ عَلاماتٌ سَوْداءُ مِنْ أثَرِ أصابِعَ ، وَسِلْسِلَتُهُ الَّتي تَقَطَّعَتْ مُلْقاةً بِجانِبِهِ . أمّا الرَّجُلُ فَكانَ قَدِ اخْتَفى تَمامًا .

وَيُمْكِنُكَ أنْ تَتَصَوَّرَ كَيْفَ كانَتْ مَشاعِرُ الفَتاةِ المِسْكينَةِ عَقِبَ الحادِثِ : هَلْ يَقولونَ إنَّ ما حَدَثَ كانَ بِسَبَبِ أنَّها غَفَلَتْ عَنْ وِلْيام وَتَرَكَتْهُ يَدْخُلُ الغابَةَ وَحْدَهُ فَلْقَيَ حَتْفَهُ ؟ هَلْ

يُصدِّقونَ قِصتها عَنْ رَجُلٍ مُتوحِّشٍ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنْ قَبْل ؟ لا بُدَّ أَنَّ أَفْكارًا شَتَّى قَدِ اخْتَلَطَتْ في ذِهْنِها ، وَأَنا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْهَمَ لِماذا لَمْ تَرْغَبْ في اَلعَوْدةِ إلى اَلمَنْزِل . وَمَعَ أَنَّني أُقَدِّرُ مَوْقِفَها هٰذا ، فَإِنَّها ارْتَكَبَتْ خَطأً جَسيمًا حينَما فَرَّتْ هارِبةً وَاَلسِّلْسِلةُ اَلذَّهَبيَّةُ لا تَزالُ في يَدِها . وَكَما تَعْلَمُ ، قَطَعَتِ اَلمَسافةَ حَتّى مَدينةِ تُونُون حَيْثُ لَفَتَتْ أَنْظارَ اَلسُّلُطاتِ بِنَظَراتِها اَلزّائِغةِ وَتَصَرُّفاتِها اَلغَريبةِ . وَهٰكَذا اعْتَقَلوها هُناكَ ، ثُمَّ انْتَشَرَتْ أَخْبارُ اَلجَريمةِ اَلتي وَقَعَتْ في جِنيف . »

فَسَأَلْتُ : « أَ أَنْتَ واثِقٌ تَمامًا أَنَّ اَلرَّجُلَ اَلمُتوحِّشَ في قِصَّةِ جوستين هوَ مِسْخُكَ ؟ »

فَأَجابَ : « لَقَدْ أُتيحَ أَنْ أَسْأَلَ جوستين عَنْ قُرْبٍ في اَلسِّجْنِ ، وَما أَخْبَرَتْني بِهِ يَجْعَلُني أَعْتَقِدُ أَنَّهُ رُبَّما تَغَيَّرَ عَمّا كانَ مُنْذُ رَأَيْتُهُ في آخِرِ مَرَّةٍ . لَقَدْ قُلْتَ إِنَّهُ كانَ يَلْبَسُ ثِيابًا في اَلغابةِ ، أَمّا اَلآنَ فَيَبْدو أَنَّهُ تَخَلّى عَنِ اَلثِّيابِ تَمامًا ، كَما أَنَّ شَعْرَهُ قَدْ نَما وَأَصْبَحَ يَكْسو جِسْمَهُ كُلَّهُ . وَلٰكِنْ ما مِنْ شَكٍّ لَدَيَّ في أَنَّهُ اَلمَخْلوقُ نَفْسُهُ . »

سَأَلْتُهُ : « ماذا فَعَلْتَ حينَ سِيقَت جوستين إلى اَلسِّجْنِ ؟ »

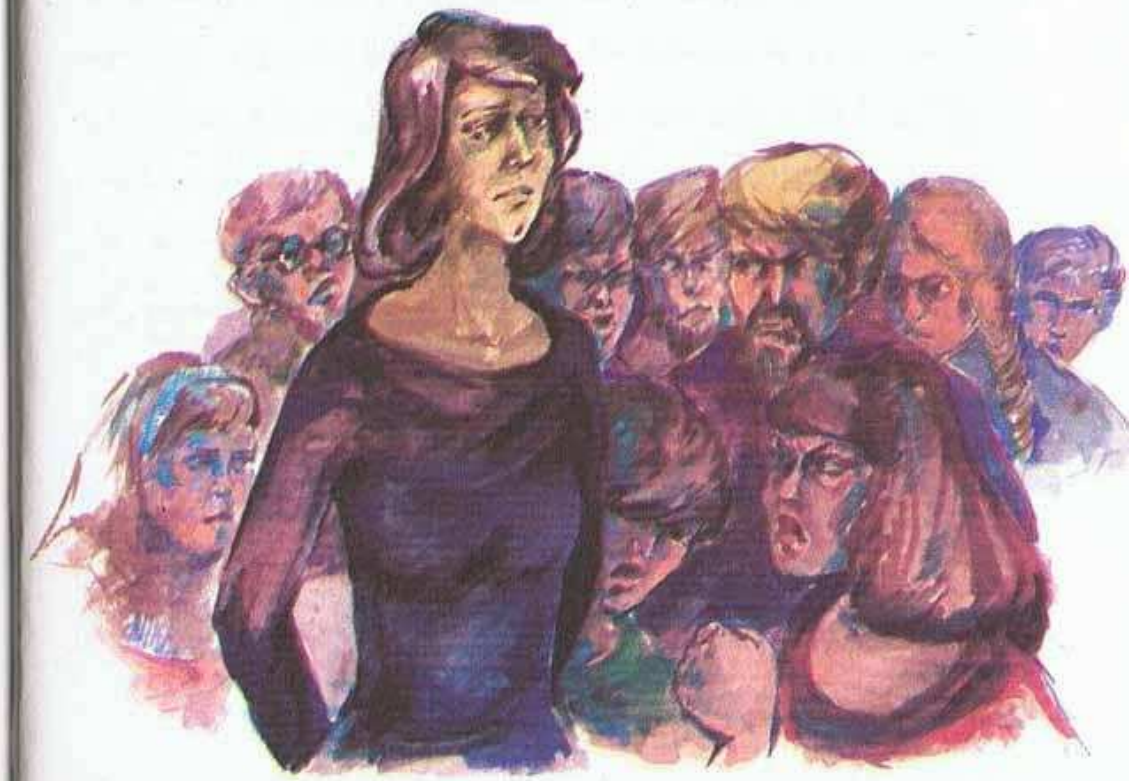

شَحَبَ وَجْهُ فرانْكِنشْتاين وَقالَ : « كُلَّ شَيْءٍ .. كُلَّ شَيْءٍ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْعَلَهُ لِأُنْقِذَها . لَقَدْ كُنْتُ عَلى اسْتِعْدادٍ أَنْ أُشْنَقَ بَدَلًا مِنْها في بِلِينْبالِيه هٰذا اَلصَّباحَ لَوْ أَنَّهُمْ سَمَحوا بِذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّ اَلمُشْكِلةَ هيَ أَنَّ اَلسُّلُطاتِ لَمْ تُصَدِّقْني . وَحينَما تَحَدَّثْتُ عَنْ مِسْخٍ أَوْجَدْتُهُ ، ظَنّوا أَنَّني مَجْنونٌ . وَحَتّى لَوْ أَنَّهُم صَدَّقوني لَما كانَ بِوُسْعي أَنْ أُقَدِّمَ اَلدَّليلَ عَلى أَنَّهُ هوَ اَلَّذي قَتَلَ وِلْيام .

« وَقَدْ ذَهَبْتُ إلى اَلغابةِ وَوَجَدْتُ آثارَ أَقْدامٍ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ واضِحةً تَمامًا . ثُمَّ إِنَّ اَلسَّماءَ أُمْطِرَتْ بِغَزارةٍ في اَللَّيْلةِ اَلتّالِية ، وَلِذٰلِكَ فَحينَما أَطْلَعْتُ عَلَيْها اَلسُّلُطاتِ قالَتْ إِنَّها لا تَعْني شَيْئًا . وَأَخيرًا أَدْرَكْتُ أَنَّ أَمَلي اَلوَحيدَ في إِنْقاذِها هوَ أَنْ أُبْرِهِنَ عَلى أَنَّ هُناكَ – حَقيقةً – مِسْخًا ، وَلِكَيْ أَفْعَلَ ذٰلِكَ كانَ لا بُدَّ أَنْ أَجِدَهُ ، فَقَضَيْتُ اَلأَسابيعَ اَلثَّلاثةَ اَلتّالِيةَ أَبْحَثُ عَنْهُ في اَلجِبالِ دونَ جَدْوى . »

فَسَأَلْتُهُ : « وَإليزابيث ؟ كَيْفَ كانَ تَأْثيرُ اَلحادِثِ عَلَيْها ؟ »

فَأَجابَ : « حَتّى دونَ أَنْ تَعْرِفَ ما أَعْرِفُ ، فَإِنَّها لَمْ تُصَدِّقْ أَنَّ جوستين قاتِلةٌ ، وَقَدْ بَذَلَتْ ما تَسْتَطيعُ لِإِنْقاذِها وَلٰكِنَّ جوستين لَمْ تَكُنْ تُريدُ أَنْ تُنْقِذَ نَفْسَها . كانَ يَبْدو عَلَيْها اَلِاعْتِقادُ بِأَنَّها – بِطَريقةٍ ما – كانَتِ اَلسَّبَبَ في مَوْتِ وِلْيام ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ تَعُدْ تَرْغَبُ في أَنْ تَعيشَ ، بَلْ لَمْ تُحاوِلْ أَنْ تَقولَ في اَلمَحْكَمةِ شَيْئًا يَكونُ في صالِحِها . وَكانَتْ نَتيجةُ ذٰلِكَ أَنَّ إليزابيث نَفْسَها أَصْبَحَتْ في شَكٍّ مِنْ قِصَّتِها في نِهايةِ اَلأَمْرِ . »

كانَ اَلإِرْهاقُ اَلشَّديدُ يَبْدو عَلى فرانْكِنشْتاين فَقُلْتُ لَهُ : « لا بُدَّ أَنْ تَرْتاحَ اَلآنَ . إِنَّكَ تَشُقُّ عَلى نَفْسِكَ كَثيرًا عَلى زَعْمِ أَنَّهُما ماتا بِسَبَبِكَ ، وَهٰذا لَيْسَ صَحيحًا . »

فَرَدَّ قائِلًا : « لَقَدْ كانَ بِسَبَبي ، أَمّا مِنْ حَيْثُ اَلرّاحةُ فَإِنَّني لَنْ أَرْتاحَ حَتّى أَجِدَ اَلمَخْلوقَ اَلَّذي أَوْجَدْتُهُ ، ثُمَّ أُدَمِّرَهُ . »

لَمْ أَعُدْ إلى إنْغولْشتاد في ذٰلِكَ الشِّتاءِ ، وَذٰلِكَ لِأَنَّ حاجةَ أَصْدِقائي إلَيَّ كانَتْ أَكْثَرَ أَهَمِّيَّةً لي مِنْ دِراستي ، إلى جانِبِ هٰذا فَإِنَّ في جِنيف مَكْتَباتٍ وَأَستَطيعُ عَنْ طَريقِ الِاطِّلاعِ فيها أَنْ أُواصِلَ الدِّراسةَ كَما لَوْ كُنْتُ في الجامِعةِ .

لَمْ يَكُنِ الشِّتاءُ بالِغَ القَسْوةِ ، وَلَمْ يَمْكُثِ الثَّلْجُ طَويلًا قُرْبَ البُحَيرةِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ كَثيفًا في الجِبالِ المُرْتَفِعةِ . وَكانَ فرانْكِنشْتاين عَلى يَقينٍ أَنَّ المِسْخَ مُخْتَبِئٌ في هٰذِهِ الجِبالِ ، وَلٰكِنَّ كَثافةَ الثُّلوجِ كانَتْ تَعوقُ البَحْثَ عَنْ مَخْبَئِهِ . وَعَلى أَيَّةِ حالٍ ، لَمْ يَكُنْ هٰذا – بِالضَّبْطِ – هُوَ ما خَطَّطَ لَهُ فرانْكِنشْتاين ، وَإِنَّما كانَتْ خُطَّتُهُ تَقومُ عَلى تَتَبُّعِ خَطِّ الثَّلْجِ ، عَلى أَمَلِ أَنْ يَجِدَ آثارَ أَقْدامِ المِسْخِ حينَما يَهْبِطُ مِنَ الأَرْضِ المُرْتَفِعةِ لِيَحْصُلَ عَلى طَعامِهِ . وَكانَتْ هٰذِهِ هِيَ المُهِمَّةَ الَّتي قَضى صَديقي الأَشْهُرَ القَليلةَ التّالِيةَ فيها ، فَلَمّا انْقَضى الشِّتاءُ وَبَدَأَ الرَّبيعُ ، وَتَراجَعَ الثَّلْجُ ، اسْتَطاعَ أَنْ يَتَدَرَّجَ في الِارْتِقاءِ إلى أَعالي الوُدْيانِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ في أَيَّةِ مَرَّةٍ آثارَ أَقْدامِ حَيَوانٍ أَكْبَرَ مِنْ مَعْزِ الجِبالِ .

وَكُنّا نَخْرُجُ مَعًا في بَعْضِ الأَحْيانِ حينَما تَكونُ الشَّمْسُ ساطِعةً لِنَرْكَبَ زَوْرَقًا في البُحَيْرةِ ، وَكانَتْ إليزابيث تُشارِكُنا إذا لَمْ تَكُنْ مَشْغولةً . وَكُنّا نُحِسُّ في مِثْلِ هٰذِهِ الرَّوْحاتِ وَالغَدَواتِ أَنَّنا عُدْنا أَطْفالًا مِنْ جَديدٍ ، وَكُنْتُ – أَنا عَلى الأَقَلِّ – سَعيدًا بِذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ هَلْ كانَتْ رُوحُ فرانْكِنشْتاين القَلِقةُ تُحِسُّ راحةً عَلى الإطْلاقِ ؟

كُنْتُ كَثيرًا ما أُراقِبُهُ فَأَراهُ مُتَّكِئًا عَلى جانِبِ الزَّوْرَقِ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ في أَعْماقِ الماءِ الَّذي صَفا حَتّى لَتَسْتَطيعَ أَنْ تَرى الأَسْماكَ سابِحةً وَإِنْ كانَتْ عَلى عُمْقِ خَمْسِ أَقْدامٍ . وَلٰكِنَّني كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ أَفْكارَهُ لَمْ تَكُنْ في أَعْماقِ الماءِ الَّذي تُحَدِّقُ فيهِ عَيْناهُ ، وَإِنَّما كانَتْ هُناكَ في أَعالي الجِبالِ . كانَ عَقْلُهُ شارِدًا ، مَشْغولًا بِتَعَقُّبِ آثارِ أَقْدامٍ ضَخْمةٍ خِلالَ الثُّلوجِ ، حَتّى تَنْتَهِيَ إلى فُتْحةِ كَهْفٍ كَريهِ الرّائحةِ .

وَحينَما انْقَضى الرَّبيعُ وَحَلَّ الصَّيْفُ بَدَأَ فرانْكِنشْتاين يَفْقِدُ الأَمَلَ نِهائيًّا في العُثورِ عَلى المِسْخِ ، بَلْ لَقَدْ طَرَأَتْ عَلى ذِهْنِهِ فِكْرَةُ أَنَّهُ رُبَّما لَمْ يَكُنْ في حاجةٍ إلى قَتْلِهِ ، فَلَعَلَّهُ قَدْ ماتَ مُتَأَثِّرًا بِالبُرودةِ الَّتي في الجِبالِ . وَحَتّى إذا كانَ لا يَزالُ حَيًّا ، فَالَّذي يَبْدو أَنَّ المِسْخَ فَقَدَ اهْتِمامَهُ بِأُسْرةِ فرانْكِنشْتاين .

حَلَّ شَهْرُ أُغُسْطُس ، وَطَلَبَ فرانْكِنشْتاين الأَبُ مِنِ ابْنِهِ أَنْ يَأْخُذَ إجازةً .

قالَ لَهُ : « إنَّكَ في حاجةٍ إلى التَّغْييرِ يافيكْتور . إنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَقْبَعَ في المَنْزِلِ طَوالَ الصَّيْفِ لا تَفْعَلُ شَيْئًا . خُذْ هَنْري مَعَكَ إلى شامُوني فَسَوْفَ يَكونُ الطَّقْسُ بارِدًا هُناكَ ، وَتَسْتَطيعُ التَّجْوالَ في الجِبالِ ، وَلَعَلَّكَ أَيْضًا تَجِدُ فُسْحةً مِنَ الوَقْتِ فَتُفَكِّرُ في أَمْرِ دِراستِكَ . وَأَوَدُّ أَنْ تَعُودَ إلى دِراسةِ العُلومِ . »

كانَ واضِحًا مِنْ مَلامِحِ فيكْتور حينَما سَمِعَ كَلامَ أَبيهِ أَنَّهُ لَنْ يُلَبِّيَ المَطْلَبَ الأَخيرَ ، أَيِ العَوْدةَ إلى دِراسةِ العُلومِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ ضِدَّ الذَّهابِ إلى شامُوني ، القَرْيةِ الَّتي تَقَعُ في سَفْحِ أَعْلى جِبالِ أُوربا . وَفي اليَوْمِ التّالي مُباشَرةً رَحَلْنا مَعًا عَلى جَوادَيْنِ ، وَسِرْنا وَشاطِئَ نَهْرِ آرْفي الَّذي يَنْسابُ مُنْحَدِرًا مِنْ وادي شامُوني .

كانَتِ الرِّحْلةُ مُثيرةً ، وَكانَ الوادي كُلَّما ارْتَقَيْنا إلى أَعْلى يَزْدادُ ضيقًا ، حَتّى تَحَوَّلَ الطَّريقُ إلى مَمَرٍّ صَخْريٍّ . وَفي كَثيرٍ مِنَ الأَماكِنِ كُنّا نَجِدُ مِنَ الأَسْلَمِ أَنْ نَأْخُذَ أَعِنَّةَ الجَوادَيْنِ بِأَيْدينا وَنَسيرَ عَلى أَقْدامِنا . وَمَعَ هٰذا ، فَحينَما صارَ المَمَرُّ أَكْثَرَ خُطورةً ، كُنّا نَرى الرِّيفَ الفَسيحَ وَالبَراريَ المُمْتَدَّةَ حَوْلَنا أَكْثَرَ بَهْجةً وَجَمالًا . وَفي بَعْضِ الأَحْيانِ كانَ المَكانُ يُثيرُ الرُّعْبَ في نَفْسَيْنا ، فَقَدْ كانَتِ السُّيولُ الثَّلْجيَّةُ العَظيمةُ تَتَدَفَّقُ هابِطةً قُرْبَ المَمَرِّ . وَكُنّا كَثيرًا ما نَسْمَعُ أَصْواتَ كُتَلِ الثَّلْجِ الضَّخْمةِ وَهِيَ تَنْهالُ كَالرَّعْدِ القاصِفِ مِنَ الجِبالِ القَريبةِ . وَفي بَعْضِ الأَحْيانِ كانَتْ قِمَّةُ جَبَلِ مُون بْلان تَبْدو وَتَحْتَها الصُّخورُ وَكَأَنَّها أَطْرافُ إبَرٍ . وَكانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّ هٰذا الجَمالَ الطَّبيعيَّ يَبْهَرُ فرانْكِنشْتاين .

وَبَدَأْتُ أُسائِلُ نَفْسي : أَمِنَ ٱلْمُحْتَمَلِ أَنْ تُرِفَّهُ هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةُ عَنْ فرانْكِنِشْتاين كَما كانَ والِدُهُ يَأْمُلُ ؟

أَخيرًا وَصَلْنا إِلى شامُوني قُرْبَ مَصَبِّ مِير دِي غْلاس ، أَعْظَمِ ٱلأَنْهارِ ٱلْجَليدِيَّةِ في أُوربّا ، وَهوَ نَهْرٌ ضَخْمٌ مِنَ ٱلثَّلْجِ الَّذي يَنْحَدِرُ مِنْ مُرْتَفَعاتِ مُون بْلان .

في هٰذِهِ ٱلأَيّامِ لَمْ تَكُنِ ٱلْقَرْيَةُ تَمْلِكُ ٱلْكَثيرَ مِمّا يُقَدَّمُ لِلْمُسافِرينَ ، وَلٰكِنّا وَجَدْنا حُجْرَةً في مَنْزِلِ أَحَدِ ٱلْفَلّاحينَ نَزَلْنا بِها . وَكُنّا نَخْرُجُ يَوْميًّا فَنَقومُ بِجَوْلَةٍ في ٱلْجِبالِ .

وَفي ٱلْيَوْمِ ٱلْخامِسِ لِوُصولِنا عَزَمْنا عَلى ٱلتَّسَلُّقِ حَتّى نُقْطَةٍ فَوْقَ حافَةِ نَهْرِ مِير دِي غْلاس نَسْتَطيعُ مِنْها أَنْ نُطِلَّ عَلى ٱلْجَليدِ مُباشَرَةً . وَفي هٰذا ٱلْوَقْتِ مِنَ ٱلسَّنَةِ ، كانَ ٱلثَّلْجُ الَّذي يُغَطّي ٱلْجُزْءَ ٱلسُّفْلِيَّ مِنْ نَهْرِ ٱلْجَليدِ ، قَدِ ٱخْتَفى بِحَيْثُ يَسْتَطيعُ ٱلْمَرْءُ أَنْ يَرى ٱلتَّصَدُّعاتِ ٱلْجَليدِيَّةَ وَٱلْفَجَواتِ الَّتي تَغْلْغَلَتْ حَتّى أَعْماقِ ٱلْجَليدِ . وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَ مِنَ ٱلْمُسْتَطاعِ لِمَنْ يَأْخُذُ حَذَرَهُ أَنْ يَعْبُرَ نَهْرَ ٱلْجَليدِ . وَبِمُجَرَّدِ أَنْ بَلَغْنا هٰذِهِ ٱلنُّقْطَةَ الَّتي شَهِدْنا مِنْها هٰذا ٱلْمَنْظَرَ ، أَدْرَكَ فرانْكِنِشْتاين أَنَّ هٰذا هوَ ما يَنْبَغي أَنْ يَفْعَلَهُ . أَمّا بِٱلنِّسْبَةِ لي فَلَمْ تَكُنْ لي رَغْبَةٌ قَوِيَّةٌ في ٱلْقيامِ بِهٰذِهِ ٱلْمُغامَرَةِ مِثْلُهُ ، ذٰلِكَ أَنَّ كَثيرًا مِنَ ٱلصَّيّادينَ الَّذينَ جاءُوا إِلى هٰذِهِ ٱلْمِنْطَقَةِ لِيَصْطادوا ٱلْمَعْزَ ٱلْبَرِّيَّ قَدْ سَقَطوا في هٰذِهِ ٱلشُّقوقِ ٱلْجَليدِيَّةِ ٱلْخَضْراءِ وَٱخْتَفَوا فيها إِلى ٱلأَبَدِ . وَمَعَ هٰذا ، كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ٱثْنَيْنِ فَوْقَ ٱلْجَليدِ يَكونانِ أَقَلَّ تَعَرُّضًا لِلْخَطَرِ مِنْ واحِدٍ . وَعَلى هٰذا ٱنْطَلَقْنا مَعًا .

كانَ ٱلْمَشْيُ عَلى نَهْرِ ٱلْجَليدِ مُثيرًا . كُنّا نَسْتَخْدِمُ ٱلْعِصِيَّ ٱلْحَديدِيَّةَ ٱلْمُسَنَّنَةَ الَّتي تَنْغَرِزُ في ٱلْجَليدِ ، وَأَخَذْنا نَمْشي حَوْلَ أَطْرافِ ٱلتَّصَدُّعاتِ . كانَ هُناكَ ٱلْكَثيرُ مِنْها مِمّا جَعَلَ مِنَ ٱلْمُسْتَحيلِ أَنْ يَكونَ سَيْرُنا عَلى خَطٍّ مُسْتَقيمٍ عَبْرَ ٱلْجَليدِ . وَحينَما بَلَغْنا ٱلْجُزْءَ ٱلدَّقيقَ ٱلنّاتِئَ في إِحْدى ٱلصُّخورِ ٱلْمُرْتَكِزَةِ في قاعِ ٱلنَّهْرِ وَالَّتي تَقْسِمُهُ قِسْمَيْنِ ، أَدْرَكْنا أَنَّ ٱجْتِيازَ هٰذِهِ ٱلْعَقَبَةِ سَوْفَ يَسْتَغْرِقُ وَقْتًا طَويلًا ، وَٱلْواقِعُ أَنَّنا لَمْ نَجْتَزْ هٰذِهِ ٱلْعَقَبَةَ قَطُّ . فَفي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ

تَحَوَّلَتْ نُزْهَتُنا ٱلْجَبَلِيَّةُ ٱلْمُمْتِعَةُ إِلى شَيْءٍ غَريبٍ مُرْعِبٍ . كُنّا نَسْتَطيعُ أَنْ نَرى – مِنْ مَوْقِعِنا حَيْثُ جَلَسْنا فَوْقَ صَخْرَةٍ لِنَسْتَريحَ – إِلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ فَوْقَ نَهْرِ ٱلْجَليدِ . وَعِنْدَ ما كُنّا نَنْظُرُ مُتَطَلِّعَيْنِ حَوْلَنا أَدْرَكْنا – كِلانا – أَنَّنا لَمْ نَكُنْ وَحْدَنا . فَبَعيدًا عَنّا كانَ هُناكَ خَيالُ آدَميٍّ ، بَدا أَنَّهُ يَتَحَرَّكُ عَلى ٱلْجَليدِ في اتِّجاهِنا ، وَأَخَذَتْنا ٱلدَّهْشَةُ في ٱلتَّوِّ . فَقَليلونَ هُمُ الَّذينَ ٱسْتَطاعوا عُبورَ نَهْرِ ٱلْجَليدِ ، وَأَقَلُّ مِنَ ٱلْقَليلِ بَلَغوا مُنْتَهاهُ . وَأَخَذْنا نُراقِبُ ، فَإِذا بِنا نُلاحِظُ شَيْئًا أَكْثَرَ غَرابَةً . فَأَيًّا كانَ هٰذا ٱلْهَيْكَلُ ٱلآدَميُّ ، فَقَدْ كانَ يَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ عَجيبَةٍ وَفي خَطٍّ مُسْتَقيمٍ نَحْوَنا ، فَقالَ فرانْكِنِشْتاين : « وَلٰكِنَّ هٰذا عَجيبٌ ، لا بُدَّ أَنَّهُ يَقْفِزُ عَبْرَ ٱلانْهِياراتِ وَٱلْفَجَواتِ . »

وَحينَما ٱقْتَرَبَ ٱسْتَطَعْنا أَنْ نَتَبَيَّنَ بِٱلضَّبْطِ ماذا كانَ يَفْعَلُ : كانَ يَطيرُ مِنْ فَوْقِ ٱلتَّصَدُّعاتِ وَٱلْفَجَواتِ الَّتي يَبْلُغُ عَرْضُها سَبْعَةَ أَمْتارٍ أَوْ ثَمانِيَةً . فَأَيُّ كائِنٍ بَشَرِيٍّ هٰذا الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَقْفِزَ هٰذِهِ ٱلْمَسافَةَ ٱلطَّويلَةَ ، وَلِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ ؟

فَجْأَةً صاحَ فرانْكِنِشْتاين : « إِنَّهُ هوَ ! »

وَفِعْلًا ، كانَ هوَ ٱلْمَسْخَ الَّذي بَحَثْنا عَنْهُ طَويلًا دونَ جَدْوى . وَٱلآنَ يَأْتي لِيَلْقانا في وَقْتٍ لا نَمْلِكُ فيهِ إِلّا ٱلْعِصِيَّ نُدافِعُ بِها عَنْ أَنْفُسِنا . وَبَيْنَما كانَ يَزْدادُ قُرْبًا مِنّا كُنْتُ أَرى ما في هٰذا ٱلْجِسْمِ ذي ٱلشَّعْرِ ٱلْكَثِّ مِنْ قُوَّةٍ . كُنْتُ أَرى أَنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَنْتَزِعَنا مِنَ ٱلصُّخورِ ٱنْتِزاعًا ثُمَّ يُلْقي بِنا واحِدًا بَعْدَ ٱلآخَرِ إِلى أَقْرَبِ هُوَّةٍ بَيْنَ ٱلْجَليدِ .

وَهٰكَذا ، وَبِدونِ تَفْكيرٍ وَضَعْنا أَنْفُسَنا تَمامًا تَحْتَ رَحْمَتِهِ . تُرى ، هَلْ سَتَكونُ هٰذِهِ نِهايَتَنا ؟

الفصلُ الثّالثَ عشرَ

تَقدّمَ المِسْخُ حتّى صارَ على مَدى نَحْوِ عشرَةِ أمْتارٍ مِنّا ثُمّ تَوقّف . وبدا أنّه يُحدّقُ فينا ، ولٰكِنّ عَيْنَيْهِ كانتا تَخْتفيانِ تَحْتَ شَعْرِهِ القَذِرِ ، الّذي كانَ مُتدلّيًا فوْقَ وَجْهِهِ حتّى لَقدْ كانَ مِنَ الصّعْبِ أنْ نُدْرِكَ فيمَ يُفكّرُ .

وأخذْنا ننْظُرُ ، بَعْضُنا إلى بَعْضٍ وقدْ لَفّنا صمْتٌ رَهيبٌ ، ثُمّ إذا بِهِ يقْتَربُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا تَنْبعِثُ مِنْهُ رائحةُ الحيوانِ النّفّاذةُ . ولَوْ أنّهُ كانَ يَعْتزِمُ مُهاجَمتَنا لَكانَ قدْ فعَلَ ذٰلِكَ – حتْمًا – آنذاكَ ، ولٰكِنّهُ – بَدَلًا مِنْ ذٰلِكَ – بَدأ يتحدّثُ . وكانتْ هٰذِهِ أوّلَ مرّةٍ نَسْمعُ فيها صوْتَهُ العَميقَ الأجَشّ . لٰكِنّ طَريقتَهُ في الحَديثِ لَمْ تَكُنْ تُساعِدُ على أنْ نُعِدّ أنْفُسَنا لِما بَدَرَ مِنْهُ مِنْ قوْلٍ . ولَقدْ بلَغَتْ بِنا الدّهْشةُ ما بلَغَتْ حيْنَما وجَدْنا أنّ وراءَ هٰذا الصّوْتِ العَميقِ الأجَشّ شَخْصًا ذا تفْكيرٍ وأحاسيسَ .

قالَ المِسْخُ وهوَ يُرَكّزُ نَظْرتَهُ على فرانْكِنشْتاين : « لَعلّكَ تتساءَلُ لِماذا جِئْتُ لِألْقاكَ هُنا ؟ إنّني لَمْ آتِ لِأُدَمّرَكَ كما تأمُلُ أنْ تُدَمّرَني ، إنِ اسْتطَعْت إلى ذٰلِكَ سَبيلًا . إنّما جِئْتُ لِأُرْوِيَ لَكَ قِصّتي ، ولَعلّكَ بَعْدَ أنْ تَسْتَمِعَ إلَيْها تُخْبِرُني إذا كُنْتُ مَدينًا لَكَ أوْ لِأيّ إنْسانٍ آخَرَ بِأيّ شَيْءٍ .

« ولْأُخْبِرْكَ في البِدايةِ ، كَيْفَ وجَدْتُ نَفْسي وحيدًا أُقاسي البَرْدَ والجُوعَ والعُرْيَ في الغابةِ قُرْبَ إنْغولْستاد . أمّا كَيْفَ كانتْ حياتي قبْلَ ذٰلِكَ فلَسْتُ أدْري ، فيما عدا – ما أذْكُرُهُ عَنْ وُجودي في حُجْرةٍ وأنْتَ تَنْظُرُ إلَيّ باشْمِئْزازٍ وتَصيحُ في وَجْهي . لَقدْ تعَلّمْتُ سَريعًا كَيْفَ أعيشُ في الغابةِ ، فقَدْ كانتْ هُناكَ ينابيعُ أنْهَلُ مِنْها إذا ظَمِئْتُ ، وفواكِهُ بَرّيّةٌ أطْعَمُها إذا جِعْتُ ، وقدْ تعَوّدَتْ مَعِدَتي أنْ تتقَبّلَ أخْشَنَ الطّعامِ وأرْدَأهُ . ولِمَ لا ؟! فأنا لَمْ أكُنْ بَشَرًا كامِلًا كما تعْلَمُ . وفي أوّلِ الأمْرِ كُنْتُ أشْعُرُ بالبَرْدِ ، وكانَ عَلَيّ أنْ أتَمشّى في اللّيْلِ طَلَبًا لِلدّفءِ ، وكُنْتُ أنامُ في النّهارِ حيْنَما تكونُ الشّمْسُ ساطِعةً . وفيما بَعْدُ وجَدْتُ

ثيابًا مُعلّقةً خارِجَ مَنازِلِ أهْلِ القُرى ، وشاهَدْتُ ما يَلْبَسُهُ النّاسُ وتَمنّيْتُ أنْ ألْبَسَ مِثْلَهُمْ ، ذٰلِكَ لِأنّني – في ذٰلِكَ الوَقْتِ – كُنْتُ لا أزالُ آمَلُ – في خُمْقٍ وغَباءٍ – أنْ يتقَبّلَني النّاسُ كَفَرْدٍ مِنَ الجِنْسِ البَشَريّ . »

وحيْنَما بَلَغَ المِسْخُ هٰذِهِ النُّقْطةَ مِنْ قِصّتِهِ ارْتَجَفَ صوْتُهُ تأثُّرًا ، واسْتَمَرّ يقولُ :

« لٰكِنّ النّاسَ كانوا يَشْمَئِزُّونَ لِرُؤْيَتي . ففي ذاتِ يَوْمٍ عَزَمْتُ على أنْ أدْخُلَ قَرْيةً لِأرى ماذا يَحْدُثُ ، فَما الّذي حَدَثَ ؟ الأطْفالُ ولّوْا مُدْبِرينَ ، النّساءُ تَصايَحْنَ في رُعْبٍ وهَلَعٍ ، الرّجالُ قَذَفوني بِالأحْجارِ . لَقدْ أثارَ الجِسْمُ الّذي أعْطَيْتَنيهِ الاشْمِئْزازَ فيهِمْ كَما أثارَ الاشْمِئْزازَ فيكَ . وفي نِهايةِ المَطافِ أثارَ اشْمِئْزازي مِنْ نَفْسي .. أنا أيْضًا . وقدْ قرّرْتُ يوْمًا أنْ أتوَغّلَ في أعْماقِ الغابةِ لِأموتَ – كَما كُنْتَ تتَمنّى لي دونَ شَكٍّ – وكانَ ذٰلِكَ حيْنَما ساقَتْني المَقاديرُ إلى مَنْزِلِ دي لاسي .

« كُنْتُ في أَوَّلِ الأَمْرِ أُراقِبُهُمْ مِنْ خَلْفِ الأَشْجارِ . كُنْتَ أَرى فِليكْس وَهُوَ يَدْخُلُ الغابَةَ ثُمَّ يَعودُ بِبَعْضِ أَحْطابِ الوَقودِ . وَكُنْتُ أَرى الرَّجُلَ المُسِنَّ يَجْلِسُ في الشَّمْسِ ، وَلٰكِنَّني حِينَما رَأَيْتُ أَغاثا تَخَلَّيْتُ عَنْ كُلِّ ما كانَ يَجولُ في خاطِري مِنْ رَغْبَةٍ في المَوْتِ . لَقَدْ كانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّها فَوْقَ جَميعِ النّاسِ بِقَدْرِ ما أَنا دُونَهُمْ . وَهٰكَذا أَرَدْتُ أَنْ أَكونَ صَديقًا لَها ، بَلْ أَنْ أَكونَ صَديقًا لَهُمْ جَميعًا ، وَلِهٰذا أَخَذْتُ أَجْمَعُ الحَطَبَ مِنَ الغابَةِ كُلَّ يَوْمٍ وَأَضَعُهُ بِجِوارِ بابِهِمْ . وَفي بَعْضِ الأَيّامِ كُنْتُ أَضَعُ الفَواكِهَ البَرِّيَّةَ في الصَّباحِ الباكِرِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظوا مِنْ نَوْمِهِمْ .

« وَذاتَ صَباحٍ – حِينَما كُنْتُ أَهُمُّ بِوَضْعِ الحَطَبِ – فُتِحَ البابُ فَجْأَةً وَوَقَفَتْ بِهِ أَغاثا ، وَعِنْدَما رَأَتْني دَهِشَتْ وَانْتابَها الخَوْفُ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تُغْلِقِ البابَ ، وَإِنَّما قَدَّمَتْ لي طَعامًا . وَبَقِيتُ مَعَهُمْ فَتْرَةً ، وَقَدْ أَخَذوا جَميعًا يُوَجِّهونَ لي أَسْئِلَةً ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعِ الإِجابَةَ حِينَئِذٍ . عَلَى أَيَّةِ حالٍ ، عِنْدَما تَكَرَّرَتْ زِيارَتي لِلْمَنْزِلِ بَدَأْتُ أَفْهَمُ لُغَتَهُمْ وَأَتَحَدَّثُ بِها . وَأَخيرًا انْتَقَلْتُ لِأُقيمَ في الكوخِ الصَّغيرِ خَلْفَ المَنْزِلِ ، وَكُنْتُ أُصْغي حِينَما تَقْرَأُ أَغاثا أَوْ فِليكْس عَلى أَبيهِما في المَساءِ . فَتَعَلَّمْتُ شَيْئًا عَنِ العالَمِ خارِجَ الغابَةِ ، بَلْ إِنَّني تَعَلَّمْتُ القِراءَةَ . وَتَعَلَّمْتُ مِنَ التّاريخِ أَنَّ بَني البَشَرِ لا يَكادُ يُعامِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَحْسَنَ مِمّا يُعامِلونَني بِهِ . وَتَعَلَّمْتُ كَذٰلِكَ مَعاني كَلِماتٍ مِثْلَ « أَخ » وَ« أُخْت » وَ« أَب » وَ« أُمّ » ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّني لَيْسَ لي أَحَدٌ مِنْ هٰؤُلاءِ ، بَلْ إِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَذَكَّرَ أَنَّني كُنْتُ طِفلًا .

« وَكُنْتُ دائِمًا أَتَساءَلُ : تُرى أَنَسيتُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَياتي المُبَكِّرَةِ ؟ أَمْ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُناكَ حَياةٌ مُبَكِّرَةٌ فَتُنْسى ؟ أَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ الواقِعُ أَنَّني لَمْ أُولَدْ وَإِنَّما وُجِدْتُ هٰكَذا مُكْتَمِلَ النُّضْجِ ؟ وَإِذا كانَ الأَمْرُ كَذٰلِكَ فَمَنْ أَوْجَدَني ؟ كُلُّ ما أَتَذَكَّرُهُ هُوَ « وَجْهٌ » ، وَلٰكِنْ وَجْهُ مَنْ ؟

« وَجاءَتِ الإِجابَةُ عَنْ سُؤالي عَنْ طَريقِ المُصادَفَةِ . فَذاتَ يَوْمٍ وَفَدَ رَجُلٌ إِلى الكوخِ حِينَما كُنْتُ في الغابَةِ ، وَتَحَدَّثَ إِلى دي لاسي عَنْ « سَيِّدي » فرانْكِنِشْتاين مِنْ جِنيفَ . وَهٰكَذا عَرَفْتُ أَخيرًا اسْمَ الَّذي أَوْجَدَني وَأَيْنَ يَعيشُ .

« وَذاتَ يَوْمٍ عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَذْهَبَ لِلْبَحْثِ عَنْهُ ، وَلٰكِنْ قَبْلَ أَنْ أَفْعَلَ ذٰلِكَ حَدَثَ شَيْءٌ ما جَعَلَني أَتَحَوَّلُ ضِدَّ الجِنْسِ البَشَرِيِّ إِلى الأَبَدِ .

« لَقَدْ شاهَدْتُ في دُنْيا النّاسِ أَنَّهُمْ يَعيشونَ في أُسَرٍ ، أَمّا أَنا فَلَيْسَ لي أُسْرَةٌ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ الأُسْرَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَأَلَّفَ مِنِ اثْنَيْنِ يُحِبُّ كُلٌّ مِنْهُما الآخَرَ . وَكانَتْ أَغاثا – مُنْذُ رَأَيْتُها لِأَوَّلِ مَرَّةٍ – تَبْدو لي وَكَأَنَّها كائِنٌ مِنْ عالَمٍ آخَرَ ، وَكُنْتُ كُلَّما طالَ مُقامي مَعَ أُسْرَةِ دي لاسي ازْدَدْتُ لَها حُبًّا . وَذاتَ يَوْمٍ حِينَما ذَهَبَ فِليكْس إِلى المَدينَةِ ، وَكانَ الأَبُ المُسِنُّ نائِمًا في حُجْرَتِهِ ، رَأَيْتُ أَغاثا تَقْرَأُ كِتابًا تَحْتَ شَجَرَةِ التُّفّاحِ في الحَديقَةِ . فَجَثَوْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ

أمامها وصارحتُها بحُبّي ، وأخذتُ يدها وقبّلتُها ، فما كانَ منها إلّا أنْ أسرعتْ تسحبُ يدها كما لوْ كُنتُ قدْ لمستُها بحديدةٍ مُحمّاةٍ حمْراءَ . ودونَ أنْ تنطقَ بكلمةٍ ألقتْ كتابَها على الأرضِ وجرتْ إلى المنزلِ ، وقضتْ فترةً ما بعدَ الظُّهرِ كلَّها في حُجرتِها . ولمْ أكنْ في حاجةٍ لأنْ أسمعَ رأيَها ، فقدْ عبّرتْ ملامحُ وجهِها عنْ كلِّ شيءٍ . كانتْ في وجْهِها نفسُ النظرةِ التي كانتْ على أوّلِ وجْهٍ بشريٍّ رأيتُهُ .. نظرةِ الرُّعبِ والفزعِ والاشمئزازِ .

« وأدركْتُ يومئذٍ أنّني لنْ أجدَ السّعادةَ أبدًا في معاشرةِ البشرِ ، فأخذْتُ أعدو هائمًا على وجْهي ، متوغّلًا في الأدغالِ . وقضيْتُ في الغابةِ أيّامًا مستلقيًا ، أقلّبُ في رأسي همومي وأشجاني . لماذا يعاملُني هؤلاءِ الناسُ هكذا ؟ أأنا مجرّدُ حيوانٍ أعملُ منْ أجلِهمْ ؟ إنّهمْ استغلّوني ، وما أحبُّوني قطُّ ، وهكذا قرّرْتُ أنْ أدمّرَهمْ . ففي ذاتِ ليلةٍ – كانوا جميعًا نائمينَ – جئْتُ إلى منزلِهمْ في سكونٍ ، وكانتْ خطوتي الأولى هيَ اتّخاذَ الحيطةِ لكيْلا يستطيعَ أحدٌ منهمُ الخروجَ . ولذلكَ زحزحْتُ بعضَ القِطعِ الصّخريّةِ الكبيرةِ ووضعْتُها خلفَ الأبوابِ ، ثمّ ذهبْتُ إلى الفرْنِ الذي كانَ مبنيًّا عندَ الجدارِ الخارجيِّ للمنزلِ والذي تعوّدتْ أغاثا أنْ تنضجَ فيهِ الخُبزَ ، فنفخْتُ في نارِهِ التي كانتْ خابيةً لتشتعلَ . وحملْتُ بعضَ النّارِ في حُزمةٍ منَ الأعشابِ إلى حافةِ السّقفِ ، وكانَ السّقفُ منْ مادّةٍ جافّةٍ فاشتعلَتْ فيهِ النّارُ بسهولةٍ ، وانتحيْتُ جانبًا وانتظرْتُ . »

وهُنا توقّفَ المسخُ عنِ الكلامِ ، وأغمضَ عينيْهِ ، وأخذَ يحكُّ جسدَهُ ذا الشّعرِ الكثّ بيديْهِ الضّخمتيْنِ كأنّما يحاولُ أنْ يتذكّرَ ، ثمّ علتْ وجْهَهُ ابتسامةٌ حينما تذكّرَ ، واستمرَ يقولُ :

« وبعدَ فترةٍ منَ الزّمنِ سمعْتُ صيْحاتٍ منَ الدّاخلِ ، ولكنّ نوافذَ المنزلِ كانتْ صغيرةً ، وكانَ الرّجلُ المسنُّ مكْفوفًا ، كما أنّ الدُّخانَ كانَ كثيفًا يعوقُ الرّؤيةَ . وهكذا ماتوا جميعًا .

« أمّا أنا فأخذْتُ أضْحكُ ، ثمّ عدَوْتُ نحوَ الغابةِ واتّخذْتُ طريقي إلى جنيفْ .

« كُنتُ أسافرُ في الليْلِ حتّى لا ألتقيَ بإنسانٍ . ولمّا كُنتُ قدْ تخلّيْتُ عنْ رغْبتي في الانتماءِ إلى الجنسِ البشريِّ ، فقدْ تخلّصْتُ منَ الثّيابِ التي كُنتُ أرتديها ، وسرْعانَ ما تحقّقْتُ أنّ البردَ لمْ يكُنْ يزعجُني . وحينما هبطْتُ منَ الجبالِ عندَ الطّرفِ الشّرقيِّ لبُحيْرةِ جنيفْ سبحْتُ عبْرَ البُحيرةِ إلى ساڤوي ، واتّجهْتُ إلى جنيفْ على طولِ الشّاطئِ الجنوبيِّ . وهُنا وجدْتُ أنّ ثمّةَ مُشكلةً تواجهُني ، فقدْ كُنتُ أعلمُ أنّ جنيفْ مدينةٌ واسعةٌ ، ولمْ تكُنْ لديَّ وسيلةٌ للاستدْلالِ على المكانِ الذي يقيمُ فيهِ منْ أوجدَني ، ولكنّي كُنتُ محظوظًا ففي الصّباحِ الباكرِ ذاتَ يوْمٍ كُنتُ مارًّا ببعْضِ البيوتِ الرّيفيّةِ التي تبْعُدُ عنِ المدينةِ مسافةً طويلةً ، فوقعَتْ عيْناي على اسْمٍ محْفورٍ على العمودِ الحجريِّ لبوّابةِ أحدِ المنازلِ ، فقرأتُهُ (ڤيلا فرانكنشتاين) . وهكذا عرفْتُ أنّني وصلْتُ .

« وقضيْتُ الأيّامَ الأربعةَ التّاليةَ في الغاباتِ التي تُطلُّ على المنزلِ منْتظرًا أنْ تمشيَ في هذا الطّريقِ حتّى أتمكّنَ منْ محادثتِكَ ، ولكنّكَ لمْ تأتِ . وبدلًا منْ ذلكَ شاهدْتُ – بعْدَ ظُهرِ أحدِ الأيّامِ – فتاةً شابّةً ومعَها طفْلٌ يقْتربانِ منَ الطّريقِ ، ولمْ أكُنْ أعْرفُ منْ يكونُ هذا الطّفْلُ . ولكنْ حينما راقبْتُهُ وهُوَ يقْطفُ الأزْهارَ ويجولُ مُقْتربًا شيْئًا فشيْئًا منَ المكانِ الذي أسْتلقي فيه ، طرأتْ بذهْني فكْرةٌ . سوْفَ أحاولُ معاشرةَ البشرِ مرّةً ثانيةً ، فإذا استطعْتُ أنْ آخذَ طفْلًا كهذا .. طفْلًا صغيرًا لمْ تخْتمرْ في ذهْنِهِ أفْكارٌ جامدةٌ محْدّدةٌ بعْدُ ، فقدْ ينْشأُ على حُبّي ويُصْبحُ صديقًا لي . نعمْ ، سوْفَ أحْملُهُ إلى مكانٍ منْعزلٍ في الجبالِ وأُربّيهِ بطريقتي .

« وهكذا انتظرْتُ حتّى دخلَ الطّفْلُ الغابةَ فأمْسكْتُ بهِ ، ولكنّهُ أخذَ يُقاومُ ويصْرخُ ، فخفّتِ الفتاةُ لنجْدتِهِ . وحاولَتْ أنْ تجْذبَهُ منّي ، فحملْتُهُ بعيدًا عنْ متناولِها وكُنتُ أمْسكُ بهِ منْ عُنُقِهِ ، وما إنْ تخلّصْتُ منْها حتّى تبيّنْتُ أنّهُ فارقَ الحياةَ .

« وأيْقنْتُ أنّني لا أستطيعُ البقاءَ بعْدَ هذا ، فعبرْتُ الجبالَ إلى هذا المكانِ حيْثُ أقيمُ في

كَهْف على حافةِ نَهْرِ الجَليدِ مُنْذُ ذٰلِكَ الوَقْتِ . لَقَدْ كُنْتُ عازِمًا عَلى المَجيءِ إلَيْكَ ؛ إذْ إنّني أُريدُ أنْ أسْألَكَ عَنْ شَيْءٍ مّا ، وَبَدَلًا مِنْ ذٰلِكَ أتَيْتَ أنْتَ إلَيّ . نَعَمْ يافرانْكِنِشْتاين ، إنّني أسْتَطيعُ أنْ أقْتُلَكَ الآنَ بِما مَنَحْتَنيهِ مِنْ قُوَةٍ ، وَكَذٰلِكَ أقْتُلُ صَديقَكَ . وَلٰكِنْ ، بِما أنّني في حاجةٍ إلَيْكَ فَلَنْ أقْتُلَكَ . إنّني مُحْتاجٌ إلَيْكَ لِكَيْ تَجْعَلَ حَياتي التّعِسةَ جَديرةً بِالْبَقاءِ . اجْعَلْني سَعيدًا فَأكونَ خَيِّرًا . »

كانَ فرانْكِنِشْتاين طَوالَ الوَقْتِ الّذي يَرْوي فيهِ المِسْخُ قِصَتَهُ يَسْتَمِعُ وَهوَ صامِتٌ . فَلَمّا قالَ عِبارَتَهُ الأخيرةَ بَدا عَلَيْهِ الإهْتِمامُ فَسَألَهُ : « ماذا تُريدُ ؟ »

فَأجابَ المِسْخُ : « زَوْجةً . »

« فَهَتَفَ فرانْكِنِشْتاين : « زَوْجةً ! أأنْتَ مَجْنونٌ ؟ أيْنَ أجِدُ امْرَأةً تَرْغَبُ في أنْ تَكونَ زَوْجةً لِمَخْلوقٍ شِرّيرٍ مِثْلِكَ ؟ »

فَأجابَ المِسْخُ : « لَنْ تَسْتَطيعَ أنْ تَجِدَ واحِدةً ، وَلِهٰذا أتَيْتُ إلَيْكَ . فَعَلَيْكَ أنْ تُوجِدَ واحِدةً لي ، كَما أوْجَدْتَني . »

فَصاحَ فرانْكِنِشْتاين : « ماذا ؟ أُوجِدُ آخرَ مِثْلَكَ ؟ »

فَأجابَ : « امْرَأةً .. قَبيحةً مِثْلي . »

فَقالَ فرانْكِنِشْتاين : « مُسْتَحيلٌ ! إنَّ الفِكْرةَ ذاتَها مِنَ البَشاعةِ بِحَيْثُ لا يُمْكِنُني مُجَرَّدُ التَّفْكيرِ فيها ، حَتّى وَلَوْ قَذَفْتَ بي بَيْنَ الجَليدِ في أعْمَقِ أُخْدودٍ . لَنْ أُوجِدَ آخرَ مِثْلَكَ أبَدًا . »

فَابْتَسَمَ المِسْخُ ابْتِسامَتَهُ الشِّرّيرةَ ثانيةً وَقالَ : « حَتّى وَلَوْ قَذَفْتُ .. لا بِكَ وَحْدَكَ ، وَلٰكِنْ بِكُلِّ الّذينَ تُحِبُّهُمْ ؟ ياسَيِّدي فَكِّرْ ثانيةً . إنَّكَ تُعَرِّضُ آخَرينَ لِخَطَرٍ لَيْسَ لَهُ ما يُبَرِّرُهُ ؛ صَديقَكَ الّذي مَعَكَ ، والِدَكَ ، الفَتاةَ الشّابَّةَ الّتي تَعيشُ في مَنْزِلِكَ . وَفي مُقابِلِ ما طَلَبْتُهُ مِنْكَ مِنْ صَنيعٍ ، سَتَجِدُني عَلى اسْتِعْدادٍ لِأنْ أُعِدَكَ وَعْدًا : بِمُجَرَّدِ أنْ تُوجِدَ زَوْجةً لي سَوْفَ نُغادِرُ كِلانا دُنْيا المُدُنِ وَالنّاسِ ، وَنَذْهَبُ إلى غاباتِ أمْريكا الجَنوبيّةِ ، وَلَنْ تَرانا أوْ تَسْمَعَ عَنّا أبَدًا . »

مَرّتْ لَحَظاتُ صَمْتٍ ، ثُمَّ الْتَفَتَ فرانْكِنِشْتاين إلَيَّ قائِلًا : « اتْرُكْنا ياهَنْري . عُدْ إلى الخَلْفِ فَوْقَ الجَليدِ وَانْتَظِرْني هُناكَ . لا بُدَّ أنْ يَحْصُلَ هٰذا المَخْلوقُ مِنّي عَلى جَوابٍ . »

كُنْتَ أرْغَبُ في البَقاءِ ، وَلٰكِنْ كُنْتُ أرى في نَظَراتِ فرانْكِنِشْتاين أنَّهُ يُريدُ أنْ يَخْتَليَ بِالمِسْخِ . كانَتِ الشَّمْسُ قَدِ اخْتَفَتْ وَراءَ الجَبَلِ ، وَبَدَأتْ ريحٌ بارِدةٌ تَهُبُّ ، فَقُلْتُ لَهُ وَأنا أتَراجَعُ عَبْرَ الجَليدِ : « لا تَمْكُثْ طَويلًا . »

وَحينَما نَظَرْتُ خَلْفي بَعْدَ لَحْظةٍ كانا – كَما تَرَكْتُهُما – لا يَزالانِ فَوْقَ الصَّخْرةِ يَتَحَدَّثانِ ، في حينَ كانَ ظِلُّ كُلٍّ مِنْهُما يَزْدادُ فَوْقَ الجَليدِ طُولًا .

الفصلُ الرّابعَ عشرَ

انْقضتْ ساعةٌ قبْلَ أنْ أرى فرانْكنِشْتاين عائدًا عبْرَ نهْرِ الجليدِ ، وَلوْ أنّهُ تأخّرَ عنْ ذلِكَ قليلًا لتعرّضَ لِخطرٍ مُحقّقٍ .. لضلّ طريقَهُ بيْنَ التّصدُّعاتِ الجليديّةِ . وَلكِنْ بما أنّ المِسْخَ قدْ تركَهُ يعودُ ، فقدْ كانَ هٰذا يعْني أنّهُما لا بُدّ قدْ توصّلا إلى اتّفاقٍ . كانتْ خُطواتُهُ المُتثاقِلةُ وَهُوَ عائدٌ تكادُ تُنبِئُ عنْ حقيقةِ هٰذا الاتّفاقِ ، وَكانَ واضِحًا أنّ خُطواتِهِ المُتثاقِلةَ هٰذِهِ لمْ تكُنْ بِسبَبِ ما يُعانيهِ مِنْ إرْهاقٍ ، وَإنّما لأنّهُ كانَ يحْمِلُ أخْبارًا ، وَمعَ ذٰلِكَ فإنّهُ لمْ يكُنْ راغِبًا في الإفْصاحِ عنْها .

سألْتُهُ : « هلْ وَعدْتَهُ ؟ »

فأجابَ : « وَهلْ كُنْتُ أسْتطيعُ إلّا أنْ أعِدَهُ ؟ لقدْ خاطبَني على أنّني « سيِّدُهُ » ، وَلكِنّهُ يعْلمُ يقينًا مَنْ مِنّا الّذي يأْمُرُ ، وَمنِ الّذي عليْهِ أنْ يُطيعَ . »

فسألْتُهُ : « وَماذا إذا أنْجبَ الزّوْجانِ أطْفالًا ؟ ماذا إذا أوْجدا جِنْسًا جديدًا في أمْريكا الجنوبيّةِ يكونُ عدُوًّا لِلْجِنْسِ البشَريّ ؟ »

فأجابَ فرانْكنِشْتاين : « بلْ إنّني لا أثِقُ في أنّهُ سوْفَ يفي بِوَعْدِهِ وَيذْهبُ إلى أمْريكا الجنوبيّةِ ، وَلكِنّها فُرصةٌ كانَ عليّ أنْ أنْتهِزَها . ماذا أسْتطيعُ أنْ أفْعلَ ياهنْري ؟ إنّهُ يروحُ وَيغْدو كما يشاءُ ، وَهُوَ يمْلِكُ مِنَ القُدْراتِ ما يفوقُ قُدْراتِ البشَرِ ، وَلسوْفَ يُدمِّرُ أسْرتي إذا لمْ أفْعلْ ما يُريدُ . إنّ اللهَ وَحْدَهُ يعْلمُ أنّني أكْرهُهُ ، وَلكِنّني لا أمْلِكُ إلّا الرُّضوخَ لهُ ، وَعليّ الآنَ أنْ أوجِدَ مِسْخًا آخرَ . » وَهُنا توقّفَ كما لوْ كانَ في رَيْبٍ مِمّا يقولُ ، ثُمّ أضافَ : « وَمرّةً ثانيةً سوْفَ أكونُ في حاجةٍ إلى معونتِكَ ، فهلْ لدَيْكَ الرّغْبةُ في تقْديمِ المعونةِ ؟ »

كانتْ هٰذِهِ هِيَ المُشْكِلةَ الّتي كُنْتُ أخْشاها . لقدْ قدّمْتُ بعْضَ العوْنِ في إيجادِ المِسْخِ

الأوّلِ . وَكانَ هٰذا المِسْخُ منْسوبًا إلى فرانْكنِشْتاين ، فهلْ يُنْسبُ المِسْخُ الثّاني إليْهِ وَحْدَهُ ، أمْ إليْنا مَعًا ؟ إنّني أعْتقِدُ أنّهُ ليْسَ مِنَ الصّوابِ أنْ يُوجدَ مِسْخٌ آخرُ ، وَمعَ هٰذا ، فإذا لمْ أُقدِّمِ العوْنَ ، وَلمْ يُوجِدِ المِسْخُ الثّاني ، فمعْنى هٰذا أنّني أتْرُكُ فرانْكنِشْتاين لِيُواجِهَ المَوْتَ المُحقّقَ . ثُمّ إنّ هُناكَ وَجْهًا آخرَ لِلْموضوعِ . فحتّى بعْدَ ما حدَثَ ، كانَ مِنَ الواجِبِ عليّ أنْ أكونَ مُنْصِفًا لِلْمِسْخِ . أليْسَ مِنْ حقِّهِ أنْ يكونَ سعيدًا ؟ لقدْ ظلّتْ تتردّدُ في سمْعي كلِماتُهُ الّتي قالَها : « اجْعلْني سعيدًا فأكونَ خيِّرًا . » لقدِ ارْتُكِبتْ غلْطةٌ بِإيجادِ المِسْخِ الأوّلِ ، أمّا وَقدْ وُجِدَ وَأصْبحَ واقِعًا ، أفلا يكونُ فرانْكنِشْتاين عَلى حقٍّ حِينَ يوجِدُ آخرَ ؟!

وَأخيرًا قُلْتُ : « سوْفَ أعاوِنُكَ ، وَلكِنْ بِتزْويدِكَ بِكُلِّ ما تحْتاجُ إليْهِ فحسْبُ .. بِإطْعامِكَ ، بِحمْلِ الرّسائِلِ مِنَ المكانِ الّذي تعْمَلُ فيهِ وَإليْهِ . وَلكِنّني لنْ أُشارِكَ في العمَلِ نفْسِهِ . »

قالَ فرانْكنِشْتاين مُجيبًا : « لسْتُ أطْلُبُ مِنْكَ أكْثرَ مِنْ ذٰلِكَ . »

عُدْنا إلى بلْريف في اليوْمِ التّالي ، وَكانَ القطْسُ فيها لا يزالُ لطيفًا ، فبدأْنا – مرّةً أُخرى – نُمارِسُ حياتنا الأُسْرِيّةَ السّعيدةَ الّتي كِدْنا ننْساها . كانَ مَوْتُ جوستين وَوِلْيام لا يزالُ ماثِلًا في ذِهْنيْنا ، وَلكِنّهُ لمْ يكُنْ يُخيِّمُ عليْنا كالسُّحُبِ القاتِمةِ مِثْلما كانَ مِنْ قبْلُ . أمّا بِالنِّسْبةِ لِلْوَعْدِ الّذي وَعدَهُ فرانْكنِشْتاين لِلْمِسْخِ ، فقدْ كانَ يبْدو أنّهُ يسْتبْعِدُهُ مِنْ تفْكيرِهِ تمامًا في خِلالِ الأسابيعِ القليلةِ التّالية .

كانَ الوقْتُ يمْضي بهيجًا ، وَكُنّا نخْرُجُ لِنُزْهةٍ في الزّوْرقِ ، أوْ نقْرأُ في الحديقةِ ، أوْ نذْهبُ لِلتّجْوالِ في التِّلالِ . كُنّا نفْعلُ كُلَّ شيْءٍ فيما عدا الشُّروعَ في العمَلِ في المِسْخِ الجديدِ . كانَ فرانْكنِشْتاين يلْتمِسُ كثيرًا مِنَ الأعْذارِ لِتبْريرِ الانْتِظارِ ، حتّى لقدْ بدأْتُ أتساءلُ إذا كانَ سيشْرَعُ فيهِ البتّةَ .

أخيرًا دَفَعَهُ إلى الشُّروعِ في العَمَلِ أمْرانِ ، أوَّلُهما أنَّ والِدَهُ استَدْعاهُ ذاتَ يَوْمٍ إلى حُجْرَتِهِ وقالَ لَهُ : « فيكْتور ! لَعَلَّكَ تَذْكُرُ أنَّ والِدَتَكَ – قَبْلَ أنْ تُفارِقَ الحَياةَ مُباشَرَةً – قَدْ أخْبَرَتْكَ بِأعَزِّ أمانِيها ، وأنا الآنَ يابُنَيَّ شَيْخٌ كَبيرٌ ، وإنَّهُ لَيُسْعِدُني قَبْلَ أنْ أموتَ أنْ أرى هٰذِهِ الأُمْنِيَّةَ قَدْ تَحَقَّقَتْ . رُبَّما يَكونُ تَفْكيرُكَ مُتَّجِهًا الآنَ إلى إليزابيث كَأُخْتٍ لَكَ أكْثَرَ مِمّا يَتَّجِهُ إلَيْها كَزَوْجَةٍ مُرْتَقَبَةٍ ، بَلْ لَعَلَّكَ عَلى صِلَةٍ بِفَتاةٍ أُخْرى تَميلُ إلَيْها أكْثَرَ مِمّا تَميلُ إلى إليزابيث . فَإذا كانَ الأمْرُ كَذٰلِكَ فَكُنْ صَريحًا مَعي ، فَأنا لَسْتُ مِنَ الآباءِ الَّذينَ يُكْرِهونَ أبْناءَهُم عَلى الزَّواجِ ضِدَّ رَغَباتِهِمْ . فَأرْجو أنْ تُفَكِّرَ في الأمْرِ ، فَإذا لَمْ تَكُنْ لَدَيْكَ نِيَّةُ الزَّواجِ بِها فَلا بُدَّ أنْ تُفَكِّرَ في شَخْصٍ آخَرَ يَصْلُحُ لَها ، فَمِنْ حَقِّها أنْ تَعْرِفَ حَقيقَةَ مَشاعِرِكَ نَحْوَها . »

أدْرَكَ فرانْكِنشْتاين أنَّ والِدَهُ عَلى حَقٍّ ، فَإليزابيث يَجِبُ أنْ تَعْرِفَ مَوْقِفَهُ مِنْها ولَوْ أنَّها لَمْ تُشِرْ قَطُّ إلى مَوْضوعِ الزَّواجِ . بَلْ إنَّها لَمْ تَدَعْهُ يُحِسُّ أنَّها تُفَكِّرُ في هٰذا المَوْضوعِ . أمّا مِنْ حَيْثُ مَشاعِرُهُ نَحْوَها فَإنَّ الأمْرَ كانَ واضِحًا كُلَّ الوُضوحِ لَهُ . نَعَمْ .. إنَّهُ راغِبٌ في الزَّواجِ بِها ، ولَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ أدْنى شَكٍّ في ذٰلِكَ مُنْذُ وَفاةِ جوسْتين ، ولٰكِنْ لَمْ يَحِنِ الوَقْتُ بَعْدُ ، فَعَلَيْهِ أوَّلًا أنْ يُنْجِزَ وَعْدَهُ لِلْمِسْخِ .

كانَ هٰذا واحِدًا مِنْ سَبَبَيْنِ جَعَلاهُ يُقَرِّرُ البَدْءَ في العَمَلِ ، فَماذا كانَ الآخَرُ ؟

لَمْ تَكُنْ إليزابيث مُجَرَّدَ مُدَبِّرَةِ بَيْتٍ بَسيطَةٍ ، وإنَّما كانَتْ ذاتَ بَديهَةٍ حاضِرَةٍ ، وحُبُّ اسْتِطْلاعٍ طَبيعِيٍّ تَشْتَهِرُ بِهِ النِّساءُ . وقَدْ أدْرَكَتْ بِفِطْنَتِها أنَّ تَعاسَةَ فرانْكِنشْتاين لَمْ تَكُنْ نَتيجَةَ مَوْتِ ولْيام وجوسْتين فَحَسْبُ ، ولٰكِنْ هُناكَ شَيْءٌ آخَرُ يُقْلِقُهُ . وكانَتْ تَوّاقَةً لِأنْ تَعْرِفَ ما هوَ ، كَما أنَّ اهْتِمامَها هٰذا لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ حُبِّ اسْتِطْلاعٍ ، وإنَّما كانَتْ تُحِبُّ صَديقي ، وكانَتْ تَرْغَبُ في أن تَعْرِفَ سِرَّهُ فَقَطْ لِكَيْ تَتَمَكَّنَ مِنْ مُساعَدَتِهِ .

عَلى أيَّةِ حالٍ ، كُنّا – أنا وفيكْتور – دائِمًا حَريصَيْنِ أشَدَّ الحِرْصِ عَلى أنْ نُخْفِيَ عَنْها حَقيقَةَ الأمْرِ ، فَقَدْ وَجَدْنا أنَّهُ مِنَ الخَيْرِ لَها ألّا تَعْلَمَ . وقَدْ أسِفْنا كُلَّ الأسَفِ حينَما وَقَعَ لَها ذاتَ لَيْلَةٍ حادِثٌ شَديدُ الإيلامِ شَغَلَ تَفْكيرَها كَثيرًا .

كُنّا في هٰذِهِ الفَتْرَةِ نَذْهَبُ إلى فِراشِنا في وَقْتٍ مُبَكِّرٍ إذْ لَمْ يَكُنْ في الرِّيفِ ما يَدْعونا إلى السَّهَرِ . وإلى جانِبِ هٰذا ، لَمْ يَكُنْ سَهْلًا عَلى فرانْكِنشْتاين أنْ يَتَحَدَّثَ إلى كُلٍّ مِنْ أبيهِ وإليزابيث ، فَقَدْ كانَ في جَعْبَتِهِ الكَثيرُ مِمّا يَرْغَبُ في إخْفائِهِ عَنْهُما ، ولَدَيْهِ الكَثيرُ مِمّا لا يَسْتَطيعُ أنْ يَتَحَدَّثَ بِهِ إلّا إلَيَّ . وعَلى هٰذا فَفي لَيْلَةٍ سَكَنَتْ رِيحُها وغابَ قَمَرُها – وكانَ ذٰلِكَ بَعْدَ حَديثٍ فرانْكِنشْتاين الأبِ مَعَ ابْنِهِ بِأيّامٍ قَليلَةٍ – كانَتْ إليزابيث مُسْتَلْقِيَةً في فِراشِها

تَقْرَأُ فِي ضَوْءِ شَمْعَةٍ ، وَكانتِ ٱلنّافِذَةُ ٱلمَفْتوحةُ فِي مُواجَهَتِها تُشَكِّلُ لَوْحةً مُرَبَّعةً مُظْلِمةً . وَمِنْ خِلالِ ٱلنّافِذةِ كانَتْ تَدْخُلُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ أَشْياءُ صَغيرةٌ مُتَطايِرةٌ يَجْذِبُها ضَوْءُ ٱلشَّمْعةِ . حامَتْ إِحْدى ٱلحَشَراتِ ٱلطّائِرةِ داخِلَ ٱلنّافِذةِ فَاشْرَأَبَّتْ إليزابيث بِرَأْسِها عَنِ ٱلكِتابِ ، وَإِذا بِمَظْهَرِ ٱلنّافِذةِ يَجْذِبُ نَظَرَها . فَقَدْ كانَ هُناكَ شَيْءٌ مُخْتَلِفٌ مِنْ حَيْثُ ٱلشَّكْلِ وَٱلهَيْكَلِ .. شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مِنْ قَبْلُ . فَتَطَلَّعَتْ ثانيةً لِتَتَحَقَّقَ مِمّا تَرى : كانَتْ هُناكَ يَدانِ ضَخْمتانِ بُنِّيَتانِ مَكْسوّتانِ بِٱلشَّعْرِ قَدْ ظَهَرَتا مِنْ أَسْفَلِ ٱلنّافِذةِ . وَأَخَذَتْ تُدَقِّقُ ٱلنَّظَرَ وَقَدْ تَمَلَّكَها ٱلذُّعْرُ فَشَلَّ حَرَكَتَها وَأَلْجَمَ لِسانَها ، وَإِذا بِٱلْيَدَيْنِ تَتَحَوَّلانِ إلى ٱللَّوْنِ ٱلأَبْيَضِ حِيْنَما بَدَأَ صاحِبُهُما يَرْفَعُ جِسْمَهُ إلى أَعْلى .

كانَتْ إليزابيث عَلى اسْتِعْدادٍ لِأَنْ تُفاجَأَ بِوَجْهِ لِصٍّ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ بِمِثْلِ هٰذا .. لَيْسَ بِهٰذا ٱلجِلْدِ ٱلمُتَرَهِّلِ ٱلأَصْفَرِ .. لَيْسَ بِهاتَيْنِ ٱلعَيْنَيْنِ وَهٰذا ٱلشَّعْرِ ٱلكَثِّ ٱلمُعَقَّدِ .. لَيْسَ بِهٰذِهِ ٱلخُطوطِ ٱلبارِزةِ ٱلمُتَّصِلةِ . وَأَخيرًا ، أَطْلَقَتْ صَيْحةً مُدَوِّيةً ، فَهَبَطَ بِجِسْمِهِ إلى ما تَحْتَ ٱلنّافِذةِ وَٱخْتَفَتِ ٱليَدانِ . وَلَمْ تَمْضِ لَحَظاتٌ حَتّى كُنْتُ فِي حُجْرَتِها أَسْتَمِعُ إلى قِصَّتِها . ثُمَّ أَشْعَلْتُ مِصْباحًا وَخَرَجْتُ إلى ٱلحَديقةِ ، وَسارَعْتُ إلى إزاحةِ بَعْضِ ٱلتُّرابِ بِقَدَمَيَّ لِتَغْطِيةِ آثارِ ٱلأَقْدامِ ٱلَّتي وَجَدْتُها فِي ٱلتُّرْبةِ ٱلمَلْساءِ لِحَوْضِ ٱلزُّهورِ ٱلَّذي يَقَعُ تَحْتَ نافِذةِ إليزابيث . وَارْتَفَعَ صَوْتُ فرانْكِنشْتاين مِنَ ٱلحُجْرةِ ٱلَّتي تَعْلوني وَهوَ يَقولُ لِإليزابيث : « حُلْمٌ ! حُلْمٌ مُزْعِجٌ !

فَأَجابَتْ إليزابيث وَهيَ تَخْطو نَحْوَ ٱلنّافِذةِ : « أَقولُها لَكَ مَرَّةً ثانيةً ، إِنَّهُ لَيْسَ حُلْمًا ياڤيكْتور . »

ثُمَّ وَجَّهَتِ ٱلكَلامَ إِلَيَّ : « هَلْ تَرى أَيَّ شَيْءٍ هُناكَ ياهَنْري ؟ »

فَقُلْتُ صادِقًا : « لا شَيْءَ . » وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا عَمّا كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ مِنْ قَبْلُ ، فَقالَ فرانْكِنشْتاين :

« هَلْ تَرَيْنَ ؟ كَيْفَ يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَضَعَ يَدَيهِ عَلى نافِذَتِكِ وَيَرْفَعَ نَفْسَهُ إلى أَعْلى كَما تَقولينَ ؟! إِنَّ ٱلنّافِذةَ تَرْتَفِعُ عَنِ ٱلأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثةِ أَمْتارٍ . كَيْفَ يَسْتَطيعُ إِنْسانٌ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مِثْلَ ذٰلِكَ إِلّا إِذا كانَ طَويلًا طُولًا غَيْرَ طَبيعيٍّ ؟! »

في صَبيحةِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي ، جاءَ فرانْكِنشْتاين إلى حُجْرَتي وَعَلى وَجْهِهِ نَظْرةُ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذي اتَّخَذَ قَرارًا بِأَنْ يَبْدَأَ ٱلعَمَلَ ، وَقالَ :

« لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَدَعَ ٱلأُمورَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ . إِنَّ هٰذا ٱلمَخْلوقَ دائِبٌ عَلى مُراقَبَتِنا مُنْذُ أُسابيعَ ، وَلا بُدَّ أَنَّهُ كانَ يَسْعى إلى مُقابَلَتي فِي ٱللَّيْلةِ ٱلماضيةِ فَأَخْطَأَ ٱلنّافِذةَ . أَنا واثِقٌ أَنَّهُ لَنْ يَتْرُكَني لِحالي مالَمْ أُحَقِّقْ لَهُ ما يُريدُ . وَلا يُمْكِنُني أَنْ أَدَعَ لَهُ فُرْصةَ زيارةٍ أُخرى كَزيارةِ

اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ . وَفَوْق هٰذا ، فَمَنْ يَدْري ؟ فَرُبَّما تَكونُ إليزابيث فِعْلًا هَدَفَهُ مِنَ الزِّيارَةِ في المَرَّةِ القادِمَةِ ، إنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَدَعَها في رُعْبٍ مِثْلِ هٰذا . لا بُدَّ أَنْ نَبْدَأَ العَمَلَ في الحالِ . »

فَقُلْتُ : « وَلٰكِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ العَمَلَ هُنا ، فَهي تُدْرِكُ الآنَ أَنَّ هُناكَ شَيْئًا ما يَحْدُثُ في الخَفاءِ . »

فَرَدَّ قائِلًا : « تَمامًا ، وَهٰذا هوَ السَّبَبُ في أَنَّني سَأَتْرُكُ المَدينَةَ ، فَفي أَثْناءِ بَحْثي عَنِ المِسْخِ في مَطْلَعِ هٰذا العامِ وَجَدْتُ بالمُصادَفَةِ كُوخَ حَطّابٍ خالِيًا في وادي نَهْرِ آرْفي ، وَهوَ يَبْعُدُ عَنْ بلْريف بِما يَكْفي لِيَجْعَلَهُ آمِنًا مِنْ زيارَةِ أَفْرادِ الأُسْرَةِ ، وَهوَ قَريبٌ مِنْ جِنيف بِما يُيَسِّرُ تَوْفيرَ المُؤْنِ وَالمُعَدّاتِ الَّتي أَحْتاجُ إِلَيْها . »

فَسَأَلْتُهُ : « وَماهِيَ مُهِمَّتي ؟ »

فَأَجابَ : « لَعَلَّ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تُقيمَ هُنا مُعْظَمَ الوَقْتِ ، وَحينَما يَتَعَذَّرُ ذٰلِكَ فَسَوْفَ تَزورُني مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ وَتُحْضِرُ إِلَيَّ الطَّعامَ وَالرَّسائِلَ . » وَتَوَقَّفَ لَحَظاتٍ وَهوَ يُفَكِّرُ ، ثُمَّ قالَ : « هُناكَ شَيْءٌ آخَرُ أُريدُكَ أَنْ تَقومَ بِهِ . » فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ مُسْتَطْلِعًا ، فَقالَ : « إذا حَدَثَ – لِسَبَبٍ ما – أَنَّني أَخْفَقْتُ في إكْمالِ هٰذا العَمَلِ ، فَرُبَّما لا أَكونُ أَوَّلَ مَنْ يُعاني ، وَلٰكِنْ إليزابيث .. احْرُسْها ، وَكُنْ مُتَأَهِّبًا لِأَيِّ شَيْءٍ . »

الفَصْلُ الخامِس عَشَرَ

كانَ أَوَّلُ ما فَعَلَهُ فرانْكِنشْتاين بَعْدَ تَناوُلِ الإفْطارِ في هٰذا اليَوْمِ أَنَّهُ أَخَذَ إليزابيث إلى رُكْنٍ هادِئٍ في الحَديقَةِ حَيْثُ طَلَبَ مِنْها أَنْ تَقْبَلَهُ زَوْجًا ، وَلَمْ تَقُلْ إليزابيث لا ، وَعادا إلى المَنْزِلِ وَهُما مُبْتَسِمان . وَبَيْنَما كُنْتُ أُصافِحُ صَديقي وَأُهَنِّئُ إليزابيث أَحْسَسْتُ بِالسَّعادَةِ لِأَنَّهُما سَعيدانِ . وَلٰكِنّي – في الوَقْتِ نَفْسِهِ – أَحْسَسْتُ بِبَعْضِ الحُزْنِ . كُنّا – نَحْنُ الثَّلاثَةَ – أَصْدِقاءَ مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ . وَمَعَ أَنَّ الزَّواجَ سَوْفَ يَجْمَعُ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنّا لِيَكونا أَكْثَرَ الْتِصاقًا ، فَمِنَ المُحَقَّقِ أَنَّهُ سَوْفَ يُبْعِدُ ما بَيْنَهُما وَبَيْنَ ثالِثِ الثَّلاثَةِ . وَأَقولُ الصِّدْقَ ، لَقَدْ كُنْتُ أَنا نَفْسي أُحِبُّ إليزابيث حُبًّا لَيْسَ بِالقَليلِ .

عَلى أَيَّةِ حالٍ ، لَمْ يَكُنْ هٰذا وَقْتَ التَّفْكيرِ في الحُبِّ . وَبَعْدَ أَنْ حُدِّدَ يَوْمٌ في شَهْرِ نوفمبر لِلزِّفافِ ، أَخَذَ فرانْكِنشْتاين يَتَحَدَّثُ عَنْ خُطَطِهِ فَقالَ لِأَبيهِ :

« أَبي ، سَيَكونُ مِنْ دَواعي سُروري أَنْ تَعْرِفَ أَنَّني عَزَمْتُ أَخيرًا على أَنْ أَسْتَأْنِفَ دِراساتي العِلْمِيَّةَ لِبَعْضِ الوَقْتِ . وَمِنْ أَجْلِ هٰذا ، فَأَنا في حاجَةٍ إلى السَّكينَةِ وَالهُدوءِ ، وَإلى التَّحَرُّرِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمِنْ أَيِّ إنْسانٍ . »

وَهُنا ، نَظَرَ إلى إليزابيث مُبْتَسِمًا ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ يُكْمِلُ حَديثَهُ : « مِنْ أَيِّ إنْسانٍ يُمْكِنُ أَنْ يَشْغَلَني عَنْ عَمَلي . وَلِذٰلِكَ سَوْفَ أَنْتَقِلُ إلى كُوخٍ في وادي نَهْرِ آرْفي حَيْثُ أَسْتَطيعُ أَنْ أَقومَ بِتَجارِبي . »

فَسَأَلَتْ إليزابيث : « أَلَنْ أَراكَ أَلْبَتَّةَ إذًا ؟ »

فَأَجابَ : « سَيَكونُ ذٰلِكَ لِمُدَّةِ شَهْرَيْنِ فَقَطْ . »

قالَتْ : « شَهْرَيْنِ ؟ »

فَقُلْتُ : « إنَّكِ لَنْ تَفْقِدي شَيْئًا بِعَدَمِ رُؤْيَتِهِ ، فَأَنا أَعْلَمُ حالَهُ حينَما يَكونُ مُنْهَمِكًا في عَمَلِهِ . إنَّهُ لا يُفَكِّرُ حينَئِذٍ إلّا في تَجارِبِهِ . »

وَاسْتَمَرّ فرانْكِنشْتاين يَقولُ : « وَتَسْتَطيعينَ أَنْ تَكْتُبي إِلَيّ بِالطّبْعِ ، وَسَوْفَ يَزورُني هَنْري مِنْ آنٍ لِآخَرَ وَيُحْضِرُ إِلَيّ الطّعامَ وَبَعْضَ الأَشْياءِ الأُخْرى . وَهُوَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَحْمِلَ إِلَيّ رَسائِلَكِ أَيْضًا . »

فَقالَتْ إليزابيث : « وَيَأْتي إِلَيّ بِرَسائِلِكَ إِذا كانَ لَدَيْكَ وَقْتٌ لِتَكْتُبَ إِلَيّ . »

قالَتْ ذٰلِكَ وَابْتَسَمَتْ . وَلٰكِنْ كانَ واضِحًا أَنَّها تَشْعُرُ بِأَلَمٍ ، وَتُحِسّ كَأَنَّما هِيَ غَيْرُ مَرْغوبٍ فيها .

كانَ فرانْكِنشْتاين الأَبُ سَعيدًا لِأَنَّ الزَّواجَ الَّذي كانَ تَوّاقًا إِلَيْهِ قَدْ حُدِّدَ ميعادُهُ أَخيرًا . وَكانَ سَعيدًا كَذٰلِكَ لِأَنَّ ابْنَهُ عَزَمَ عَلى اسْتِئْنافِ العَمَلِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّ أَنْ يَراهُ هائِمًا عَلى وَجْهِهِ في المَناطِقِ الرِّيفِيَّةِ مَهْمومًا – وَكَما كانَ يَبْدو لَهُ – يَسيرُ مِنْ غَيْرِ هَدَفٍ . وَمَعَ أَنَّ الرَّجُلَ كانَ آسِفًا لِأَنَّ ابْنَهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَقومَ بِدِراساتِهِ في مَوْطِنِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُثِرْ أَيَّةَ عَقَبَةٍ في سَبيلِ رَحيلِهِ .

أَمّا إليزابيث فَقَدْ كانَتْ – مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى – تُدْرِكُ أَنَّنا لَمْ نَكُنْ نَقولُ الحَقيقَةَ كُلَّها ، وَكانَ ذٰلِكَ مَدْعاةً لِازْديادِ أَلَمِها . لَقَدِ اخْتَزَنَتْ شُكوكَها لِنَفْسِها بَعْدَ ما ظَهَرَ لَها « الوَجْهُ » مِنَ النّافِذَةِ ، وَالآنَ فَعَلَتْ نَفْسَ الشَّيْءِ . وَلٰكِنّي كُنْتُ أُدْرِكُ ما يَعْتَمِلُ في نَفْسِها . كُنْتُ أُدْرِكُ أَنَّها تَكْرَهُ أَنْ يَطْلُبَ أَحَدٌ يَدَها لِلزَّواجِ في لَحْظَةٍ ، ثُمَّ يُخْبِرُها بِقِصَصٍ كاذِبَةٍ في اللَّحْظَةِ الَّتي تَليها .

قَضَيْنا بَقِيَّةَ هٰذا اليَوْمِ في وَضْعِ أَدَواتِ فرانْكِنشْتاين وَأَجْهِزَتِهِ العِلْمِيَّةِ في صَناديقَ ، وَكَذٰلِكَ كُلِّ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ لِلإِقامَةِ في الكوخِ . ثُمَّ حَمَلْتُ الصَّناديقَ إِلى القَرْيَةِ ، وَفي الصَّباحِ الباكِرِ رَحَلْنا إِلى وادي نَهْرِ آرْفي .

وَكانَتْ رِحْلَةً صامِتَةً ، فَقَدْ كانَ فرانْكِنشْتاين مُسْتَغْرِقًا في أَفْكارِهِ مُعْظَمَ الوَقْتِ . أَمّا أَنا

فَقَدْ كُنْتُ سَعيدًا لِسَبَبٍ بَسيطٍ ، هُوَ أَنَّني كُنْتُ مُسْتَمْتِعًا بِجَمالِ الجَوِّ في أُخْرَياتِ الصَّيْفِ . وَهٰكَذا مَرَّتِ السّاعاتُ سِراعًا .

كانَ اخْتِيارُ الكوخِ مُوَفَّقًا ، إِذْ كانَ مُحاطًا بِالأَشْجارِ ، بَعيدًا بُعْدًا مُناسِبًا عَنِ الطَّريقِ المُؤَدّي إِلى الوادي ، فَهُوَ لَيْسَ بِالمَكانِ الَّذي يَطْرُقُهُ أَيُّ عابِرٍ بِطَريقِ المُصادَفَةِ . وَكانَ هُناكَ جَدْوَلٌ مُتَدَفِّقٌ يَجْري عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ وَيَتَّصِلُ بِمِياهِ نَهْرِ آرْفي الرَّماديَّةِ عِنْدَ نُقْطَةٍ مُنْخَفِضَةٍ قَليلًا في جَنوبِ الوادي .

ها هُنا اسْتَقَرَّ فرانْكِنشْتاين ، وَبَعْدَ أَنْ تَلَقّى مَزيدًا مِنَ المُعَدّاتِ مِنْ جِنيفَ بَدَأَ يَعْمَلُ . وَحينَما أَقولُ « مُعَدّاتٌ » فَإِنَّني أَعْني في الأَغْلَبِ « المُعَدّاتِ العِلْمِيَّةَ » كَالأَنابيبِ الزُّجاجِيَّةِ ، وَالقَنانيِّ ، وَالأَسْلاكِ ، وَالمَواقِدِ .. إِلَخ . وَلٰكِنْ كانَ هُناكَ نَوْعٌ آخَرُ مِنَ المُعَدّاتِ لا يُشْتَرى مِنْ تُجّارِ جِنيفَ ، وَإِنَّما كانَ فرانْكِنشْتاين يُعْطيني رَسائِلَ أَحْمِلُها إِلى رِجالٍ يُقيمونَ في أَفْقَرِ أَحْياءِ المَدينَةِ ، وَهٰؤُلاءِ الرِّجالُ – إِنْ لَمْ يَكونوا لُصوصًا حَقًّا – فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ لَهُمْ طِباعَ اللُّصوصِ وَمَظْهَرَهُمْ .

كانَتْ هٰذِهِ الرَّسائِلُ أَشْبَهَ بِطَلَباتِ تَوْريدٍ فَقَطْ ، أَمّا الذَّهابُ لِلتَّسَلُّمِ بَعْدَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ هُوَ الجانِبَ الأَسْوَأَ .

كانَ فرانْكِنشْتاين يَقولُ لي : « مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ يَكونَ ذَهابُكَ لِلتَّسَلُّمِ لَيْلًا حَيْثُ تَكونُ الشَّوارِعُ شِبْهَ خالِيَةٍ فَلا تَجِدُ كَثيرًا مِنَ النّاسِ الَّذينَ يُوَجِّهونَ أَسْئِلَةً . »

وَهٰذِهِ الأَسْئِلَةُ قَدْ تَكونُ حَوْلَ الأَشْياءِ المَرْبوطَةِ بِإِحْكامٍ ، الثَّقيلَةِ الوَزْنِ ، الَّتي يَبْلُغُ طولُ بَعْضِها أَحْيانًا نَحْوَ مِتْرَيْنِ ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا اسْتَوْقَفَني وَفَتَّشَ فيما مَعي لَما كانَ مِنَ السَّهْلِ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ جَوابًا مُناسِبًا . وَعَلى أَيَّةِ حالٍ ، فَقَدْ فَعَلْتُ ما طَلَبَهُ مِنّي . وَحينَما كُنْتُ أَصِلُ إِلى الكوخِ ، كانَ يَسْتَعينُ بي دائِمًا في حَمْلِ هٰذِهِ الأَشْياءِ إِلى الدّاخِلِ . وَعِنْدَما يَبْدَأُ في

اسْتِخْدامِها كُنْتُ أَخْرُجُ لِلتَّجْوالِ في الْغابةِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَدْخُلُ حُجْرةَ الْمَعْمَلِ عَلى الإِطْلاقِ ، إِذْ إِنَّ الرَّائِحةَ كانَتْ كَريهةً فيها ، كَما أَنَّهُ كانَ فيها الْكَثيرُ مِمّا لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ أَنْ أَراهُ .

اسْتَمَرَّ الْعَمَلُ طَوالَ شَهْرِ سِبْتمبر ، ثُمَّ دَخَلَ شَهْرُ أُكْتوبَر ، وَفي أَثْناءِ الْعَمَلِ كانَ فرانْكِنِشْتاين يَحْتاجُ أَحْيانًا إِلى قَليلٍ مِنَ الْمُعَدّاتِ . وَلِذٰلِكَ كُنْتُ أَقْضي وَقْتًا أَطْوَلَ في بلْريف ، وَهِيَ الْمَكانُ الَّذي كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَكونَ فيهِ . وَمَعَ هٰذا ، كانَتْ هُناكَ بَعْضُ الصُّعوباتِ تُواجِهُني في هٰذا الْمَكانِ ، وكانَتِ الْمُشْكِلةُ أَنَّ إِليزابيث بَدَأَتْ تَوَجُّهُ أَسْئِلةً عَنْ عَمَلِ فرانْكِنِشْتاين ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ تَجَنُّبَها . لَمْ أَكُنْ أُريدُ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْها ، كَما أَنَّني لَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أُخْبِرَها بِالْحَقيقةِ بِحَذافيرِها . كانَتْ كَثيرًا ما تَقولُ لي :

« هَنْري .. لِماذا لا تَأْخُذُني إِلى الْكوخِ حيْنَما تَذْهَبُ في الْمَرَّةِ الْقادِمةِ ؟ سَوْفَ تَكونُ مُفاجَأَةً طَيِّبةً لَهُ . »

وَكُنْتُ أُجيبُها : « ياعَزيزَتي إِليزابيث ، لَقَدْ قُلْتُ لَكِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الرِّحْلةَ طَويلةٌ مُرْهِقةٌ . وَأَنْتِ تَعْلَمينَ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ فيكْتور لَنْ يَسْتَطيعَ إِنْجازَ أَيِّ عَمَلٍ حيْنَما تَكونينَ هُناكَ ؛ إِنَّهُ مَشْغولٌ جِدًّا . »

وَكانَتْ تَقولُ : « أَوَدُّ لَوْ أَنَّكَ أَخْبَرْتَني شَيْئًا عَنِ الْعَمَلِ الَّذي يَقومُ بِهِ . »

فَأُجيبُ في ضَعْف : « إِنَّني لَسْتُ عالِمًا مِثْلَ فيكْتور . إِنَّني لا أَعْرِفُ عَنْ عَمَلِهِ شَيْئًا . »

وَكانَتْ تَقولُ : « هَنْري ، أَنْتَ تَعْرِفُ ، وَلٰكِنَّكَ لا تُريدُ أَنْ تُخْبِرَني . ياإِلٰهي ، كَيْفَ تُعامِلُني بِهٰذا الأُسْلوبِ ؟ إِنَّنا صَديقانِ مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ . »

كانَ مِثْلُ هٰذا الْحوارِ يَدورُ بَيْنَنا مَرَّةً كُلَّ أُسْبوعٍ تَقْريبًا . وَمَعَ أَنّي أَعْلَمُ أَنَّ إِليزابيث لَمْ تَكُنْ جادَّةً تَمامًا ، وَأَنَّها إِنَّما تَفْعَلُ ذٰلِكَ لِتَسْخَرَ مِنّي ، فَإِنَّها – حَقيقةً – كانَتْ تَوّاقةً لِلاسْتِطْلاعِ ، وَكانَ مِنَ الطَّبيعيِّ أَنْ تَكونَ كَذٰلِكَ .

وَذاتَ مَرَّةٍ عَرَضْتُ عَلى فرانْكِنِشْتاين فِكْرةَ إِطْلاعِ إِليزابيث عَلى كُلِّ شَيْءٍ ، فَنَحْنُ الثَّلاثةَ عِشْنا هٰذِهِ الْفَتْرةَ الطَّويلةَ مِنْ حَياتِنا في صُحْبةٍ مُتآلِفةٍ ، لا يُخْفي أَحَدُنا سِرًّا عَنْ صاحِبِهِ . لِذٰلِكَ ، فَلَعَلَّ مِنَ الْخَطَإِ أَنْ نُخْفِيَ الْحَقيقةَ عَنْها الآنَ . وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَمِعْ إِلَيَّ وَأَنا أُكاشِفُهُ بِالْفِكْرةِ ، لِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ بِوُسْعي إِلّا أَنْ أَسْتَبْعِدَها ، وَأَمْضَيَ فيما كُنْتُ فيهِ .

وَمَعَ ذٰلِكَ ، كانَ هُناكَ أَمْرٌ واحِدٌ يُحَبِّبُ إِلَيَّ الإِقامةَ في بلْريف ، ذٰلِكَ أَنّي – بِبَساطةٍ – لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ أَنْ أَكونَ عِنْدَ الْكوخِ وَبِخاصَّةٍ حيْنَما يَجُنُّ اللَّيْلُ . فَالأَشْجارُ الْمُتَقارِبةُ مُتَشابِكةٌ ، وَالْحُجُراتُ مُظْلِمةٌ قاتِمةٌ ، وَثَمَّةَ شُعورٌ بِالْوَحْدةِ وَالْعُزْلةِ .

وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ كُلَّ ما في الأَمْرِ ، صَحيحٌ أَنَّني كُنْتُ أُحِسُّ بِالْوَحْدةِ عَلى وَجْهٍ ما ، وَلٰكِنْ كانَ هُناكَ وَجْهٌ آخَرُ تَتَبَدَّدُ فيهِ هٰذِهِ الْوَحْدةُ . ذٰلِكَ أَنَّهُ بَيْنَما كانَ فرانْكِنِشْتاين يَعْمَلُ ، كُنْتُ أَخْلو لِنَفْسي مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ فَأَجْلِسُ بِجِوارِ الْجَدْوَلِ أَقْرَأُ في كِتابٍ . وَكُنْتُ أُحِسُّ في مِثْلِ

هٰذِهِ ٱلأَوْقاتِ أَنَّ هُناكَ مَنْ يُراقِبُني . وٱلحَقيقةُ أَنني لَمْ أَرَ مَنْ يُراقِبُني قَطُّ بِٱلرَّغْمِ مِنْ أَنني كُنْتُ أَرى – أَحْيانًا – أَوْراقَ أَيْكةٍ تَتَحَرَّكُ مَعَ أَنَّ ٱلرِّيحَ ساكِنةٌ ، أَوْ أَسْمَعُ أَصْواتَ ٱلشُّجَيْراتِ ٱلجافَّةِ تَتَهَشَّمُ تَحْتَ قَدَمٍ غَيْرِ مَرْئِيَّةٍ . وَمَعَ هٰذا ، فَإِنَّ ٱلمُتَلَصِّصَ كانَ هُناكَ طَوالَ ٱلوَقْتِ ، وَكانَ مِنَ ٱلعَسيرِ أَنْ أَنْساهُ ما حَييتُ .

لَمْ أُثِرْ هٰذا ٱلمَوضوعَ في حَديثي مَعَ فرانْكِنشْتاين إِذْ لَمْ أَكُنْ أَرى ضَرورةً لِذٰلِكَ ، فَهُوَ يَعْلَمُ تَمامًا كَما أَعْلَمُ أَنَّ ٱلمِسْخَ كانَ يَسْعى لِلتَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ ٱلعَمَلَ يَسيرُ في طَريقِهِ ٱلمَرْسومِ .

وَمِنْ ناحِيةٍ أُخْرى ، كُنْتُ مَسْرورًا بِهٰذِهِ ٱلرِّقابَةِ ، ذٰلِكَ أَنَّ عَدُوًّنا ، إِذا كانَ يَعيشُ في مَكانٍ مّا قُرْبَ ٱلكوخِ ، فَهُوَ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ في بِلْريفْ في نَفْسِ ٱلوَقْتِ . وَمَعْنى هٰذا أَنَّ إليزابيث وَفرانْكِنشْتاين ٱلأَبَ سَيَكونانِ آمِنَيْنِ ، وَسَيَظَلّانِ آمِنَيْنِ – عَلى ٱلأَقَلِّ – مادامَ عَمَلُ فرانْكِنشْتاين يَسيرُ سَيْرًا مُرْضيًا .

وَلٰكِنَّني كُنْتُ كَثيرًا ما أُسائِلُ نَفْسي : ما مَعْنى « سَيْرًا مُرْضيًا » ؟ أَكانَ – حَقيقةً – يَسيرُ سَيْرًا مُرْضيًا لِكَيْ يُخْرِجَ إِلى دُنْيا ٱلنّاسِ مِسْخًا آخَرَ ؟

الفَصْلُ ٱلسّادِسَ عَشَرَ

كانَ ٱلعَمَلُ يَسيرُ في تَقَدُّمٍ ، فَفي نِهايةِ أُكْتوبَر اكْتَمَلَ جَسَدُ ٱلمَرْأَةِ ٱلجَديدةِ ، وكانَ فرانْكِنشْتاين في ٱنْتِظارِ ٱلطَّقْسِ ٱلمُناسِبِ لِيَضَعَ فيهِ ٱلحَياةَ . وَلَمْ تَكُنْ لي أَيَّةُ مُشارَكةٍ في عَمَلِ صَديقي ، بَلْ إِنني لَمْ أَكُنْ قَدْ دَخَلْتُ مَعْمَلَهُ مُنْذُ أَسابيعَ عَديدةٍ . أَمّا ٱلآنَ وَقَدِ ٱنْتَهى ٱلعَمَلُ فَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُرْضيَهُ ، فَدَخَلْتُ لِأَرى ما أَنْجَزَهُ . وَهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي أَنْحَني مُتَطَلِّعًا إِلى ٱلإِبْداعِ ٱلثّاني ٱلَّذي قامَ بِهِ صَديقي . فَإِذا ٱمْرَأَةٌ تَرْقُدُ تَحْتَ ٱلسّائِلِ ٱلصّافي كَأَنَّما تَحْلُمُ بِٱلحَياةِ .

وَفي هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ لَمْ يَبْذُلْ فرانْكِنشْتاين أَيَّةَ مُحاوَلةٍ لِإِضْفاءِ ٱلجَمالِ عَلَيْها ، فَقَدْ كانَتْ كَلِماتُ ٱلمِسْخِ ٱلَّتي قالَها في نَهْرِ ٱلجَليدِ هيَ : « ٱجْعَلْها قَبيحةً مِثْلي » ، كَما قالَ بَعْدَ ذٰلِكَ لِفرانْكِنشْتاين حَيْنَ ٱخْتَلى بِهِ : « فَقَطْ .. واحِدةٌ كَهٰذِهِ ، سَتَرْغَبُ في مُعاشَرَتي . »

سَوْفَ يُسَرُّ ٱلمِسْخُ إِذا رَأى كَيْفَ نُفِّذَتْ طَلَباتُهُ بِدِقَّةٍ ، وٱلواقِعُ أَنني أُصابُني ٱلغَثَيانُ حينَما رَأَيْتُ ما أَنْجَزَهُ فرانْكِنشْتاين . فَقَدْ كانَتِ ٱلمَرْأَةُ تُثيرُ ٱلِاشْمِئْزازَ بِصَدْرِها ٱلمُغَطّى بِٱلشَّعْرِ ، وَرِجْلَيها ٱلقَصيرَتَيْنِ ٱلغَليظَتَيْنِ ، وَقَدَمَيْها ٱلهائِلَتَيْنِ . حَقيقةً لَقَدْ جَعَلَ مِنْها بَهيمةً .

وَفَكَّرْتُ في تَأَفُّفٍ وٱمْتِعاضٍ في ٱلحُبِّ ٱلمُتَبادَلِ بَيْنَ هٰذَيْنِ ٱلمَخْلوقَيْنِ ، وَفي جِنْسِ ٱلمُسوخِ ٱلَّذي قَدْ يَتَكاثَرُ كَثَمَرةٍ لِهٰذا ٱلحُبِّ . كُلٌّ مِنْهُم يولَدُ لِيَحْمِلَ ٱلبُغْضَ وٱلكَراهيةَ لِلْجِنْسِ ٱلبَشَريِّ .

وَمَعَ أَنَّ طَبيعةَ عَمَلِ فرانْكِنشْتاين كانَتْ كَفيلةً بِإِثارةِ ٱلتَّقَزُّزِ عِنْدَ مُعْظَمِ ٱلنّاسِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَبْدو عَلَيْهِ ٱلضِّيقُ في أَثْناءِ ٱلأَسابيعِ ٱلماضيةِ ، إِذْ كانَ ٱلعَمَلُ ٱلشّاقُّ دائِمًا يُسْعِدُهُ . أَمّا ٱلآنَ حَيْثُ ٱنْتَهى مِنْ مُهِمَّتِهِ ، فَقَدْ بَدَأَ يَتَمَلَّكُهُ ٱلقَلَقُ وٱلِاضْطِرابُ . وَخَرَجَ يَنْشُدُ ٱلرّاحةَ في جَوْلةٍ طَويلةٍ في ٱلغابةِ ، ثُمَّ عادَ وَهوَ مَكْدودٌ صامِتٌ .

كانَتِ ٱلْمُشْكِلَةُ ٱلَّتي واجَهَتْهُ هيَ مُشْكِلَةَ ٱلْجَوِّ ، فَقَدْ كانَ في حاجَةٍ – لِيُتِمَّ مُهِمَّتَهُ – إلى عاصِفَةٍ رَعْدِيَّةٍ ، أَوْ – عَلى ٱلْأَقَلِّ – إلى سَحابَةٍ رَعْدِيَّةٍ . وَلٰكِنَّ ٱلْجَوَّ ظَلَّ مُشْمِسًا لا سُحُبَ فيهِ عَلى غَيْرِ ٱلْعادَةِ في هٰذا ٱلْوَقْتِ مِنَ ٱلسَّنَةِ ، وَكُلَّما طالَ بِهِ ٱلِانْتِظارُ اتَّسَعَ وَقْتُهُ لِلتَّفْكيرِ . وَكُلَّما اتَّسَعَ وَقْتُهُ لِلتَّفْكيرِ ثارَتِ ٱلشُّكوكُ وَتَزاحَمَتْ في ذِهْنِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ فرانْكِنِشْتاين هوَ ٱلْوَحيدَ ٱلَّذي يُعاني مِنْ طُولِ ٱلِانْتِظارِ ، وَإِنَّما ٱلْمِسْخُ أَيْضًا أَخَذَ يَتَمَلَّكُهُ ٱلضِّيقُ ، وَأَخَذَ ضيقُهُ يَزْدادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . وَفي أَوَّلِ ٱلْأَمْرِ كُنّا نُلاحِظُ آثارَ قَدَمَيْهِ قَريبَةً جِدًّا مِنَ ٱلْكوخِ ثُمَّ – بِمُرورِ ٱلْأَيّامِ – بَدَأَ وَجْهُهُ يَظْهَرُ مِنَ ٱلنّافِذَةِ ، وَتَكَرَّرَ ظُهورُهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ . صَحيحٌ أَنَّهُ لَمْ يُحاوِلِ ٱلدُّخولَ ، كَما أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ كَلِمَةً قَطُّ . وَٱلْواقِعُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ ما يَدْعوهُ إلى ٱلدُّخولِ أَوِ ٱلْكَلامِ . فَقَدْ كانَ مُجَرَّدُ وجودِهِ في ٱلْمَكانِ كافيًا لِلْإِعْرابِ عَمّا يَعْنيهِ .

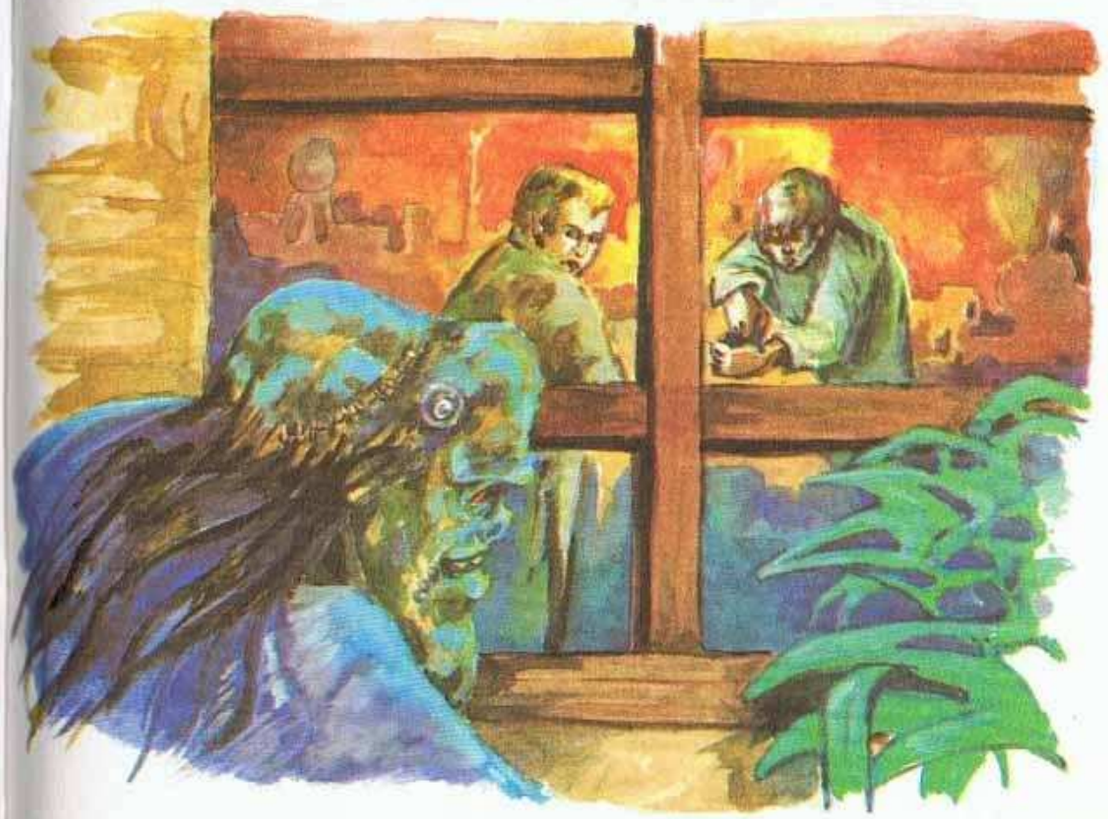

أَقَمْتُ في ٱلْكوخِ خَمْسَةَ أَيّامٍ بَعْدَ اكْتِمالِ ٱلْجَسَدِ ، وَحينَما بَدا أَنَّ ٱلْجَوَّ ٱلصّافِيَ سَوْفَ يَسْتَمِرُّ بَعْضَ ٱلْوَقْتِ ، رَأى فرانْكِنِشْتاين أَنَّهُ يَحْسُنُ بي أَنْ أَعودَ إلى بلْريف . قُلْتُ لَهُ : « سَوْفَ أُراقِبُ ٱلْجَوَّ ، وَأَعودُ إِلَيْكَ بِمُجَرَّدِ أَنْ تَظْهَرَ ٱلسُّحُبُ ، فَلا تُحاوِلْ أَنْ تُكْمِلَ ٱلْعَمَلَ بِنَفْسِكَ فَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْتاجُ إِلَيَّ إذا جَرَتِ ٱلْأُمورُ في غَيْرِ مَجْراها ٱلسَّليمِ . »

فَقالَ في صَوْتٍ تَحْمِلُ نَبَراتُهُ مَعاني خَفِيَّةً : « لَنْ يَحْدُثَ هٰذا . أَنا أَعْرِفُ بِٱلضَّبْطِ ما يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَهُ . »

وَحينَما تَرَكْتُهُ في ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ، كانَ يَنْتابُني إِحْساسٌ بِأَنَّ هُناكَ أَمْرًا مُريبًا .

أَقَمْتُ في بلْريف يَوْمَيْنِ ، وَفي هٰذِهِ ٱلْمَرَّةِ لَمْ تَقُلْ إليزابيث عَنْ فرانْكِنِشْتاين وَٱلْكوخِ إِلّا أَقَلَّ ٱلْقَليلِ مِمّا أَثارَ دَهْشَتي . كانَتْ لَدَيْها مَشاغِلُ مَنْزِلِيَّةٌ كَثيرَةٌ ، وَكانَتْ لَدَيَّ مَشاغِلي أَيْضًا ، وَلِذٰلِكَ لَمْ نَكُنْ نَتَحَدَّثُ إِلّا قَليلًا .

ظَلَّ ٱلْجَوُّ عَلى حالَتِهِ ، وَلٰكِنّي رَأَيْتُ مِنَ ٱلْأَفْضَلِ أَلّا أَكونَ بَعيدًا عَنِ ٱلْكوخِ طَويلًا . وَفي صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي أَزْمَعْتُ ٱلرَّحيلَ ، وَكانَ لَدى فرانْكِنِشْتاين ٱلْأَبِ بَعْضُ أَعْمالٍ في جنيف فَطَلَبَ مِنّي أَنْ أُنْجِزَها نيابَةً عَنْهُ ، وَلِذٰلِكَ عَرَّجْتُ عَلى ٱلْمَدينَةِ في طَريقي . وَلَمْ أَكَدْ أَجْتازُ بَوّابَةَ ٱلْمَدينَةِ حَتّى قابَلْتُ صَديقًا قَديمًا ، فَما إِنْ رَآني حَتّى صاحَ :

« آه ، كلِيرْفال ! ماذا بِحَقِّ ٱللهِ يَفْعَلُ صَديقُكَ فرانْكِنِشْتاين ؟ إِنَّ ٱلْمَدينَةَ كُلَّها تَتَحَدَّثُ عَنْهُ . بَعْضُهُمْ يَقولُ .. » ثُمَّ تَلَفَّتَ حَوْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَمِرَّ قائلًا في صَوْتٍ أَكْثَرَ خُفوتًا : « إِنَّكَ مُتَوَرِّطٌ مَعَهُ كَذٰلِكَ ، وَنَظَرًا لِأَنَّني صَديقٌ قَديمٌ ، فَإِنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُصَدِّقَ ما يُقالُ عَنْكَ أَوْ عَنْ فرانْكِنِشْتاين . وَلٰكِنْ خُذْ حَذَرَكَ ، وَلَعَلَّ ٱلْأَسْلَمَ لَكَ أَلّا يَراكَ أَحَدٌ في جنيف ٱلْآنَ . »

وَقَفْتُ وَأَنا أُحَدِّقُ فيهِ في ذُهولٍ ، وَسَأَلْتُهُ : « أَهيَ دُعابَةٌ ؟ ما هٰذا ٱلَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ؟ »

أجابَ : « أتُريدُ أنْ تَقولَ إنَّكَ لا تَعْرِفُ أنَّ فرانْكِنِشْتاين في ٱلسِّجْنِ ؟ »

فَقُلْتُ كَٱلأَحْمَقِ : « في ٱلسِّجْنِ ؟ مِنْ أَجْلِ ماذا ؟ ماذا فَعَلَ ؟ »

فَأَجابَ : « أوه ، يَقولونَ إنَّهُ قَتَلَ شَخْصًا . إذا لَمْ تَكُنْ سَمِعْتَ بِٱلخَبَرِ فَدَعْني أُخْبِرُكَ بِهِ . لَقَدْ بَدَأَتِ ٱلقِصَّةُ مُنْذُ يَوْمَيْنِ حينَما كانَ أَحَدُ ٱلصَّبِيَةِ يَصْطادُ ٱلسَّمَكَ عَلى ضِفافِ نَهْرِ ٱرْڤي — عَلى بُعْدِ نَحْوِ كيلو مِتْرٍ مِنْ حَيْثُ يَصُبُّ في نَهْرِ ٱلرُّون ، وَوَجَدَ ٱلطِّفْلُ شَيْئًا مُشْتَبِكًا بِأَغْصانِ إِحْدى ٱلأَشْجارِ ٱلَّتي تَمْتَدُّ داخِلَ ٱلماءِ ، فَجَذَبَهُ فَإِذا هُوَ رِجْلٌ آدَمِيَّةٌ . وَبِٱلطَّبْعِ ، هُرِعَ ٱلصَّبِيُّ إلى ٱلسُّلُطاتِ ٱلمَسْؤُولَةِ وَأَخْبَرَهُمْ بِما رَأى . وَتَجَمْهَرَ ٱلنّاسُ لِيَرَوْها ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ شَكٍّ في ٱلأَمْرِ ، فَقَدْ كانَتْ فِعْلًا رِجْلًا آدَمِيَّةً . »

فَسَأَلْتُه وَأنا لا أزالُ عاجِزًا عَنْ تَصَوُّرِ ما حَدَثَ عِنْدَ ٱلكُوخِ بَعْدَ أنْ تَرَكْتُهُ : « وَماذا حَدَثَ بَعْدَ هٰذا ؟ »

فَقالَ : « لَقَدْ فَتَشوا ضِفَّتَيْ نَهْرِ ٱرْڤي كِلْتَيْهِما حَتّى ٱلمَوْقِعِ ٱلَّذي تَنْتَهي فيهِ حُدودُ جنيڤ وَتَبْدَأُ حُدودُ سافوي ، وَذٰلِكَ لِكَيْ يَكْتَشِفوا ما إذا كانَ هُناكَ شَيْءٌ آخَرُ وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ شَيْءٌ . فَهَلْ جاءَتِ ٱلرِّجْلُ مِنْ مَنْبَعِ ٱلنَّهْرِ فى سافوي ؟ إذا كانَ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ فَلَيْسَ هُناكَ ما يَسْتَطيعُ أَهْلُ جنيڤ أنْ يَفْعَلُوهُ حِيالَهُ . وَلٰكِنَّهُمْ — إذْ ذاكَ — عَزَموا عَلى أنْ يُفَتِّشوا في بَعْضِ ٱلجَداوِلِ ٱلَّتي تَصُبُّ في ٱرْڤي . وَقَدْ وَجَدوا في واحِدٍ مِنْها ٱلجُزْءَ ٱلعُلْوِيَّ لِذِراعٍ آدَمِيَّةٍ ، وَكانَتْ — في هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ — مُشْتَبِكَةً في ٱلصُّخورِ . وَعَلى بُعْدٍ قَليلٍ إلى الشَّمالِ كانَ كُوخُ حَطّابٍ ، وَوَجَدوا فيهِ فرانْكِنِشْتاين ٱلَّذي كانَ يَتَأَهَّبُ لِلرَّحيلِ .

« لَمْ يَكُنْ هٰذا كُلَّ ما هُنالِكَ ، بَلْ لَقَدْ وَجَدوا أَيْضًا فَأْسًا وَعَلَيْها دَمٌ جافٌّ . وَهُمْ يَقولونَ إنَّهُ لا بُدَّ أنْ يَكونَ قَدْ قَتَلَ شَخْصًا ما ثُمَّ قَطَّعَ ٱلجُثَّةَ إلى أَجْزاءٍ ، ثُمَّ أَلْقى بِها في ٱلجَدْوَلِ ، فَماذا تَظُنُّ في كُلِّ ذٰلِكَ ؟ »

كُنْتُ في ٱلبِدايَةِ عاجِزًا عَنِ ٱلتَّفْكيرِ عَلى ٱلإِطْلاقِ ، فَقَدْ تَوَقَّفَتْ قُدُراتي ٱلعَقْلِيَّةُ ، وَلٰكِنّي

ما لَبِثْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ أنْ أَدْرَكْتُ أَنَّني لا بُدَّ أنْ أُغادِرَ جنيڤ عَلى عَجَلٍ ، فَلَوْ أَنَّهُمْ زَجُّوا بي في ٱلسِّجْنِ كَما فَعَلوا بِفرانْكِنِشْتاين لَما ٱسْتَطَعْتُ أنْ أُساعِدَهُ . وَفَوْقَ هٰذا ، فَإِنَّ والِدَهُ لا بُدَّ أنْ يَعْلَمَ .

وَهٰكَذا وَدَّعْتُ صَديقي عَلى عَجَلٍ ، واسْتَدَرْتُ بِجَوادي نَحْوَ طَريقِ بلْريف وَقَدْ قَفَزَتْ عَشَراتُ ٱلأَسْئِلَةِ في رَأْسي . وَما إنْ بَلَغْتُ كولوني — في مُنْتَصَفِ ٱلطَّريقِ إلى بلْريف — حَتّى كُنْتُ قَدِ ٱهْتَدَيْتُ إلى إجاباتٍ عَنْ مُعْظَمِ هٰذِهِ ٱلأَسْئِلَةِ : نَعَمْ ، لا بُدَّ أَنَّ ٱلأَحْداثَ قَدْ وَقَعَتْ عَلى ٱلنَّحْوِ ٱلتّالي :

حينَما تَرَكْتُ فرانْكِنِشْتاين عِنْدَ ٱلكُوخِ ، كانَ واضِحًا أَنَّهُ كانَتْ تَتَنازَعُهُ شُكوكٌ حَوْلَ ٱلتَّجْرِبَةِ كُلِّها . وَلَوْ أَنَّهُ كانَ قادِرًا عَلى أنْ يَمْنَحَ مِسْخَهُ ٱلجَديدَ ٱلحَياةَ بِمُجَرَّدِ أَنِ ٱنْتَهى مِنَ ٱلجَسَدِ ، لَفَعَلَ ذٰلِكَ دُونَ تَرَدُّدٍ . وَلٰكِنْ كانَ عَلَيْهِ أنْ يَنْتَظِرَ ٱلجَوَّ ٱلمُناسِبَ ، وَقَدْ أَتاحَ لَهُ هٰذا ٱلِانْتِظارُ وَقْتًا كافِيًا لِيُعاوِدَ ٱلتَّفْكيرَ وَلِيُغَيِّرَ رَأْيَهُ . وَهٰكَذا قَرَّرَ أَلّا يَمْنَحَ ٱلحَياةَ لِمِسْخٍ آخَرَ ، آخِذًا في ٱعْتِبارِهِ جَميعَ ٱلمَخاطِرِ ٱلَّتي قَدْ يَجُرُّها ذٰلِكَ عَلى ٱلجِنْسِ ٱلبَشَرِيِّ .

وَهٰكَذا ٱنْتَظَرَ فرانْكِنِشْتاين فَتْرَةً مِنَ ٱلوَقْتِ ، حَتّى إذا اطْمَأَنَّ إلى أَنَّ ٱلمِسْخَ ٱبْتَعَدَ عَنِ ٱلكُوخِ — أَوْ لَعَلَّهُ نَجَحَ هُوَ في إبْعادِهِ — أَخْرَجَ ٱلجَسَدَ مِنَ ٱلحَوْضِ . وَبَعْدَ أنْ قَطَّعَهُ بِٱلفَأْسِ ، أَلْقى هٰذِهِ ٱلقِطَعَ في ٱلجَدْوَلِ . وَلَعَلَّ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنَّ هاتَيْنِ ٱلقِطْعَتَيْنِ وُجِدَتا بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَأَنَّهُ سِيقَ إلى ٱلسِّجْنِ . وَلَوْ لَمْ يَحْدُثْ ذٰلِكَ لَٱكْتَشَفَ ٱلمِسْخُ ما فَعَلَ ، وَلَكانَ — في لَحْظَةِ هِياجٍ وَجُنونٍ — قَدْ قَتَلَهُ هُناكَ . فَهُوَ — عَلى ٱلأَقَلِّ — أَكْثَرُ أَمانًا في سِجْنِهِ .

وَلٰكِنْ ، إلى جوارِ هٰذِهِ ٱلفِكْرَةِ ٱلأَخيرَةِ ، خَطَرَتْ بِبالي فِكْرَةٌ أُخْرى . إذا كانَ فرانْكِنِشْتاين آمِنًا في سِجْنِهِ ، فَإِنَّ إليزابيث وَأَباهُ غَيْرُ آمِنَيْنِ . إنَّهُما — في ٱلواقِعِ — مُعَرَّضانِ

لأَشَدِّ ٱلأَخْطارِ . وَفي ٱلحالِ ، أَخَذْتُ أَسْتَحِثُّ جَوادي عَلى ٱلإِسْراعِ ، إِذْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَعودَ إِلى بلْريف بِقَدْرِ ما أَسْتَطيعُ مِنْ سُرْعةٍ ، بَلْ لَقَدْ كُنْتُ أَخْشى أَنْ يَكونَ ٱلأَوانُ قَدْ فاتَ .

الفَصْلُ ٱلسّابِعَ عَشَرَ

حينَما بَلَغْتُ ٱلمَنْزِلَ نَزَلْتُ عَنْ ظَهْرِ جَوادي ، وَلَمْ أَتَوَقَّفْ لِأَرْبُطَهُ بِٱلشَّجَرةِ ٱلمَعْهودةِ ، وَإِنَّما عَدَوتُ إِلى ٱلدّاخِلِ عَدْوًا ، وَكانَ يَتَمَلَّكُني شُعورٌ أَكيدٌ بِأَنَّ شَيْئًا مُرْعِبًا قَدْ حَدَثَ . وَلٰكِنْ عِنْدَ ما دَخَلْتُ حُجْرةَ ٱلجُلوسِ ، ماذا رَأَيْتُ ؟ رَأَيْتُ فرانْكِنشْتاين ٱلأَبَ جالِسًا عَلى مَقْعَدِهِ ٱلمُفَضَّلِ ٱلقَريبِ مِنَ ٱلنّافِذةِ يَقْرَأُ كِتابًا في هُدوءٍ . إِذًا فَإِنَّ ٱلمِسْخَ لَمْ يَصِلْ إِلى ٱلمَنْزِلِ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلا يَزالُ في ٱلوَقْتِ مُتَّسَعٌ لاتِّخاذِ ٱلحيْطةِ . وَبادَرْتُ فَأَخْبَرْتُ ٱلشَّيْخَ في كَلِماتٍ قَليلةٍ بِقَدْرِ ٱلإِمْكانِ عَنْ ڤيكْتور ، وَأَنَّهُ في ٱلسِّجْنِ . كانَ ٱلرَّجُلُ قَدْ عانى مِنْ قَبْلُ كَثيرًا ، وَلِذٰلِكَ كُنْتُ أَخْشى – لِلَحْظةٍ وَجيزةٍ – أَنْ يُصيبَهُ سَماعُ هٰذا ٱلخَبَرِ بِسُوءٍ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ تَلَقّاهُ دونَ كَثيرٍ مِنَ ٱلهَلَعِ ، فاسْتَمْرَرْتُ أَقولُ :

« إِنَّ ڤيكْتور – بِٱلطَّبْعِ – لَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا ، إِنَّهُمْ مُخْطِئُونَ ، وَلَنْ يَسْتَطيعوا أَنْ يُقَدِّموا دَليلًا يُدينُهُ أَمامَ ٱلمَحْكَمةِ . وَلا شَكَّ أَنَّكَ سَوْفَ تَبْذُلُ ما تَسْتَطيعُ لِتُخْرِجَهُ مِنَ ٱلسِّجْنِ . وَلٰكِنْ ، لَيْسَ هٰذا كُلَّ شَيْءٍ ، فَهُناكَ خَطَرٌ يُهَدِّدُنا . وَلَسْتُ أَسْتَطيعُ أَنْ أُخْبِرَكَ ٱلآنَ ، ما ٱلَّذي كانَ ڤيكْتور يَفْعَلُهُ ، كُلُّ ما أَسْتَطيعُ أَنْ أَقولَهُ إِنَّهُ أَوْجَدَ عَدُوًّا .. عَدُوًّا جَبّارًا مُتَعَطِّشًا لِلدِّماءِ . وَهٰذا ٱلعَدُوُّ إِذا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُدَمِّرَ ڤيكْتور نَفْسَهُ ، فَسَوْفَ يُحاوِلُ أَنْ يُدَمِّرَ أُسْرَتَهُ وَأَصْدِقاءَهُ . فَلا بُدَّ أَنْ نَتَّخِذَ ٱلحيْطةَ لِمَجيئِهِ ، بَلْ إِنَّهُ قَدْ يَكونُ هُنا ٱللَّيْلةَ ، وَلا بُدَّ أَنْ نُطْلِعَ إِليزابيث عَلى ٱلأَمْرِ حالًا . »

فَقالَ ٱلرَّجُلُ ٱلمُسِنُّ وَهُوَ يَهُزُّ رَأْسَهُ في أَسًى : « آهٍ ياصَديقي ! لَقَدْ جِئْتَ مُتَأَخِّرًا . إِنَّ إِليزابيث لَيْسَتْ هُنا . »

فَصِحْتُ وَقَدْ جاءَ دَوْري لِيُصيبَني ٱلذُّهولُ : « لَيْسَتْ هُنا ؟! إِذًا فَأَيْنَ تَكونُ ؟ »

فَأَجابَ : « بَعْدَ أَنْ غادَرْتَ ٱلمَنْزِلَ في هٰذا ٱلصَّباحِ مُباشَرةً قالَتْ إِنَّها ذاهِبةٌ لِتَزورَ ڤيكْتور في ٱلكوخِ ، وَقَدْ رَحَلَتْ مَعَ خادِمِنا إميل حَوالَى ٱلسّاعةِ ٱلتّاسِعةِ . »

لا عَجَبَ إذًا أنّها كانَتْ في أثْناءِ زِيارَتي الأَخيرةِ هادِئَةً قَليلةَ الكَلامِ عَنْ فرانْكِنِشْتايِن وَالكُوخِ ، فَلَقَدْ كانَتْ تَضَعُ خُطَتَها لِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ طَوالَ الوَقْتِ إذْ كانَتْ تَعْلَمُ أنّني لَنْ آخُذَها لِزِيارَتِهِ .

وَهٰكَذا صَمَّمَتْ عَلى أنْ تَذْهَبَ بِنَفْسِها إلى الكُوخِ ، وَهُناكَ احْتِمالٌ قَوِيٌّ أنَّ المِسْخَ الغاضِبَ كانَ مُنْتَظِرًا هُناكَ . لَقَدْ كُنْتُ أتَوَقَّعُ أنَّ المِسْخَ سَوْفَ يَأْتي إلى إليزابيث ، وَلٰكِنّي لَمْ أكُنْ أتَوَقَّعُ قَطُّ أنْ تَذْهَبَ إليزابيث بِقَدَمَيْها إلَيْهِ .

لَمْ يَكُنْ هُناكَ وَقْتٌ لِنُضَيِّعَهُ ؛ فَبَيْنَما كانَ فرانْكِنِشْتاين الأَبُ يَسْتَعِدُّ لِلذَّهابِ إلى جِنيفَ في مُحاوَلَةٍ لإخْراجِ ابْنِهِ مِنَ السِّجْنِ ، امْتَطَيْتُ جَوادًا غَيْرَ مُجْهَدٍ ، وَعُدْتُ بِهِ بِمُحاذاةِ البُحَيْرَةِ . وَفي هٰذِهِ المَرَّةِ أخَذْتُ مَعي مُسَدَّسًا ، إذْ جَعَلْتُ شِعاري مِنَ الآنَ فَصاعِدًا : « اقْتُلْ ، وَإلّا قُتِلْتَ . » وَتَرَكْتُ طَرِيقَ البُحَيْرَةِ عِنْدَ كولوني ، وَسَلَكْتُ طُرُقًا رِيفِيَّةً صَغيرَةً إلى وادي نَهْرِ آرْفي . كانَ هُناكَ احْتِمالٌ – مُجَرَّدُ احْتِمالٍ – لِمُقابَلَةِ المِسْخِ في الطَّرِيقِ ، عَلى اعْتِبارِ أنَّهُ لَنْ يَذْهَبَ مِنَ الطَّرِيقِ المَأْهُولِ الَّذي ذَهَبَتْ مِنْهُ إليزابيث ، كَما كانَ هُناكَ احْتِمالٌ أنَّهُ لَمْ يَجِدْها ، وَكَذٰلِكَ احْتِمالٌ أنَّها لَمْ تَهْتَدِ إلى الكُوخِ .

وَعَلى أيَّةِ حالٍ ، فَإنَّني لَمْ أَلْتَقِ بِالمِسْخِ في الطَّرِيقِ ، وَحينَما وَصَلْتُ أخيرًا إلى طَرَفِ الغابَةِ – حَيْثُ يَقومُ الكُوخُ – ازْدادَتْ مَخاوِفي . فَقَدْ كانَ هُناكَ جَوادانِ مُطْلَقا السَّراجِ يَقْتاتانِ الأَعْشابَ ، وَأدْرَكْتُ أنَّهُما جوادا إليزابيث وَإميل ، وَلَمْ يَكُنْ إميل لِيَتْرُكَهُما طَليقَيْنِ هٰكَذا .

رَبَطْتُ جَوادي إلى شَجَرَةٍ ، وَقَطَعْتُ بَقِيَّةَ الطَّرِيقِ عَلى قَدَمَيْ مُمْسِكًا بِمُسَدَّسي في حالَةِ تَأَهُّبٍ . وَحينَما اقْتَرَبْتُ مِنَ الكُوخِ تَوَقَّفْتُ وَأصْغَيْتُ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ صَوْتٌ إلّا خَريرُ الماءِ في الجَدْوَلِ ، فَخَطَوْتُ إلى الأَمامِ ، وَنَظَرْتُ في داخِلِ الكُوخِ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ المَفْتوحَةِ لِحُجْرَةِ مَعْمَلِ فرانْكِنِشْتاين .

كانَ كُلُّ ما في الحُجْرَةِ مُحَطَّمًا تَحْطيمًا كامِلًا ، وَكانَ واضِحًا أنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَسْتَطيعَ أنْ يَقومَ بِمِثْلِ هٰذا التَّخْريبِ في الحُجْرَةِ إلّا مَخْلوقٌ يَمْلِكُ مِنَ القُوَّةِ وَمِنَ الكَراهِيَةِ وَالحِقْدِ أضْعافَ ما يَمْلِكُ البَشَرُ .

كُلُّ قِطْعَةٍ مِنَ المَعْدِنِ كانَتْ مُلْتَوِيَةً وَمُقْتَلَعَةً ؛ كُلُّ قِطْعَةٍ مِنَ الخَشَبِ كانَتْ مُهَشَّمَةً وَمُتَناثِرَةً قِطَعًا قِطَعًا ؛ أمّا الزُّجاجُ فَقَدْ أصْبَحَ مَسْحوقًا . الحَقُّ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ هٰذا إلّا مَجْنونٌ . وَقَدْ حاوَلْتُ أنْ أسْتَبْعِدَ مِنْ أفْكاري ما يُمْكِنُ أنْ يَفْعَلَهُ المِسْخُ الغاضِبُ بِإنْسانٍ حَيٍّ ، إذا كانَ هٰذا هُوَ الَّذي فَعَلَهُ بِالأَشْياءِ .

دَخَلْتُ الكُوخَ ، وَفَتَّشْتُ كُلَّ حُجْرَةٍ مِنْ حُجُراتِهِ ، فَلَمْ أجِدْ أحَدًا حَيًّا كانَ أوْ مَيِّتًا . وَبَحَثْتُ في جَميعِ الأَرْجاءِ حَوْلَ الكُوخِ فَلَمْ أجِدْ أثَرًا لِأَيِّ شَيْءٍ .

في البِدايَةِ لَمْ أرَ إميل الَّذي كانَ مُلْقًى قُرْبَ جانِبِ الجَدْوَلِ . وَلَمْ يَكُنِ الأَمْرُ بِالضَّبْطِ هُوَ أنَّني لَمْ أرَهُ ، وَإنَّما الواقِعُ أنَّني لَمْ أرَهُ كَشَكْلٍ أدَميٍّ . كانَتْ ذِراعاهُ وَرِجْلاهُ وَرَأْسُهُ في تَرْتيبٍ غَيْرِ طَبيعِيٍّ حَتّى لَقَدْ كانَ يَبْدو كَشَيْءٍ آخَرَ . كُلُّ عَظْمَةٍ في جِسْمِهِ كانَتْ مُحَطَّمَةً ، وَكانَ واضِحًا – في التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ – أنَّهُ مَيِّتٌ ، وَلٰكِنْ ماذا عَنْ إليزابيث ؟

أخَذْتُ أروحُ وَأغْدو حَوْلَ الجَدْوَلِ مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ دُونَ أنْ أجِدَ أيَّ أثَرٍ لَها . وَفَتَّشْتُ في الغابَةِ قُرْبَ الكُوخِ دونَ جَدْوى ، وَلَمْ أقْنَعْ بِهٰذا ، وَإنَّما قَضَيْتُ بَقِيَّةَ فَتْرَةِ ما بَعْدَ الظُّهْرِ باحِثًا في دَوائِرَ أوْسَعَ حَوْلَ الكُوخِ دُونَ نَجاحٍ . وَحينَئِذٍ ، وَقَبْلَ أنْ يُخَيِّمَ الظَّلامُ مُباشَرَةً وَجَدْتُ نَعْلًا بِجوارِ مَمَرٍّ يُؤَدّي إلى خارِجِ الغابَةِ في النّاحِيَةِ الجَنوبِيَّةِ ، وَكانَ واضِحًا أنَّها إحْدى نَعْلَيْ إليزابيث . فَأخَذْتُ أفَتِّشُ المِنْطَقَةَ الَّتي تُحيطُ بِهٰذا المَكانِ وَالخَوْفُ يَمْلَأُ قَلْبي ، وَلٰكِنْ لَمْ أجِدْ شَيْئًا آخَرَ . وَقُلْتُ لِنَفْسي : إنَّ عَدَمَ العُثورِ عَلى شَيْءٍ يَدْعو إلى التَّفاؤُلِ ؛ إذْ مِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ المِسْخَ قَدْ حَمَلَ إليزابيث وَذَهَبَ بِها وَهِيَ حَيَّةٌ لَمْ يَمْسَسْها بِسُوءٍ .

وَفي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتي خَطَرَ فيها هٰذا الخاطِرُ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ وَرائي ، فَبادَرْتُ إلى مُسَدَّسي ، وَلٰكِنْ لَمْ تَكُنْ لي بِهِ حاجةٌ . لَقَدْ كانَ فرانْكِنشْتاين ، فَهَتَفْتُ : « فرانْكِنشْتاين ! »

فَسَأَلَ مُبادِرًا : « هَلْ حَضَرْتُ بَعْدَ فَواتِ الأَوانِ ؟ »

وَحِينَ رَأى بَوادِرَ الشَّكِّ في وَجْهي قالَ : « لا تَخَفْ ! إنَّني لَمْ أَهْرُبْ مِنَ السِّجْنِ . لَقَدْ وَعَدَ أَبي أَنْ يُحْضِرَني أَمامَ القُضاةِ في الوَقْتِ الَّذي تُحَدِّدُهُ المَحْكَمَةُ ، وَعَلى هٰذا أَطْلَقوا سَراحي . أَظُنُّ أَنَّني لَسْتُ في حاجةٍ إلى أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ ما حَدَثَ بَعْدَ أَنْ غادَرْتَني ، فَأَنْتَ تَقْرَأُ أَفْكاري ، وَلا بُدَّ أَنَّكَ تَعْرِفُ ماذا فَعَلْتُ هُنا . وَالآنَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرَني بِما حَدَثَ هُنا بَعْدَ ذٰلِكَ . »

قَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتي بِاخْتِصارٍ كَما حَدَثَتْ ، وَحينَما فَرَغْتُ مِنها أَخَذَ النَّعْلَ مِنّي

وَضَمَّها إلى قَلْبِهِ لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ دونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ . كانَ يَبْدو مِثْلَ طِفْلٍ تَعِسٍ يَتَشَبَّثُ بِلُعْبَةٍ مُحَبَّبَةٍ إلى نَفْسِهِ . كانَ يَبْدو وَقَدْ فَقَدَ كُلَّ ما يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ فَلَمْ يَعُدْ قادِرًا عَلى عَمَلِ أَيِّ شَيْءٍ .

وَسَلَكْنا الطَّريقَ عائِدَيْنِ إلى الكوخِ ، وَكانَ إذْ ذاكَ مُظْلِمًا بارِدًا ، فَأَوْقَدْتُ نارًا مِنْ قِطَعِ الأَثاثِ المُهَشَّمَةِ المُتَناثِرَةِ ، وَأَكَلْنا الطَّعامَ القَليلَ الَّذي كُنْتُ أَحْضَرْتُهُ مَعي .

وَالآنَ ماذا نَفْعَلُ ؟ إنَّ المُشْكِلَةَ هِيَ أَنَّنا لا نَعْرِفُ شَيْئًا . أَ إليزابيث عَلى قَيْدِ الحَياةِ ؟ أَمْ أَنَّها لَيْسَتْ إلَّا جَسَدًا مُهَشَّمًا مُلْقًى في رُكْنٍ مُظْلِمٍ مِنَ الغابَةِ ؟ إنَّ عِلْمَ ذٰلِكَ عِنْدَ اللهِ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّنا ما زِلْنا نَتَعَلَّقُ بِالأَمَلِ في أَنْ تَكونَ حَيَّةً ، فَلَوْ أَنَّ المِسْخَ كانَ يَنْوي قَتْلَها لَكانَ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنْ يَقْتُلَها ها هُنا . لا بُدَّ أَنَّهُ أَخَذَها مَعَهُ ، إمَّا كَوَسيلَةٍ لِدَفْعِ فرانْكِنشْتاين إلى اسْتِئْنافِ العَمَلِ في جِسْمٍ جَديدٍ ، وَإمَّا لِكَيْ يَتَّخِذَها زَوْجَةً لَهُ . أَمّا السُّؤالُ المُهِمُّ فَهُوَ : أَيْنَ ذَهَبا ؟ وَهُوَ سُؤالٌ لا نَمْلِكُ جَوابًا لَهُ .

وَأَخيرًا نَظَّفْنا أَحَدَ أَرْكانِ الغُرْفَةِ حَيْثُ قَضَيْنا اللَّيْلَةَ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ في وُسْعِنا أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا حَتّى يَطْلُعَ أَوَّلُ خُيوطِ الصَّباحِ . بَلْ لَعَلَّنا – حينَئِذٍ – لَنْ يَكونَ في مَقْدورِنا فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ .

كُنّا مكدودَيْن ، ومَعَ ذٰلِكَ لَمْ نَسْتَطِعِ النَّوْمَ ؛ وظَلَّتِ الأَسْئِلَةُ التي لا جوابَ لَها تَعْتَمِلُ في ذِهْنَيْنا طَوالَ اللَّيْلِ . كانَ صَوْتُ الرَّعْدِ الذي يَقْصِفُ مِنْ بُعْدٍ سَحيقٍ يوقِظُ فينا المَخاوِفَ القَديمةَ . وهٰكَذا فإنَّ الجَوَّ الجَميلَ – الَّذي كانَ السَّبَبَ في أنْ يَتَّخِذَ فرانْكِنْشتاين قَرارَهُ بالتَّخَلّي عَنِ التَّجْرِبةِ – قَدْ تَحَوَّلَ أخيرًا إلى عاصِفةٍ .

وخَرَجْنا في الصَّباحِ الباكِرِ مَعَ أوَّلِ ضَوْءٍ ، وكُنّا في حالةٍ يُرْثى لها مِنَ البَرْدِ والجُوعِ ، وكانَ مِنَ المُتَعَذِّرِ عَلَيْنا أنْ نَثْنِيَ أطْرافَنا . وأخَذْنا الجَوادَيْنِ ليَشْرَبا مِنَ الجَدْوَلِ ، ثُمَّ بَدَأْنا سَيْرَنا بِمُحاذاةِ المَمَرِّ حَيْثُ وَجَدْتُ النَّعْلَ في اليَوْمِ السّابِقِ . وكانَ كُلُّ ما نَعْرِفُهُ هُوَ أنَّ المِسْخَ قَدْ مَرَّ بِهٰذا الطَّريقِ مُنْذُ حَوالَيْ سِتَّ عَشْرَةَ ساعةً ، أمّا أيْنَ هُوَ الآنَ ؟ فَقَدْ يَكونُ في أيِّ مَكانٍ .

وتَوَقَّفْنا وفَكَّرْنا ، ثُمَّ قَرَّرْنا أنْ نُواصِلَ السَّيْرَ بِمُحاذاةِ المَمَرِّ إذْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْنا فِكْرَةٌ أفْضَلُ مِنْ هٰذِهِ . وظَلَلْنا نَتْبَعُهُ خارِجَ الغابةِ إلى الجَنوبِ الغَرْبيِّ حَتّى وَصَلْنا إلى مُفْتَرَقٍ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ طَريقانِ : أحَدُهُما يَتَعَرَّجُ إلى الخَلْفِ مُتَّجِهًا إلى الجِهةِ العُلْيا مِنْ أرْضي ، والآخَرُ يَمْضي مُتَّجِهًا إلى ساليف . وتَساءَلْنا : تُرى هَلْ أخَذَ وِجْهَةَ أرْضي إلى شامُوني صُعودًا إلى نَهْرِ الجَليدِ الكَبيرِ ؟ فِكْرَةٌ مَعْقولةٌ ، فَهُوَ يَعْتَقِدُ أنَّنا لَنْ نَسْتَطيعَ اقْتِفاءَ أثَرِهِ خِلالَ الثُّلوجِ الَّتي تُغَطّي أعالِيَ الجِبالِ في هٰذا الوَقْتِ مِنَ السَّنةِ .

وعِنْدَما تَوَقَّفْنا هُناكَ ، ونَحْنُ نُحاوِلُ أنْ نُقَرِّرَ أيَّ الطَّريقَيْنِ نَسْلُكُ ، لاحَظْتُ شَيْئًا مُلْقًى عَلى بُعْدِ خُطُواتٍ قَليلةٍ مِنَ الطَّريقِ الآخَرِ ، فَتَرَجَّلْتُ عَنْ جَوادي وذَهَبْتُ والْتَقَطْتُهُ فإذا هُوَ نَعْلُ اليزابيث الأُخْرى . وجاءَ فرانْكِنْشتاين وأخَذَها بَيْنَ يَدَيْهِ ، وأخَذَ يُقَلِّبُها في شَكٍّ وارْتِيابٍ .

فَقُلْتُ : « حَسَنًا ! أ لَسْتَ مَسْرورًا ؟ أ لَيْسَتْ هٰذِهِ ضَرْبةَ حَظٍّ جاءَتْ في الوَقْتِ

المُناسِبِ حينَ أرَدْنا أنْ نَعْرِفَ في أيِّ اتِّجاهٍ سارا ؟ لَقَدْ عَرَفْنا الآنَ وِجْهَتَهُما . »

فَأجابَ صَديقي : « بالضَّبْطِ ! في الوَقْتِ المُناسِبِ حينَ أرَدْنا أنْ نَعْرِفَ . حَظٌّ ؟ لَسْتُ مُتَأكِّدًا مِنْ هٰذا تَمامًا . »

فَقُلْتُ : « إذًا فَلا بُدَّ أنْ تَكونَ إليزابيث هِيَ الَّتي فَعَلَتْ هٰذا . إنَّها أرادَتْ أنْ تَدُلَّنا عَلى الطَّريقِ . »

فَهَزَّ فرانْكِنْشتاين رَأْسَهُ ، وقالَ : « أعْتَقِدُ أنَّ الصَّوابَ أبْسَطُ مِمَّا تَتَصَوَّرُ . أعْتَقِدُ أنَّ المِسْخَ نَفْسَهُ هُوَ الَّذي أَلْقى النَّعْلَيْنِ كِلْتَيْهِما . »

فَصِحْتُ : « المِسْخُ نَفْسُهُ ؟ ولٰكِنْ لِماذا يُريدُنا أنْ نَعْرِفَ الطَّريقَ الَّذي سَلَكَهُ ؟ »

فَكانَ جَوابُ فرانْكِنْشتاين : « ألا تُدْرِكُ ماذا يُريدُ ؟ يُريدُ أنْ يَسْتَدْرِجَنا لِكَيْ نَقَعَ في قَبْضَتِهِ . أعْتَقِدُ أنَّهُ يُريدُ أنْ يُدَمِّرَنا جَميعًا .. نَحْنُ الثَّلاثةَ . إنَّ إليزابيث في قَبْضَتِهِ وهُوَ يَسْتَغِلُّها في الإيقاعِ بِنا . ألا تَرى أنَّ هٰذِهِ النَّعْلَ كانَتْ مُلْقاةً في وَسَطِ الطَّريقِ تَمامًا ؟ إنَّ الأمْرَ مِنَ السُّهولةِ بِحَيْثُ يَصْعُبُ أنْ يَكونَ مُصادَفةً . »

لَمْ أكُنْ مُقْتَنِعًا بِوُجْهةِ نَظَرِ فرانْكِنْشتاين في ذٰلِكَ الوَقْتِ ، ولٰكِنْ حينَ مَضَيْنا وأتَيْنا إلى مُفْتَرَقٍ آخَرَ ذي اتِّجاهَيْنِ وَجَدْنا مِنْديلًا مُعَلَّقًا في غُصْنِ شَجَرةٍ ، فَبَدَأْتُ أعْتَقِدُ أنَّ صَديقي رُبَّما كانَ عَلى حَقٍّ ، ومُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظةِ كُنْتُ أُبْقي يَدي فَوْقَ مُسَدَّسي .

كانَتِ السّاعةُ حَوالَى العاشِرةِ حينَما تَوَقَّفْنا لِنَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ الرّاحةِ ، ولَمْ يَكُنْ واضِحًا في أذْهانِنا بَعْدُ إلى أيْنَ نَتَّجِهُ مِنْ هٰذا المَكانِ . إذا كانَ المِسْخُ يَبْحَثُ عَنْ مَكانٍ قَفْرٍ لِيُقيمَ فيهِ فَلَنْ يَقَعَ اخْتِيارُهُ عَلى الساليف ، فَهُوَ لَيْسَ مَكانًا لِلصَّقيعِ والثُّلوجِ ، ولٰكِنَّهُ أرْضٌ مُعْشِبةٌ جَميلةٌ مُنْبَسِطةٌ فَوْقَ قِمَّةِ مُنْحَدَراتٍ صَخْرِيَّةٍ ضَخْمةٍ بَيْضاءَ .

وفي هٰذا الصَّباحِ لَمْ يَتَحَدَّثْ فرانْكِنْشتاين كَثيرًا ، ولٰكِنَّ مَلامِحَ وَجْهِهِ كانَتْ توحي إلَيَّ

بِأَكْثَرَ مِمّا كانَ يُمْكِنُ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ الكَلِماتُ . إِنَّهُ لَنْ يَفِرَّ لَهُ قَرارٌ إِلّا إِذا أَهْلَكَ المَخْلوقَ الَّذي أَوْجَدَهُ ، أَوْ : إِلّا إِذا أَصْبَحَ – هُوَ – مِنَ الهالِكينَ .

كانَ الرَّعْدُ يَقْصِفُ ، ثُمَّ ازْدادَ قَصْفًا وَأَصْبَحَ قَريبًا مِنّا . وَتَطَلَّعْتُ إِلى الجَبَلِ الَّذي كانَ يَبْدو إِذْ ذاكَ واضِحًا – عَلى غَيْرِ العادَةِ – في هٰذا الهَواءِ الرّاكِدِ المُثْقَلِ الَّذي يُنْذِرُ بِهُبوبِ العاصِفَةِ . وَبَيْنَما كُنْتُ أُشَرْئِبُّ بِبَصَري نَحْوَ الجَبَلِ ، إِذا بي أَرى شَيْئًا يَتَحَرَّكُ عَلى حافَةِ المُنْحَدَرِ الصَّخْريِّ فَقُلْتُ وَأَنا أُشيرُ إِلَيْهِ : « أَضْخَمُ مِنْ أَنْ يَكونَ إِنْسانًا أَوْ حَيَوانًا ! »

فَتَطَلَّعَ فرانْكِنِشْتاين وَقالَ : « وَلٰكِنْ لَيْسَ أَضْخَمَ مِنْ أَنْ يَكونَ مِسْخًا يَحْمِلُ فَتاةً ، هَلْ تَرى ؟ إِنَّهُ فَوْقَ حافَةِ الجُرْفِ تَمامًا حَيْثُ تُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ وَلَيْسَ وَراءَهُ إِلّا السَّماءُ . ما أَشَدَّ ذَكاءَهُ ! إِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنا هُنا ؟ وَيَهْدِفُ إِلى اسْتِدْراجِنا لِكَيْ نَتْبَعَهُ . »

وَمَضَيْنا عَلى جَوادَيْنا حَتّى وَصَلْنا إِلى ثُلْمَةٍ في الجُرْفِ حَيْثُ يُمْكِنُ التَّسَلُّقُ مِنْها عَنْ طَريقِ مَمَرٍّ صَخْريٍّ حَتّى القِمَّةِ . وَهُناكَ تَرَكْنا الجَوادَيْنِ ، وَبَدَأْنا نَتَسَلَّقُ ، وَكانَ المَفْروضُ أَنْ يَكونَ المِسْخُ أَقْدَرَ مِنّا عَلى الحَرَكَةِ وَأَسْرَعَ ، وَلٰكِنْ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ حَمْلُهُ لِإليزابيث قَدْ أَثَّرَ في سُرْعَتِهِ . وَلِذٰلِكَ فَحينَما بَلَغْنا القِمَّةَ ، وَجَدْنا أَنَّهُ لا يَسْبِقُنا كَثيرًا .

وَسَأَلْتُ فرانْكِنِشْتاين : « إِذا كانَ قَدْ رَآنا وَنَحْنُ في الأَسْفَلِ فَلِماذا لَمْ يُهاجِمْنا وَنَحْنُ نَصْعَدُ إِلى أَعْلى الجُرْفِ ؟ لِماذا يَدَعُنا في سِباقٍ مَعَهُ ؟ »

فَأَجابَ : « إِنَّهُ لا يَزالُ راغِبًا في اسْتِدْراجِنا ، إِنَّه يَسْعى إِلى بُلوغِ أَعْلى نُقْطَةٍ في الجُرْفِ ، وَحينَما يَصِلُ إِلَيْها فَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُ سَوْفَ يَقْذِفُ بِإليزابيث إِلى الهُوَّةِ مِنْ عَلُ . وَسَوْفَ يَكونُ أَكْثَرَ اسْتِمْتاعًا حينَما نَكونُ هُناكَ لِنَرى هٰذا المَشْهَدَ . »

كانَتِ العاصِفَةُ قَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَهُبَّ فَوْقَنا ، وَعِنْدَ ما انْدَفَعْنا إِلى أَعْلى فَأَعْلى فَوْقَ العُشْبِ الخَشِنِ ، بَدَأَتْ أَوَّلُ قَطَراتٍ ثَقيلَةٍ مِنَ المَطَرِ تَهْطِلُ عَلَيْنا . وَكانَ هُناكَ وَميضٌ مِنَ البَرْقِ

كُلَّ بِضْعِ دَقائِقَ ، يَلْمَعُ فَيُضيءُ كاشِفًا عَنْ هَيْكَلِ المِسْخِ ، فَيَظْهَرُ وَهُوَ يَحْمِلُ إِليزابيث وَيَسْحَبُها شَيْئًا فَشَيْئًا نَحْوَ البُقْعَةِ الَّتي اخْتارَها لِلْقَضاءِ عَلَيْها ، وَكانَ يَبْدو أَنَّهُ قَدْ أَصابَهُ الإِعْياءُ . وَحينَما بَدَأَتِ المَسافَةُ تَضيقُ بَيْنَنا وَبَيْنَهُ أَخَذَ يَنْظُرُ إِلى الوَراءِ نَحْوَنا ، وَكانَ الشَّرُّ يَتَقِدُ في عَيْنَيْهِ . أَمّا شَعْرُهُ الَّذي بَلَّلَهُ المَطَرُ – وَقَدْ كانَ يَهْطِلُ بِغَزارَةٍ في ذٰلِكَ الوَقْتِ – فَقَدْ كانَ مُدَلًّى فَوْقَ وَجْهِهِ كَطَرَفَيْ ثَوْبٍ مُبَلَّلٍ بِالزَّيْتِ .

كُنْتُ أَنا وَفرانْكِنِشْتاين نَتَسَلَّقُ جَنْبًا لِجَنْبٍ ، وَلَمّا كُنْتُ أَنا في جانِبِ الجُرْفِ ، كُنْتُ أَتَحَسَّسُ مَوْقِعَ قَدَمي بِحِرْصٍ شَديدٍ لا يَقِلُّ عَنْ حِرْصي عَلى تَتَبُّعِ خُطُواتِ المِسْخِ ، مَخافَةَ أَنْ تَزِلَّ قَدَمي عَلى الصَّخْرَةِ الزَّلِقَةِ خُطْوَةً واحِدَةً فَأَهْوِيَ مِئاتِ الأَمْتارِ في الوادي السَّحيقِ ، إِلى حَيْثُ المَوْتُ المُحَقَّقُ .

وَكُنّا عَلى بُعْدِ خُطُواتٍ وَراءَهُ حينَما بَرَقَ البَرْقُ فَأَضاءَ الصُّخورَ العالِيَةَ الَّتي في الأَمامِ ، وَإِنّي لأَذْكُرُ شَميمَ هٰذِهِ الرّائِحَةِ الغَريبَةِ المُحْتَرِقَةِ الَّتي تَنْبَعِثُ مِنَ الصّاعِقَةِ حينَ تَكونُ قَريبًا مِنْها .

وَتَوَقَّفَ المِسْخُ ، وَظَنَنْتُ في أَوَّلِ الأَمْرِ أَنَّ سَنا البَرْقِ قَدْ ذَهَبَ بِبَصَرِهِ ، وَلٰكِنّي رَأَيْتُهُ فَجْأَةً يَلْتَفِتُ لِيُواجِهَنا حامِلًا إِليزابيث بَيْنَ ذِراعَيْهِ . وَسارَعْتُ فَجَذَبْتُ مُسَدَّسي مِنْ داخِلِ سُتْرَتي حَيْثُ كُنْتُ أُبْقيهِ لِيَظَلَّ جافًّا . وَفي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتي كُنْتُ أُفَكِّرُ فيها أَنَّني لَنْ أَسْتَطيعَ اسْتِخْدامَهُ دونَ أَنْ أُعَرِّضَ إِليزابيث لِلْخَطَرِ ، إِذا بِالمِسْخِ يَرْفَعُها عالِيًا فَوْقَ رَأْسِهِ ، وَيَقْذِفُ بِها نَحْوي بِكُلِّ ما يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ .

وَلَوْ أَنَّ جِسْمَها صَدَمَني في مَكانٍ أَعْلى بِقَليلٍ لَكانَ أَطاحَ بي مِنْ فَوْقِ الحافَةِ ، وَهٰذا – بِالطَّبْعِ – ما اسْتَهْدَفَهُ المِسْخُ . أَمّا وَقَدْ سَلِمَ ، اللهُ فَإِنَّ الصَّدْمَةَ جَعَلَتْ قَدَمَيَّ – فَقَطْ – تَتَزَلْقِانِ . وَوَجَدْتُ نَفْسي مُعَلَّقًا عَلى الحافَةِ وَذِراعاي تُطَوِّقانِ عُنُقَ إِليزابيث ، وَسارَعَتْ هِيَ فَوَضَعَتْ ذِراعَيْها حَوْلَ عُنُقي . وَهٰكَذا بَقِينا لَحَظاتٍ بِهٰذا

ٱلوَضْعِ ، لا حَوْلَ لَنا وَلا قُوَّةَ . هِيَ راقِدةٌ فَوْقَ ٱلحافَةِ ، وَأنا مُتَعَلِّقٌ بِها . وَأَذْكُرُ أَنَّني كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ ٱرْتِطامِ مُسَدّسي وَهُوَ يَسْقُطُ مِنْ صَخْرةٍ إلى صَخْرةٍ ، حَتّى اسْتَقَرَّ أَخيرًا عَلى مَقْرَبةٍ مِنْ قاعِ ٱلجُرْفِ .

صِحْتُ في إليزابيث بِعُنْفٍ وَأنا أُحاوِلُ أَنْ أَتَحَسَّسَ مَوْقِعًا لِقَدَمي في ٱلصَّخْرةِ : « تَشَبَّثي بي ! تَشَبَّثي بي ! »

وَلَمْ أَكُنْ في تِلكَ ٱللَّحْظةِ أَسْتَطيعُ أَنْ أَرى ماذا كانَ فرانْكِنشْتاين وَٱلمِسْخُ يَفْعَلانِ ، بَلْ إنَّني لَمْ أَكُنْ أُبالي . كُلُّ ما كانَ يَهُمُّني في هٰذِهِ ٱلدُّنْيا في تِلْكَ ٱللَّحْظةِ هُوَ أَنْ أَصِلَ بِإِحْدى قَدَمَيَّ إلى أَعْلى حافةِ ٱلجُرْفِ ، وَقَدِ اسْتَطَعْتُ فِعْلًا بَعْدَ لَأْيٍ ، وَلَمْ يَكُنْ صَعْبًا بَعْدَ هٰذا أَنْ أَرْتَفِعَ بِجِسْمي كُلِّهِ فَوْقَهُ . وَبَيْنَما كُنْتُ أَرْقُدُ لِأَسْتَرِدَّ أَنْفاسي وَأَسْتَعيدَ قُوَّتي ، رَأَيْتُ فرانْكِنشْتاين وَٱلمِسْخَ يَتَصارَعانِ عَلى بُعْدٍ مِنّا فَوْقَ حافةِ ٱلجُرْفِ . وَكانَتِ ٱلصَّخْرةُ تَحْتَ أَقْدامِهِما مُبَلَّلةً بِٱلدَّمِ ٱلَّذي تَدَفَّقَ مِنْ جُرْحٍ في صَدْرِ ٱلمِسْخِ أَحْدَثَهُ فرانْكِنشْتاين حينَما طَعَنَهُ بِسِكّينٍ كانَ في يَدِهِ . وَلٰكِنَّ يَدَ ٱلمِسْخِ ٱلضَّخْمةَ كانَتْ تَنْطَبِقُ عَلى يَدِ فرانْكِنشْتاين ، وَتَمَكَّنَ ٱلمِسْخُ – بِحَرَكةٍ مُفاجِئةٍ – أَنْ يَنْتَزِعَ ٱلسِّكّينَ مِنْهُ ، وَشَهَرَهُ عالِيًا فَوْقَ رَأْسِهِ لِيَهْوِيَ بِهِ عَلَيْهِ . وَكُنْتُ أَرى – لِأَوَّلِ مَرَّةٍ – ٱلفَرْحةَ ٱلحَقيقيَّةَ في وَجْهِ ٱلمِسْخِ لِهٰذا ٱلِٱنْتِصارِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَمْلِكُ إلّا أَنْ أُشيحَ بِوَجْهي بَعيدًا لِكَيْلا أَرى ٱلطَّعْنةَ ٱلقاتِلةَ ، وَأَرى صَديقي وَهُوَ يَموتُ . وَلٰكِنْ فَجْأةً سَطَعَ وَميضٌ أَزْرَقُ ، وَلَمْ أَرَ شَيْئًا بَعْدَ ذٰلِكَ .

أَفَقْتُ مِنْ غَشْيَتي عَلى أَلَمٍ ، وَرائِحةِ ٱحْتِراقٍ . وَلَمْ يَكُنْ في هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ مُجَرَّدَ هَواءٍ يَحْتَرِقُ ، بَلْ إنَّ ٱلنّارَ كانَتْ مُشْتَعِلةً في سُتْرَتي ، فَمَزَّقْتُها وَنَزَعْتُها وَأَلْقَيْتُها فَوْقَ ٱلأَرْضِ ثُمَّ أَخْمَدْتُ ٱلنّارَ بِقَدَمي . كانَ خَدّي يُؤْلِمُني ، وَحينَما وَضَعْتُ يَدي عَلَيْهِ لِأَتَحَسَّسَهُ وَجَدْتُ أَنَّ بَعْضًا مِنْ شَعْري قَدِ ٱحْتَرَقَ . وَنَظَرْتُ ، فَإِذا كُلُّ ما حَوْلي مِنْ عُشْبٍ قَدْ أَصْبَحَ بُنِّيَّ ٱللَّوْنِ يَتَصاعَدُ مِنْهُ ٱلدُّخانُ . لَقَدْ كانَ المَوْتُ أَقْرَبَ مِنْ حَبْلِ ٱلوَريدِ ، وَحَمَدْتُ اللهَ عَلى أَنَّني لا أَزالُ حَيًّا .

أمّا إليزابيث فقد كانت ترقد عند قدمي ، وكانت ثيابها محترقة أيضًا ، ولكنّ المطر الغزير كان قد أخمد النار . فرفعتها عن الأرض ، وحينما أسندت جسمها إليّ أحسست خفقان قلبها . كانت على قيد الحياة .

ولكن ماذا عن فرانكنشتاين والمسخ ؟ لقد شخصت ببصري إلى حيث كنت رأيتهما من قبل ، فلم أر هناك إلّا كتلة متفحّمة . كانت كلّ ما بقي من جثتيهما .

وهكذا التقيا معًا في الموت : الموجِد والموجَد ؛ التقيا معًا حيث لا يستطيعان أن يفترقا .

انقضت فترة قبل أن أتمكّن من استيعاب ما حدث ، وبيان ذلك أنّ السكّين الذي رفعه المسخ ليغمده في جسم فرانكنشتاين ، كان هدفًا للبرق فأصابته الصاعقة فدمّرتهما . وهكذا كانت هذه القوّة الطبيعيّة التي تسبّبت في وجوده ، هي نفسها التي تسبّبت في هلاكه .

وأخيرًا أفقت ، وتحرّرت من الكابوس الذي كان يؤرقني ويعوق حركتي ، فعاونت إليزابيث لتقف على قدميها . وسارعنا – ويدي في يدها – إلى الهبوط ، ولم نتوقف إلّا حين وصلنا إلى حيث يقف الجوادان مذعورين عند سفح الجبل ، ثمّ يممنا وجهينا شطر جنيف يلفنا صمت رهيب ، ويغشى بشرتينا اسود دامس وحروق وبلل .

كانت خاتمة هذه القصة غير السعيدة – بالنسبة للبعض على الأقل – خاتمة طيبة . ولم نكن ندري – ونحن نسير بجوادينا تحت الأمطار الهاطلة في ذلك اليوم – أنّ أيامًا أسعد كانت تنتظرنا : أنا وإليزابيث .

لقد كان مصرع فيكتور خسارة أفدح من أن نتحمّلها ، سواء أكانت ذكراه كصديق ، أم كمحبّ ، أم كابن . كان وقع الخبر على فرانكنشتاين الأب أليمًا ، ولكن الرجل كان

قويًا في عقله وفي بدنه على السواء . ولقد عاش بعد ذلك لا ليمنحنا – أنا وإليزابيث – البركات والتهاني حينما تزوّجنا فحسب ، ولكن ليرى أوّل أطفالنا الذي سمّيناه « فيكتور » أيضًا .

والآن أنا رجل مسنّ ؛ مسنّ كما كان والد فرانكنشتاين عندما وقعت أحداث هذه القصّة . وقد عشت – مثله أيضًا – حتى وفاة الزوجة التي منحتها الحبّ الكثير . كنت أشعر أنّ العمر لن يطول بي ، لذلك سجّلت هذه القصّة – كما وعدت في مقدّمتها – لكيلا تموت بموتي ، وتُدفن في صدري .

أمّا من حيث « سرّ الحياة » الذي مات مع فرانكنشتاين ، فلعلّ العلماء يستطيعون بعد أن يزدادوا علمًا أن يُعيدوا اكتشافه يومًا ما . ولكنّي – حينما يأتي ذلك اليوم – سأكون في عداد الأموات ، وأعتقد أنّني لن أكون آسفًا .

الروايات المشهورة

١ ــ جين إير
٢ ــ فرانكنشتاين
٣ ــ مونفليت
٤ ــ دراكولا
٥ ــ لورنا دون
٦ ــ دكتور جيكل ومستر هايد

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 102